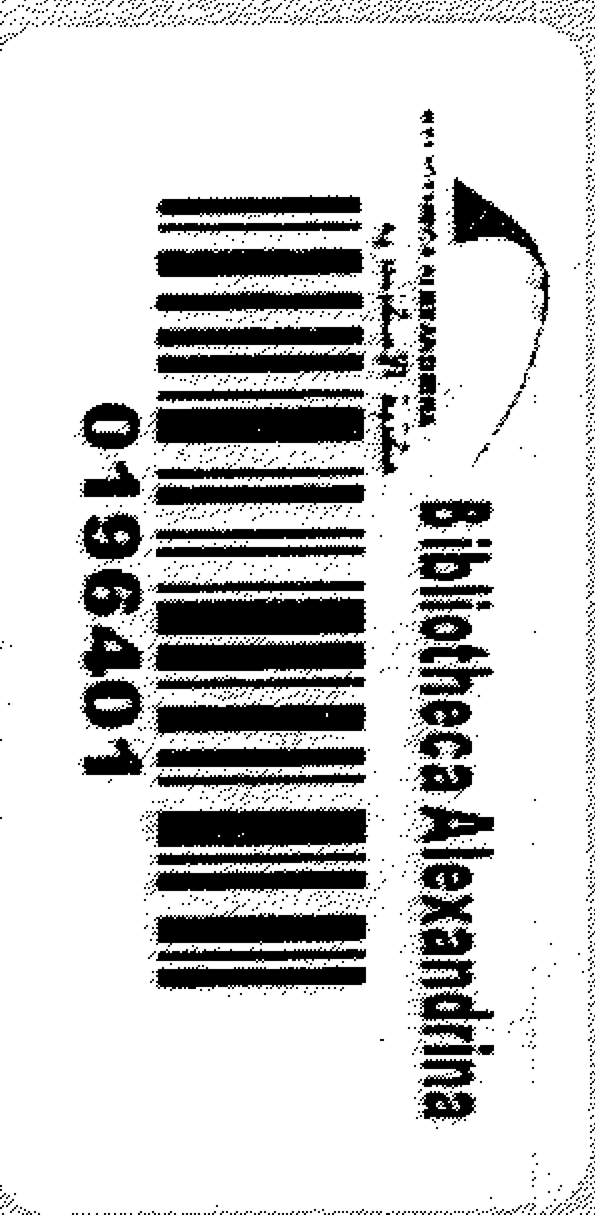
مذكراتي عن بعثتي في أسبانيا

١٩٥٠ - ١٩٥٢

محمد حسني عمر

سفير مصر السابق
في أسبانيا



دار المعارف بمصر

مذكراتي عن بعثتي

في

أسبانيا

١٩٥٠ ـ ١٩٥٢

للمؤلف :

القانون الدبلوماسي – المطبعة الأميرية، ١٩٤٦

اهداءات ١٩٩٩

مكتبة

أ.د عبد الحميد بدوي

القاضي بمحكمة العدل الدولية

مذكراتي عن بعثتي

في

أسبانيا

١٩٥٠ - ١٩٥٢

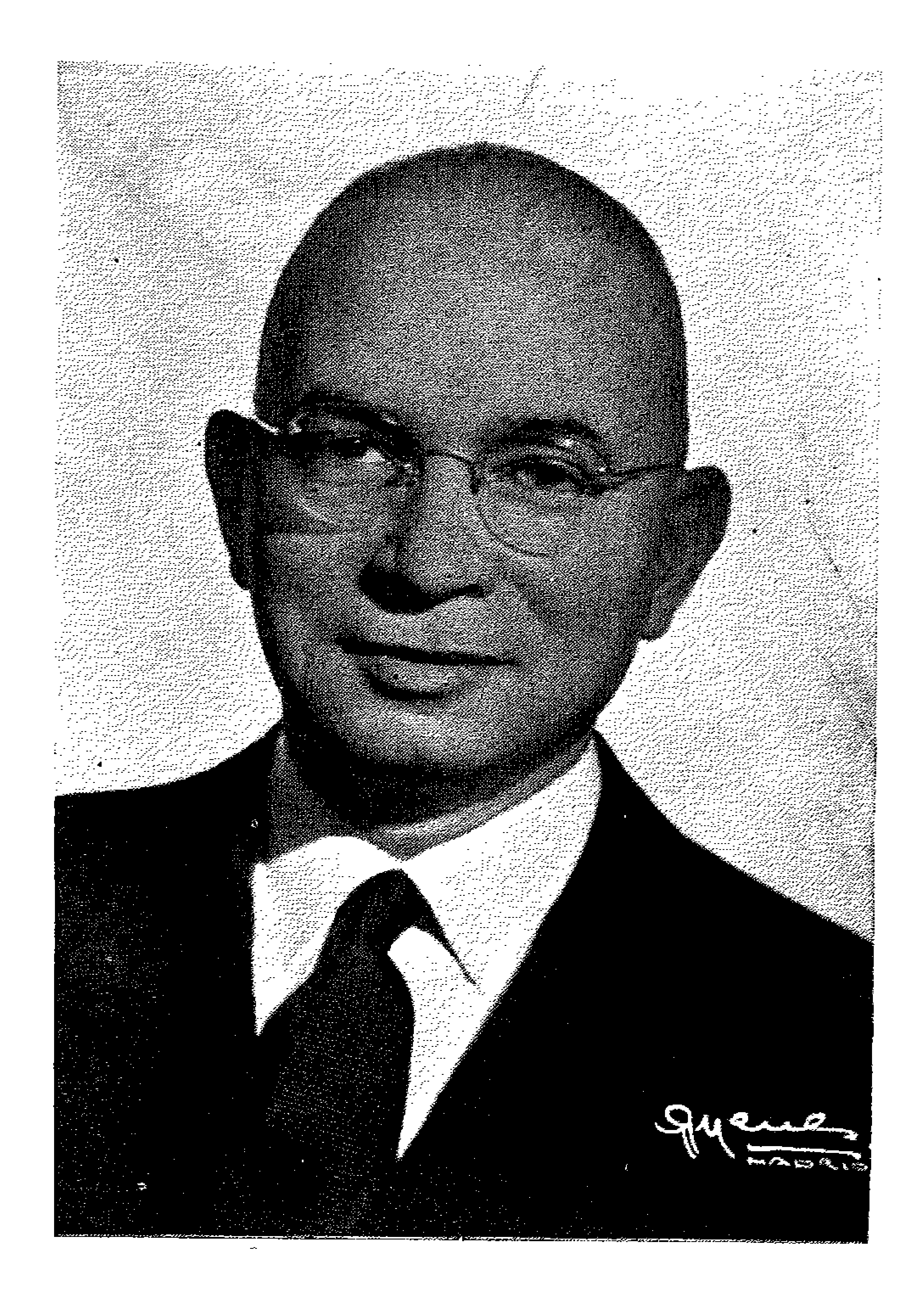
محمد حسني عمر

سفير مصر السابق

في أسبانيا

دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر



صورة المؤلف بمدريد منشورة بمناسبة ماجاء بالصفحة ١٦٦

الفهـــرس

الفصل الأول

صفحة

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الباب الثالث

ختام بعثتى الدبلوماسية

مقدمة

قد أدّيت واجب الزيارة إلى طليطلة وقرطبة وإشبيلية وغرناطة ، وهى المدائن ذوات التاريخ القديم المجيد ، والعظمة الخالدة ، والتى يحج إليها كل عام الآلاف من السائحين والباحثين من أنحاء العالم ، فأخذت بهجة الحاضر ، تتصل بروعة الماضى ، فسبح العقل بينهما ، وكلما توغل فى التفكير ، أثملته العظمة التالدة ، وهزّته الروايات المتعددة ، والقصص المثيرة ، ووفرة الأسانيد الدفينة ، فوقف القلم حائراً يخشى التسجيل ، إذ لا بدّ من التقصّى ، وهذا يستدعى الإقامة الطويلة فى هذه الربوع الجميلة مع القيام بالدراسات المستفيضة فى الكتب والآثار وأقوال الناس ، فانساب المداد من القلم من حيث لا أدرى ، وامتلأت به أقلام الباحثين والمؤرخين فأصبحت على الكتابة أقدر من قلمى ، وجلّ أملى أن يسهم علماء العرب فى هذا الميدان العلمى الجليل ، فيتحفوا العالم العربى بالبحوث القيمة ، معززة بوثائق عربية نفيسة ، تنفع كتّاب الأدب والتاريخ والدبلوماسية .

ب

لقد وُفقتُ إلى الفوز بعطف من قابلت وثقتهم ، ففتح البعض إلىّ صدورهم ، وأفصحوا عما فى باطن عقولهم ، فارتأيت عرفاناً بالجميل ، أن تبقى أسماؤهم فى حرز حريز ، على أن أدوّن ما اقتطفته من ثمرات عقولهم الناضجة ، وأنشرها على الملأ ، وقد التقطها يراعى ولم يقو على مغالبة سجية الكتابة ، فسطرها لكى تنمق فى الصحف الخالدة .

حـ

ولى كلمة أقولها فى غير تواضع ، وإنما فى صراحة حقّة ، ذلك أنه بينما أضع هذا الكتاب وأنا فى التقاعد ، ظهر لى أننى لم أقرأ إلا القليل من الكتب التى قرأها زملائى الأجانب ، الذين ألفوا الكتب القيمة عن بعثاتهم فى إسبانيا ، ثم ألفيت نفسى أمام تيار دافق من الكتب التى وضعت عن هذه البلاد الجميلة وشعبها الكريم ، ومنها ما نشر قبل بعثتى أو خلالها ولم أكن قد قرأته ، ومنها ما ظهر بعد بعثتى فقرأته .

فخجلت من نفسى إذ تبين لى أننى لم أكن أعلم عن إسبانيا إلا النزر اليسير قبل بعثتى وخلالها ، فقد غابت عنى أشياء هامة كثيرة ، ولو كنت

مزوّداً بها لأديت بعثى على وجه أصلح وأكثر إنتاجاً .

فمن القارئ ألتمس معذرة وعفواً ، وقد صارحته بضعفى وقصورى .

وأدين لزوجى بالفضل الجميل ، على احتمالها فى صبر ، ترهب التأليف ، وهوس القراءة .

وأقدم الشكر الجزيل إلى النخبة الكريمة من زملائى الأعزاء ، وأصدقائى الأوفياء ، الذين استمعوا فى أناة إلى قراءة هذا الكتاب ، فشجعنى على إخراجه إنصاتهم الكامل يتخلله بعض هزات الرؤوس .

ولله القدير أردد الحمد الذى لا حدّ له ، فإليه يرجع الفضل أولا وآخراً ، ومن توفيقه أننى أتممت هذا الكتاب يوم الجلاء ، وأنا أطلّ من النافذة على شاطئ البحر بلوران برمل الإسكندرية ، وقد سكنت أمواجه إجلالا ، بعد أن كانت بالأمس ترغى وتزبد ، وأخذت الطائرات تبعث بأزيزها يملأ الجو ، والعصافير تزقزق فى الحديقة بجوارى ، وذلك طرباً لعيد جلاء آخر جندى بريطانى عن أرض الوطن العزيز ، فأصبحت للدبلوماسية المصرية فى الخارج شخصية نقية من شوائب الاحتلال .

والآن قد بدأ الجهاد الأكبر للمحافظة على الجلاء والذود عنه ، وذلك بالعلم والخلق والعمل ، ولا شك أن أبناء الفراعنة والعرب جديرون بحمل العبء ، وأداء الرسالة .

ولأهالى إسبانيا الكرماء ، أؤكد ودى وتقديرى ، وأبعث بتحياتى وشكرى على قلال الأمواج المتشابكة ، التى ترتطم دواماً بشواطىء بلدينا ، ذوى الماضى التليد ، والحاضر السعيد ، والمستقبل الزاهر .

محمد حسنى عمر

لوران برمل الإسكندرية

فى ١٩٥٦/٦/١٨

الباب الأول

قبل بدء البعثة الدبلوماسية

١ – تمهيد :

إن نفس كل مشتغل بالأدب لتوّاقة لتقصّى أخبار إسبانيا الحاضرة، مشغوفة بمشاهدة الأندلس ، لأن العرب أقاموا فيها ما يقرب من ثمانية قرون (٧١١ – ١٤٩٢ م) ، وكان تاريخهم مجيداً ، وحكمهم عادلاً ، وإقامتهم مستحبة ، وعلمهم مناراً لأوربا المظلمة ، وآثارهم خالدة ، وعقولهم عبقرية ، قد انتصروا فى فتوحاتهم إذ كانت لهم قوة وعقيدة ، ثم انهزموا لما وهن هذان العنصران الجوهريان ، أليست الغلبة دائما لهما ؟ ولن تُشفى الإنسانية من طباعها الحيوانية العدوانية إلى أن توجد المثالية فى الإنسان وحكوماته .

فلما دالت دولة العرب فى الأندلس ، واستردّ الإسبان ملكهم ، وهدأت ثورة الغضب التى تعقب كل كفاح مرير ، اعترف الإسبان جميعاً بفضل العرب ، وسماحة حكمهم ، فأحست النفوس بالحدب على العرب والثقة بهم ، وسهولة التفاهم معهم .

وكنت أمنّى النفس بزيارة ، ولو عابرة ، لهذه البقاع ذوات التاريخ

السحرى الجذاب ، فكان من حظى الحسن أن الله منّ على بالتعيين كأول سفير لمصر لدى إسبانيا ، فأخذ ذلك من نفسى كل مأخذ ، إذ أن الإقامة ستضفى عليها انطباعات جمة مما يتيح للقلم أن يكتب عن كثب .

أخذت على الفور فى إتمام المراسم المعتادة فى مثل هذه المناسبة ، من الإمضاء فى سجل رئيس الدولة ، وزيارة سفير إسبانيا بمصر ، وقبول مأدبته الترحيبية والردّ عليها ؛ وكان زميلى الإسبانى دائب الإلحاح فى سرعة سفرى ، وقد استسغت هذا الإلحاف ، لأنه دبلوماسى صالح يتفانى فى الفوز بنصر سياسى لدولته المهزومة دبلوماسيًّا ؛ إذ أن غالبية الدول قد سحبت سفراءها ووزراءها المفوضين ، مكتفية بقائم بأعمال بالنيابة ، تنفيذاً لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ، الصادر فى ١٢ / ١٢ / ١٩٤٦ .

٢ ــ دراسة ابتدائية :

عكفت بديوان الوزارة على الاطّلاع على ما تيسر من الموضوعات المتعلقة بالبلدين ، فاستبانت لى الأهمية التجارية الكبرى ، إذ تبتاع إسبانيا منا قطناً بما يقرب من خمسة ملايين جنيه سنويًّا ، ولا نكاد نستورد منها شيئاً يذكر ، فالميزان التجارى فى صالحنا ، فارتأيت أنه من المصلحة المحافظة على كمية التصدير ، بل العمل على زيادتها ، على أن تزيد مصر

من وارداتها من المصنوعات الإسبانية .

ولقد تبين لى أن مجلس وزرائنا وافق على إنشاء معهد للدراسات الإسلامية بمدريد ، دون أن تؤخذ موافقة الحكومة الإسبانية على ذلك ، مع العلم بأن فى ممارسة أىّ نشاط علمى فى أية دولة مساساً بسيادتها ، ويجب أخذ موافقتها مقدماً ، فلما فاتحت ذوى الشأن فى ذلك ، أجابوا بأن هناك موافقة شفهية سابقة على لسان أحد ممثلى إسبانيا السابقين بمصر ، غير أننى أوضحت أن مثل هذه الشئون الهامة تقوم دائماً على الكتابة التأييدية لكل إجراء شفهى ، فأجابوا بأن الأمر هين ، فاستعداد القوم ظاهر ، وكياستى كفيلة بإتمام الإجراءات اللازمة فى هذا الصدد . فأبنت لهم أنه لم يفتح اعتماد مالى لهذا المعهد ، مع أن افتتاحه مرغوب فى إجرائه فى أواخر عام ١٩٥٠ ، فأتموا ذلك .

هذا وقد استرشدت برأى بعض الزملاء ، الذين سبق أن عملوا فى إسبانيا ، والتمست منهم تزويدى بنصائحهم الغالية ، ففزت بها ، ولن أنسى المعلومات الفريدة التى جرت على لسان أحدهم ، بأن كلمتى السكر والزيت فى اللغة الإسبانية من أصل عربى .

٣ – بذلة الردنجوت الرمادية :

بعد الاتفاق مع أولى الأمر بالوزارة ، التمست مقابلة الملك السابق

فاروق ، كما تقضى التقاليد ، وحدد موعد فى قصر القبة ، وقبل الموعد بيومين نبهنى أحد رجال القصر إلى أن ارتداء بذلة الردنجوت الرمادية أمر واجب فى فصل الصيف ، فأجبته بأننى لا أمتلك واحدة ، لأن أغلب عملنا فى الخارج ، ونكاد لا نستعمل بذلة الردنجوت السوداء فى مصر إلا نادراً ، فلنا عذر خاص رجوت قبوله ، فضلا عن ضيق الوقت لحياكتها أو استعارة واحدة . فما كان منه إلا أن شدّد فى ضرورة ارتدائها وإلا ألغيت المقابلة ، فتحملت النفس على مضض هذا التعسف فى القشور ، وهرعت إلى الحائك ، وأبديت له الظروف الطارئة المحرجة ، فاستجاب إلى الطلب الخارق ،وحاكها فى أربع وعشرين ساعة ، وأتم المعجزة ، وأبلغت ذلك إلى رجل القصر ، غير أننى صدمت عند ما ألفيت أحد زملائى سيقابل بعدى الملك السابق فى نفس اليوم ، وهو يرتدى بذلة الردنجوت السوداء ، وقد أبدى لرجل القصر الأسباب نفسها ، فقبلت منه ، على حين رُفضت لى ، فتقبلت النفس فى صبر هذه المعاملة غير العادلة ، وبثّت أنينها إلى القلم .

٤ – مقابلة الملك السابق :

قابلت الملك السابق فاروقاً بقصر القبة فى صيف ١٩٥٠ ، ولقد هالنى ما شاهدت ، إذ بادرنى بوجه عبوس وصوت جاف ، بأنه لا يسمح لى

مطلقاً بأن أكون فى طلباتى لحوحاً كبعضهم ، فلم أفهم ما يقصده ، وأرتج علىّ ، وانغلق فكرى قبل لسانى ، وانقبض الصدر فى مستهل بعثتى ، فأردف كلامه بأنه مع ذلك يقدر أن يكون المرء طموحاً فى حياته .

فاستجمعت قوى الفكر الشاردة ، وأجبته بأنه قد خبرنى كثيراً من قبل ولم يشهد منى طموحاً ملحاً أو غير ملح ، وأننى مكب على القراءة والكتابة والعمل فى سكون ، والتمست منه أوامره بصدد معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، فأحالنى إلى أحد رجال القصر ، ثم رجوته تزويدى بتعليماته فى مهمتى كأول سفير لدى إسبانيا ، فقال بأن أمامى مجالا واسعاً للبحث عن الكلمات الإسبانية التى من أصل عربى ، فأجبته بأننى سأعنى بذلك وسأوافيه بالنتيجة .

وودّعت الملك السابق وبودى لو أن المقابلة لم تتم أسوة ببعض سابقاتها ، وأرجعت حدّة توتر أعصابه إلى أن متاعب الحكم تؤرقه ، وشقوة النفس تحرّقه ، وحمدت الله على أن بعثتى قد حددت بأنها دبلوماسية لغوية .

فلما قدمت إلى إسبانيا فى أواسط سنة ١٩٥٠ وعكفت على تعلم اللغة الإسبانية ، عثرت على قاموس[١] طبع فى سنة ١٨٨٦ بغرناطة ونفدت

(١) قاموس فى اشتقاق الكلمات الإسبانية من أصل شرقى . لمؤلفه ليوبولدو دو إجيلاذ ويانجواس . (غرناطة ١٨٨٦) . Glosario etimologico de las palabras espanolas de origin oriental. (P. Leopoldo de Eguilaz y Yanguas.), Granada 1886.

أعداده ، يحتوى على الكلمات الإسبانية التى من أصل شرقى ، فاقتنيت فى عناء نسختين ، احتفظت بواحدة ، وبعثت بالثانية إلى الملك السابق فى أوائل سنة ١٩٥١ ، وبذلك أكون قد أتممت مهمتى فى بدء بعثتى .

٥ ـ زيارة بعض العظماء :

أديت الزيارة إلى بعض العظماء مستأذناً بالسفر ومستعلماً عن التعليمات التى أتبعها فى مهمتى ، فخرجت بعبارات عامة ، وهى تنمية العلاقات بين البلدين ، وكفى عنواناً لصداقة مصر بأن بعثت بسفيرها غير مراعية قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ، والأمل كبير فى أن إسبانيا تقوم من جانبها بعمل شىء لمراكش الخليفية تقديراً لصداقة العرب . ولما أردت تحديد معالم هذا التعميم ، لم أفز إلا بعبارات الثناء ، من أن الرسول اللبيب غير محتاج إلى مزيد ، فأخذت النفس الحائرة تهدأ ، إذ أن مصر ليست من الدول العظمى الخمس ، ذوات المقعد الدائم فى مجلس الأمن .

والحق أننى أشيد بكفاية أحد الرؤساء بديوان الوزارة ، وهو صديق وزميل ، واسع الاطّلاع فى السياسة الدولية ، فكان يرسم للدبلوماسى قبل سفره خطوطاً يعمل فى حدودها ، ولكنّ ذا الشخصية الممتازة لا يبقى طويلا فى منصبه بالوزارة ، فاضطر إلى تركه إلى منصب أعلى ، استجابة

للحجة المعتادة ، وهى خدمة المصلحة العامة ، فخسر الوطن خبيراً فى السياسة الخارجية ، ومن يمن الطالع أن تلقفه الوطن العربى .

فقدتُ على بركة الله قاربى الصغير ، وقد رُكب فيه محرك ذو قوة صغيرة ، داعياً المولى أن يوفقنى إلى أن أقطع به عباب البحر ، وأعود به فى أمان إلى الوطن العزيز ، محملاً ببعض الزاد والمتاع .

٦ – زيارة عبد العزيز فهمى باشا :

اعتدت قبل رحيلى إلى الخارج ، أن أسعد بزيارة ابن عمى عبد العزيز فهمى باشا ، فقد أجللته فى صغرى ، وقدرته فى كبرى ، ووجدته رجلاً ، والرجال قليلون ، وألفيته عالماً متواضعاً ، والعلماء قليلون ، فقد تضلع من اللغة العربية ، غير أنه ثار أمامى عليها ثورته الفوارة المعتادة ، معلناً عجزه عن إتقانها بالرغم من قراءته السنين الطوال ، وقد ترجم إلى العربية مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى فى دقة وأمانة ، ولكنه يصرح أمامى بأنه لم يكن مؤلفاً بل مترجماً والفضل يرجع إلى المؤلف ، ونوه بأننى أفضله لأننى ألفت كتاباً فى القانون الدبلوماسى ، وهكذا ضرب الأستاذ الكبير إلى تلميذه الصغير أحسن الأمثال ، إذ أراد بتواضعه الجم أن يشجع البادئين أمثالى من الكتاب .

لذلك زرته فى صيف عام ١٩٥٠ قبل سفرى إلى منصبى الجديد

بإسبانيا، فأخذ يسمعنى أبياتاً قيمة من ألفيته التى نظمها فى صوت هادئ ممتع ، شارحاً لى ما غمض من معان ، وما دقّ من ألفاظ ، وقد أذهلتنى ذاكرته القوية الفتية النادرة فى الشيخوخة ، وبعد أن تعلمت من الإنشاد والشرح ، اتجه تفكيرى إلى استشارته فى السياسة الداخلية ، فأبنت له أننى – ككل دبلوماسى – أوجه عنايتى إلى السياسة الدولية ، وأما السياسة الداخلية لدولتى ، فأكتفى بخطوطها الرئيسية ، وقد وضحت لى هذه الخطوط ، فإذا بها تنطق بأن غالبية الأدمغة المهيمنة لم يوجهها العقل والمصلحة العامة ، وإنما سيرتها العواطف والمآرب الشخصية من حيث لا تدرى ، مأخوذة بسحر القوى التسلطية ، وسألته رأيه كخبير بهذه الشئون فيما ذهبت إليه ، لأننى دوّنته فى مذكراتى التى سأنشرها فى التقاعد ، فأطرق قليلا ثم أخذ يهز رأسه وكأنه يؤمن على رأيى .

ثم سلمت مودّعاً ، وهنأنى بالسفارة ببلاد الأندلس الحبيبة إلى قلب كل عربى ، وعندما غادرت غرفته أحسست الدمع فى عينىّ يترقرق ، وكأن الزيارة للوداع الأخير ، فأبعدت هذا الهاتف من مخيلتى ، وجففّت الدمع ، ولكن شاءت إرادة الله أن يصدق الهاتف فيلقى ربه ، تاركاً وراءه فراغاً لا يملأ ، وذكرى عاطرة ، وكم كنت أودّ أن يستجيب ، رحمه الله ، إلى التماسى الملح المتكرر ، بأن يدوّن مذكراته خدمة للوطن ، ولكنه لم يفعل مع الأسف المرير ، فذهبت تجارب عقليته الفذة كما ذهبت

غيرها ، ودفنت معها تجارب الحياة ، فحرُمت الأجيال الأنوار التى تنير لها الكثير من طرق الحياة .

٧ ـ الإبحار من الإسكندرية :

كلما هممت بالابتعاد عن أرض مصر ، شعرت بألم الفراق ، وزاد التحنان إلى الوطن ، وتذكرت قول شاعرنا العظيم شوقى وهو يصيح من أعماق قلبه :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه   نازعتنى إليه فى الخلد نفسى !

ويتأصل حب الوطن فى النفس منذ الطفولة ، وينساب من موطن الوالدين والأهل والعشيرة ، فإذا كانت الأم أجنبية ، نشأ المرء يحب وطنين وإذا قام عداء بين الوطنين ، تنازعته عاطفتان متضادتان ، ولا يرجع حب الوطن إلى قلة الترحال أو إلى عاطفية الشرقى ، فالغربى والشرقى فى حبه سواء ، وفى الغرب يطلقون عليه مرض الحنين إلى الوطن (homesick) ، ولقد صحبت أفراد أسرتى فزاد هذا الشعور فيضاً ، إذ انعكس على النفس إحساسهم جميعاً .

وقد ودعنى وأسرتى على الباخرة السنيور دوبارثيناس ، سفير إسبانيا بمصر ، وغمرنا برقته وكياسته وبشاشته ، وكان دائم الحركة ، موفور النشاط ، مع أنه جاوز السبعين ، فلا يزال محتفظاً بشبابه فى عمله ، وكثيراً

ما عجز معاونوه عن مجاراته فيه ، وقد لاحظت فى ممثلى إسبانيا جميعاً احتفاظهم بحيوية الشباب فى شيخوختهم ، حتى إن حكومتهم حددت سن السبعين للإحالة إلى التقاعد، ولعلى أوفق فى أثناء اقامتى بإسبانيا إلى الكشف عن سر [١] ذلك فأنشره ، حتى يسعد الشيوخ بشبابهم فى الفترة الإنتاجية الكاملة من نهاية العمر .

وأقلعت السفينة على بركة الله ، وكانت حمولتها صغيرة ، فداعبتها أمواج البحر قليلا ، وقطعت الرحلة فى سلام ، ورست بمرسيليا .

٨ ــ بالسيارة إلى مدريد :

تنتقل الحكومة الإسبانية رسمياً فى الصيف كل عام إلى المصيف بسان سباستيان بشمال إسبانيا ، مع مراعاة الاقتصاد التام ، فلا ينتقل مع الوزير إلا بضعة موظفين ، وينتقل تباعاً رؤساء البعثات الدبلوماسية ، ولذلك فضلت أن أسلك الطريق البرى من مرسيليا إلى مدريد ماراً ببرشلونة بدلا من أيرون ، فقدت بنفسى سيارتى « البويك » ، وقطعت المسافة وقدرها حوالى ألف ومائة كيلو متر فى أربعة أيام ، وفيما يلى ما لفت نظرى ، فدونته يراعى :

(ا) أن الطريق الذى قطعته فى جنوب فرنسا حسن ، وطوله حوالى

---

(١) لقد كشفت عن السر فإذا به غنى النفس وهناءة البيت .

ثلثمائة كيلومتر ، ويجرى فى أراض سهلة خصبة ، تزدان بالكروم الأرضية الخضراء حتى سفح جبال بيرينه ، ذلك السدّ الطبيعى المنيع .

(ب) أن الأراضى الإسبانية ، ما عدا الساحلية ، عبارة عن كتلة صخرية سميكة شاسعة لنجد مرتفع منبسط ، تبلغ مساحته حوالى نصف مليون كيلو متر مربع ، وكأنه قلعة شيدت على مياه البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى ، ويتراوح ارتفاعه بين ٢٠٠ و ٨٠٠ متر ، وتعلوه قمم بعض الجبال الأصلاد ، ويتفاوت ارتفاعها بين ٨٠٠ و ٣٥٠٠ متر ، ولقد ذكرنى هذا النجد بمثيله فى إيران ، غير أن الأول يمتاز بالطرق الحسنة وقد شقت فى الصخور بمهارة فائقة ونفقات باهظة ، ويخفف هذا النجد الجبلى المرتفع من شدة حرارة يولية ، فسهل قطع المسافة وطولها حوالى ٨٠٠ كيلو متر ، مع ما فيها من الصعود البطىء الشاق ، والهبوط المنحدر الخطير .

(ح) فى أثناء إتمام الإجراءات الجمركية على الحدود الإسبانية ، أسرّ إلىّ موظف إسبانى فى حرارة ولغة فرنسية ركيكة ، بأن أصله من بنى أمية ، وهو فخور بهذا المحتد ، فشكرته على إظهار هذه العاطفة النبيلة ، التى يقدرها كل عربى ويعتز بها .

(د) أعجبنى « الفندق العظيم » بسرقسطة (ساراجوثا) ، وهو حديث الطراز ويحتوى على مائتى غرفة ، امتاز بالنظافة والخدمة الحسنة والطعام الإسبانى اللذيذ .

وبهرنى فى هذه المدينة منظر جماعة من أهلها وهم يرقصون فى أحد الشوارع ، رجالاً ونساء ، فى لباسهم الوطنى المزركش الجميل ، ذى الألوان البهية الزاهية ، وينقسم الراقصون والراقصات إلى مجموعات ، وتتكوّن المجموعة من فارس وغادة ، يتبارى كل منهما أمام الآخر فى ميدان العطف والصدّ والرضا والهجران ، فيدور ويقفز ويضرب الأرض بقدميه ضربات توقيعية ، تشتد تارةً وتخف أخرى ، وتدق أصابع اليد الصحون[١] الخشبية دقات شجية ، تعلو أحياناً وتهبط أخرى ، كل ذلك فى حركات رشيقة متسقة فنية حماسية ، يزيدها حسن الأداء رقة وروعة ، وقد تعالى أداء التوقيع وكأن الرقص أصبح متبوعاً للموسيقى العازفة وليس تابعاً لها ، وعشقت الأذن هذه الموسيقى التى تشبه المزمار الشعبى عندنا ، ووقف النظارة فى حلقة حول الراقصين والراقصات ، وقد أخذتهم نشوة الرقص ونغمات الموسيقى ، فاشتركوا فى الحفل بالتوقيع بالأيدى على نغمات الموسيقى .

وتسمى هذه الرقصة «الحوتا» ، وتمتاز بأن يدور الراقص ويلف حول نفسه ، أو حول زميلته الراقصة فى خفة ورجولة وقوة ، معبراً فى رقصاته عن استعطاف الحبيبة أو الخطيبة ، فتزيد الغادة دلالاً وخفرا ، فتقترب من فارسها رافعة الرأس فى إباء ، ثم تبتعد منه فى عجب وحياء ، وكأنها الغزالة

---

(١) الصحون : « castagnettes » . الصحن : طبيتان صغيران تضرب أحدهما على الآخر . (القاموس المحيط) .

تهرب من مطاردها ، وتتكرر هذه اللوحة الحية البديعة ، ذات الحركات الرياضية العنيفة ، مما يثير فى نفس المشاهد حرارة ونشوة ، وتنتهى الرقصة بأن يركع كل فارس أمام غادته ، فتضع قدمها فى كبرياء على ركبته ، وقد سلم الرجل وانتصرت المرأة .

ولأول وهلة بهرتنى روعة لباس الراقصات ، فهو يتكون من قميص مقفل ذى كمين ، ومن سروال فضفاض ينفتح عند ما تدور حول نفسها ، كما تنفتح الوردة عن أوراقها ، فهو لباس كامل الوقار يخفى جسم الراقصة كله ، فيحفظه من متعة العيون فتزداد المرأة جاذبية وأنوثة ، فلا يظهر منها إلا الوجه الجميل .

وربما كانت رقصة « الحوتا » عربية الأصل من كلمة « الخطوة » ، ولو أن القاموس يقول إن هذه الرقصة شعبية وشائعة فى إقليمى أرغون وبلنسيا ، وإن أصل الكلمة لاتينى .

وتركت هذا الجمع المرح ، وقد طاف بالنفس خاطر ، بأن هؤلاء القوم سعداء حقاً ، إذ يقضون أوقات فراغهم فى فرح وطرب ومتعة بريئة ، وقد ائتلفت القلوب وصفت النفوس ، وزالت الكآبة ، وامحت متاعب اليوم ، وحل البشر والتفاؤل وقوة العزيمة ، فيستقبلون الغد وهم أحسن حالا وأكثر إنتاجاً ، فما أسعدهم وهم لا يعلمون ! ! !

(هـ) لم تقع العين فى الطريق على قدم حافية ، وبدا الفلاحون

٣٠

والفلاحات أصحاء أقوياء ، ذوى قامات فارعة ، ووجوه حبتها الطبيعة بخدود وردية ، وظهرت قراهم مزودة بالماء والكهرباء ، ولو أن الطبيعة ضنت بها عليهم ، فقلت القرى وتباعدت ، وويل لمن يخونه الحظ فتصاب سيارته بعطب فى الطريق القفار .

الباب الثانى

فى أثناء بعثتى الدبلوماسية

تمهيد

اعتدت قبل أن أدخل مضجعى ، أن أكتب خطرة ، فأؤدى مرانة الكتابة راغباً أو كارهاً ، حتى يداوم العقل على التحصيل فالتفكير ، ويبتل القلم ، فلا يجفّ مداده ، ولذلك أتت غالبية الخطرات تافهة تحت ضغط التدوين المكره .

وإننى لأسرد منها فيما يلى ، بعض ما خطه يراعى :

الفصل الأول

من يولية إلى ديسمبر ١٩٥٠

١ ـ تقديم أوراق اعتمادى :

قد حدد صباح ١٥ يولية سنة ١٩٥٠ لتقديم أوراق اعتمادى ، وكنت أول سفير أوفدته مصر إلى إسبانيا بعد رفع التمثيل الدبلوماسى بين الدولتين إلى السفارة .

وكانت سماء مدريد فى هذا اليوم صافية زاهية تسطع فيها الشمس سطوعها فى الشرق ، فسعدت بإشعاعها الدافئ الوهاج ، وبهوائها المنعش الجاف .

ووصلت ثلة من الفرسان المراكشيين مع عربة التشريفة الكبرى المذهبة تجرها ستة جياد ، واصطف الموكب أمام دار السفارة ، واستقبلت فى البهو نائب مقدم السفراء وزميله ، ثم استقللت العربة وعلى يسارى المقدم ، وسار الموكب الهوينا فى أبهة ، تتقدم عربتى ثلة من الفرسان المراكشيين فى زيهم العربى الجميل الجذّاب ، وتتلوها عربتان تقلان الدبلوماسيين أعوانى ومعهم زميل المقدم ، وكان بعض الفرسان فى المقدمة ينفخون فى البوق أثناء سير الموكب ، وكانت الجماهير تتجمع على جانبى

الطريق للتحية بالتصفيق أو السلام ، وكنت أردّ عليهم التحية ، ووصلنا إلى « قصر الشرق » ، وهو يقع فى غرب العاصمة ، وكان مقرًّا للملوك السابقين ، وخصه الجنرال فرانكو بالحفلات الرسمية ، وقد سبق أن دمره حريق فى أواسط القرن الثامن عشر ، ثم أعيد بناؤه على الفور .

ولما دخل الموكب هذا القصر الفخم ، صدحت موسيقى الحرس بالنشيد الوطنى المصرى ، وأدى الحرس التحية بشهر السيوف و إمالة الرماح ، واستقبلنى عند المدخل بعض رجال القصر ، وصعدت السلم المرمرى البديع يزدان بالحراس المراكشيين ، ذوى القامة الفارعة ، ومررت برداه وأبهاء وغرف عديدة حتى قاعة السفراء ، وقد بهرنى ما تزخر به من نفائس وكنوز ، فزينت جدرانها بالحرير واللوحات والمرايا ، وازدانت سقوفها بالثريات البلورية الضخمة ، ورصّعت الجوانب والأركان والموائد بالتماثيل والتحف والمرمر المصقول ، فأخذت علىّ لبى ، وكدت أنسى موقفى ، إذ امتد الخيال بالفكر إلى عظمة هذه الدولة فى الماضى القريب .

فلما فتح باب قاعة السفراء ودخلت القاعة ، ألفيت الجنرال فرانكو واقفاً يحوط به وزير الخارجية وكبار حاشيته ، فقدمت إليه أوراق اعتمادى ، كما قدمت إليه زملائى ، ثم دعانى إلى غرفة صغيرة ومعه وزير الخارجية ونائب مقدم السفراء للقيام بالترجمة ، لأننى لم أكن أعرف من الإسبانية حرفاً ، ودار الحديث الودّى المعتاد فى مثل هذه المناسبة .

وألفيت رئيس الدولة ربع القامة ، قوى البنية ، ذا عينين براقتين ، وله نبرات رقيقة ، فقوة زعيم الثورة تتركز فى إشعاع عينيه ورخامة صوته وصفاء ذهنه، فلما أنهى الرئيس المقابلة عاد الموكب على النمط الذى أتى به .

وأعجبنى أن الجنرال فرانكو قد اختار حرسه الخاص من إخواننا المراكشيين ، حتى قيل إن ذلك تقدير منه لأمانتهم وشجاعتهم ووفائهم .

ولفت نظرى أن قائد ثلة الفرسان المراكشيين فى الموكب هو ضابط إسبانى ، جميل الطلعة ، يلبس الزىّ المراكشى الرائع ، فبدا وكأنه أحد نجوم السينما ، وقد عهد إليه بالدور الرئيسى ليمثل أميراً من أمراء الشرق ، فهام فى جو امتلأ بالسحر والمغامرة والخيال . ولعل هذا الفارس عندما وقف أمام المرآة لينظم هندامه ، قد خطر بباله أنه أحد هؤلاء النجوم أو الأمراء .

وراقنى أن شاهدت أفراد الشعب يتريضون فى فناء قصر الشرق ، وينعمون بحرية الدخول فى حرمه ، بل رخص لهم وللسائحين برؤية تحف القصر بدراهم معدودة .

٢ ـ وضع منهج لبعثتى :

إن للدبلوماسى مهمتين : عامة وخاصة ، فالمهمة العامة ، تتعلق بوجه عام بإنماء العلاقات بين الدولتين من صداقية وسياسية وتجارية ومالية

و رياضية وسياحية ورعاية مصالح دولته ومواطنيه وغيرها ، وينبغى عليه أن يقوم بأدائها من تلقاء نفسه من غير توجيه أو تكليف ، فيضع المناهج اللازمة للتنفيذ .

أما المهمة الخاصة ، فتتعلق بموضوعات خاصة تعهد بها دولته إليه على وجه التحديد ، كإبرام المعاهدات بأنواعها ، وتسوية نزاع قائم ، وطلب تأييد ترشيح دولة الممثل فى إحدى المنظمات الدولية وغيرها مما لا يقع تحت حصر ، وعلى الدبلوماسى أن يتخذ أصلح السبل للوصول إلى الغاية المنشودة ، ويتوقف نجاحه على قدر كفايته وكياسته وتوفيقه .

وتحتاج المهمتان العامة والخاصة إلى مرحلة تحضيرية ، يقول كبار الدبلوماسيين بأن مدتها تحتاج إلى عام على الأقل ، حتى ينتقل الدبلوماسى إلى الدور الذى يستطيع فيه أن يعمل وينتج فيفيد دولته .

فبدأت أرسم مناهجى لمهمتى العامة ، واجتهدت أن أكون إيجابياً بالنسبة إلى مهمتى الخاصة فأضع مناهج لها ، دون انتظار ورودها ، وذلك على سبيل المعاونة ، وباعتبار أن الدبلوماسى أكثر حساسية ومعرفة بالبيئة التى يعيش فيها ، بشرط أننى أعرض أولا بأول على أولى الأمر *مشروعات هذه المناهج الخاصة ، فإذا ما وافقوا عليها ، اتخذت الإجراءات* اللازمة للمفاوضة فالتنفيذ .

ومن البدهى أن السير وفاقاً لخطط موضوعة ، مهما تكن ضعيفة ،

خير من الضرب على غير هدف ، فضلا عن أن فيه حافزاً للنفس على أن تجدّ وتثابر للوصول إلى الأهداف المرسومة . ولا بد للمجد من أن يصيب بعض النجاح إن لم يكن كله .

وعلى ذلك وضعت لمهمتى ، العامة والخاصة ، المناهج التالية ، ورائدى الوحيد خدمة بلادى :

(ا) عنيت إسبانيا الفرانكية بإنهاض الوعى القومى ، وذلك بتمجيد كل ما هو إسبانى ، فعدلت الأسر الكبيرة عن استخدام المربيات الأجنبيات . بل استغنت أغلب الأمهات الفضليات عن المربيات الإسبانيات ، وتولين بأنفسهن الإشراف المباشر على تربية أولادهن ، واعتز الإسبانى من عامة الشعب بلغته فلم يتعلم غيرها ، ارتكاناً إلى أن عدد المتكلمين بها فى العالم يقرب من مائتى مليون ، وأنها لغة رسمية لغالبية جمهوريات الأمريكتين الوسطى والجنوبية .

ولما عبرت الحدود الإسبانية ، تبين لى أن الموظفين والعمال ومستخدمى الفنادق والدكاكين ، لا يتكلمون سوى لغتهم ، وإذا عرف أحدهم لغة أجنبية ، فإنه يخجل من التكلم بها ، لأن المرانة تنقصه ، ويخشى اللحن ، ولذلك وجدتنى مضطراً إلى الإسراع فى تعلم هذه اللغة الواسعة الغنية .

ودهشت إذ ألفيت سائحاً إنجليزياً لا يعرف غير لغته ، يريد شراء سلعة من دكان فى أكبر شوارع مدريد ، وتكلم مع البائع بالإنجليزية ،

فهز الأخير رأسه مجيباً إياه بالإسبانية أنه لا يفهمه ، وخرج السائح متذمراً لعدم تمكنه من الشراء ، ولم يكترث البائع لفقدان الصفقة ، مظهراً لى تعجبه من أن هذا الرجل لا يتكلم الإسبانية .

وإننى ممن يؤمنون بأنه على الدبلوماسى ، كبر أو صغر ، أن يبادر بتعلم لغة الدولة التى يعمل فيها ، حتى يتسنى له أن يقف فى وضوح على عقلية القوم وثقافتهم ، فتخرج انطباعاته صائبة ، واستنتاجاته منطقية ، ونظراته واقعية ، ويفوز بمحبة القوم وعطفهم ، لأنه أظهر اهتمامه بتعلم لغتهم ، وأعلى من شأنهم بالتفاهم معهم بلسانهم . ولذلك درجت منذ بدايتى فى السلك الدبلوماسى على الأخذ بهذا المبدأ .

وفى إسبانيا كنت أنصح زملائى الأجانب ، وأعوانى الدبلوماسيين ، بتعلم اللغة الإسبانية ، لأنها لغة القوم الوحيدة ، كما كنت أرجو الزائرين المصريين حفظ بعض الكلمات والعبارات الضرورية للتفاهم على المأكل والمشرب والملبس والاستدلال على المصارف والجهات والطرق .

وجاء لأول مرة فى إسبانيا أحد كبار المصريين ، وقد جاب الأقطار ، وحدثنى بأنه ضحك منى عند ما نصحته بحفظ بعض الكلمات والعبارات باللغة الإسبانية الخاصة بالمأكل والمشرب ، ظناً منه أنه غير محتاج إلى ذلك جرياً على عاداته السابقة فى الفنادق الكبرى التى نزل بها فى أنحاء العالم القديم والجديد ، إلا أنه آمن بقولى هذا الصباح ، فقد سأل أحد الندل بأن

يقدم له فى طعام الإفطار عجة ، ونطقها بالفرنسية « أومليت Omelette » على أنها مصطلح عالمى ، فبهت الرجل ، ولم يفهم ماذا يعنى ، فكرر الكلمة مراراً ، فلم يزدد المستخدم إلا تعجباً ، فما كان من مواطنى إلا أن عدل عن طلبه محروماً . وشهد محدثى بأن إسبانيا بلد فريد فى نوعه ، فأجبته بأن للإسبان العذر ، فإن لغتهم غنية بألفاظها وعدد متكلميها ، وقد أعلمنى أمريكى مسئول أنه لا يلومهم ، وضرب مثلا بدولته ، فإن الزائر لا يستطيع قضاء أمر فيها إذا لم يتكلم الإنجليزية ؛ فلا بد له من أن يتعلمها أو يرحل عنها .

وحدثنى زميل أجنبى ، لا يميل بطبعه إلى تعلم اللغات ، مكتفياً بالإنجليزية والفرنسية ، وهما الشائعتان فى عالم الدبلوماسية ، أنه طلب فى مطعم إحضار كوب من الجعة ، ونطقها بالفرنسية « بيير biére » على أنها كلمة معروفة عالميًّا ، فلم يفهم الساقى مطلبه بالرغم من تكرارها له مراراً ، وهزّ رأسه حائراً لأنها تشبه فى الإسبانية كلمة النعش ، فاضطر الزميل إلى الحرمان من شراب مثلج يطفئ به حرارة القيظ ، ثم علم الزميل السر ، فإن الجعة تسمى بالإسبانية « ثيرفيذا Cerveza » ، فاضطر إلى أن يحفظ فى صعوبة ما تيسر من الإسبانية .

وحدثنى صديق بأن أحد كبار الشخصيات العالمية ، وهو يجيد الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، طلب من أحد ندل الفندق أن يحضر

له قطعة من الزبد ، ونطقها بالإيطالية، على أنها أقرب اللغات شبهاً فى النطق إلى الإسبانية ، قائلا « بورّو burro » ، فظهر على المستخدم علامات الدهشة ، فلما كرر العظيم الطلب ، فغر المستخدم فاه ، واتسعت عيناه ، وانعقد لسانه ، وارتعدت فرائصه ، فهال العظيم ما حلّ بالمستخدم من ارتباك، فاضطر إلى العدول عن طلبه حائراً . وراح المستخدم يحكى إلى زملائه الندل بالفندق ، بأن العظيم العالمى طلب منه أمراً عجباً ، فقد طلب منه أن يحضر إليه حماراً ، فكيف يأتى بحمار فى تلك المنطقة الخالية من الحمير ، وإذا فرض ووجد الحمار ، فكيف يستطيع إدخاله فى بهو الفندق ، فاستغرق الجميع فى الضحك ، وأيقنوا أن الشخصية العالمية عظيمة حقّاً ، لأنها تطلب المستحيل ، على أن سبب حيرة العظيم وضحك الندل يرجع إلى اللبس اللغوى ، فكلمة الزبد بالإيطالية « burro » معناها حمار بالإسبانية !

وقد أحسنت إسبانيا الفرانكية إلى الدبلوماسيين وبعض السائحين ، إذ اضطروا إلى تعلم لغتها العالمية الغنية ، وهى لغة موسيقية ، سهلة النطق ولا سيما على من فى لغتهم حرف « الخاء » ، وفيها كلمات كثيرة عربية الأصل ، وأغلبها يبدأ بأداة التعريف العربية « ال » ، ولكنها صيغت فى القالب الإسبانى ، وأصبحت أداة التعريف جزءاً من الكلمة الإسبانية ، كما أن بعض العبارات أصلها عربى ، صادفنى بعضها أسرده فيما يلى :

« كيه تالْ » — (كيف الحال)

قرأت فى كتب تعلم اللغة الإسبانية أن عبارة التحية « كومواستا como esta » وهى تشبه الإيطالية ، ولكننى لاحظت أن القوم إذا حيوا ، فإنهم يذكرون عبارة أخرى وهى « كيه تال » ، فبحثت فى القواميس فلم أعثر عليها ، واستفسرت من عالم عن مصدرها فلم أفز بجواب ، ثم جال فى الفكر خاطر . بأن لا بد أن يكون أصلها عربيًّا ، وهو عبارة التحية العربية « كيف الحال » ، ثم صيغت فى القالب الإسبانى .

« أوخالاه » Ojala = (إن شاء الله)

ترددت كلمة « أخالاه » كثيراً على السمع فى سياق التضرع إلى الله لتلبية أمنية ، وتوقعت أنها عربية الأصل ثم صيغت فى القالب الإسبانى ، فرجعت إلى القواميس ، فألفيت أن أصلها عربى ، وهو : « إن شاء الله » .

« أوليه » Ole = « والله » أو « يالله »

فى أثناء حفلات مصارعة الثيران ، اعتادت الأذن أن تسمع فى الفروسية الباهرة كلمة « أوليه » تخرج مدوية من آلاف أفواه النظارة استحساناً لكل حركة من حركات البطولة الخارقة فى الصراع بين البطل والثور . وكذلك كانت تسمع فى المواقف الساحرية فى الأغانى والرقصات الشعبية .

وأحسست أنها عربية الأصل ثم صيغت فى القالب الإسبانى ،

فرجعت إلى القواميس فوجدت أن أصلها عربى ، وهو « والله » أو « يالله » !

وقد عاشت اللغة العربية فى الأندلس ما يقرب من ثمانية قرون ، فتركت أثرها فى اللغة الإسبانية ، كما ترك جمال الأندلس أثره وسحره فى اللغة العربية والعقلية العربية ، فازدهرت الحضارة العربية هناك وسمت ، حتى قصدها العلماء وطالبو العلم من كل فج ، إلى أن انبثق شعاع هذه الحضارة إلى أوربا فأنارها .

ومما يدل على عرفان الإسبان للعرب بالجميل ، بعد أن زالت آثار التسلطية العربية ، أنهم أبقوا فى لغتهم ما هو من أصل عربى ، وأشاروا إلى ذلك فى قواميسهم ، وكان من السهل عليهم إبداله وكذا أسماء الأعلام العربية الأصل ، ولا سيما أن اللغة الإسبانية لاتينية الأصل ، ولا شك أن العروبة تحمد لهم هذا الصنيع .

ولما قرأت فى بعض الصحف المصرية أن وزارة المعارف قررت اللغتين الإيطالية والألمانية ، كلغة اختيارية إضافية مع الإنجليزية والفرنسية ، بادرت بالكتابة إلى بعض ذوى الشأن بمصر ، أناشدهم ضم اللغة الإسبانية أيضاً ، نظراً لأنها أوسع انتشاراً فى العالم من اللغات الفرنسية والإيطالية والألمانية ، فضلا عن أنها تزيد من التقرب من دول أمريكا اللاتينية والفلبين ، وتفتح أمام شبابنا الوثاب آفاقاً شاسعة جديدة فى شتى النواحى الثقافية والتجارية والصناعية وغيرها . ومع الأسف الشديد لم يلب

طلبي ، ولعل أولى الأمر يعنون بذلك ، فيسدوا أجل الخدمات إلى الوطن العزيز وشبابنا المتوثب .

أما كيف يحفظ الدبلوماسى لغة البلد الذى يقيم فيه بعد أن ترك عهد التلمذة منذ أمد بعيد أو قصير ، وهو ينظر إليه نظرة الكابوس وقد طوح بعيداً عن صدره ، فقد اختلف الدبلوماسيون اللغويون فى الطرائق .

فمنهم من يرى أن يكون تعلم اللغة على أصولها من نحو وصرف و بلاغة ، وهذه طريقة متعبة لا يقوى عليها إلا محبو اللغات .

ومنهم من يقول بأن يتناول تعلم اللغة بعضاً من قواعد النحو والصرف الهامة ، مع حفظ شيء من الشعر والأناشيد ، وهذه الطريقة أخف من الأولى وأجدى منها ، فضلا عن أنها عملية ، إذ أن إتقان أية لغة يتطلب أعواماً طويلة .

ومنهم من يذهب بأن تتبع طريقة الطفولة فى تعلم اللغة ، ولا تقتصر إلا على السمع ، فلا تحفظ قواعد لغة ، ويعتمد على المحادثة وقراءة الصحف من غير تدقيق فى الفهم ، فالفهم يأتى تدريجياً على مرّ الأيام . وهذه أسهل الطرائق الثلاث .

(ب) العلاقات الاقتصادية :

تستورد إسبانيا من مصر سنوياً قطناً بما تزيد قيمته على خمسة ملايين من الجنيهات ، وأغلب القطن المبيع من نوعى الزاجوراه والأشمونى ،

ويدفع الثمن بالدولار أو بالإسترليني القابل للتحويل . وتستورد مصر من إسبانيا قليلا من المنسوجات القطنية والآلات .

من ذلك يتبين أن الميزان التجارى فى صالح مصر بدرجة كبيرة ، وأن القطن المبيع من قصير التيلة ، فمن اليسير أن يلقى منافسة من الأقطان الأجنبية ، من حيث الرخص فى الثمن ، أو السهولة فى دفع الثمن بالمقايضة أو بالعملة السهلة .

وللمحافظة على هذا المركز الممتاز ، وللعمل على إنمائه ، يحسن أن يتخذ ما يلى :

أولا : يجب تعزيز المكتب التجارى بالسفارة بما لا يقل عن ثلاثة فنيين ، ومعهم هيئة كتابية ، ولا ينقل أحد الفنيين إلا إذا مرّ على الآخريْن سنتان فى إسبانيا ، حتى لا ينقطع تيار العمل المنتج المتواصل فى هذا الجهاز الحيوى لمصر .

ثانياً : أن تنشأ غرفة تجارية مصرية إسبانية ، ويثار البحث عن أفضلية المكان ، أفى مدريد ؟ أم ببرشلونة ؟ ويحسن أن يكون فى الأخيرة ، لأنها العاصمة الصناعية .

ثالثاً : يقام ببرشلونة سنوياً معرض رسمى دولى للعينات ، تتبارى فيه الدول بمعروضاتها ، وقد اشتركت فيه مصر سنة ١٩٥٢ ، ونال الجناح

المصرى إقبالا هائلا واستحساناً عظيما .

وأرى أن يخصص لمصر جناح دائم فى هذا المعرض ، كما يفعل لبعض الدول ، فتوفر نفقات إقامة الجناح ، ولا تبقى إلا نفقات الشحن ، على أن توجه العناية إلى عرض خامات مصر الهامة ولا سيما القطن . وقد لمست من أولى الأمر استعداداً طيباً لمنح مصر كل ما تطلب من مساعدات فى هذا الشأن .

رابعاً : أن توفد مصر دواماً البعثات التجارية إلى إسبانيا ، على أن تضم كبار رجال الأعمال والصناعة والمال والزراعة ، فالاتصال الشخصى من أنجع الوسائل فى الميدان التجارى ، إذ كثيراً ما يقضى على العوائق التى تقوم بين المنتج والمستهلك ، وكفى به إحياءً للثقة ، التى هى أساس المعاملات التجارية المثمرة المستمرة .

(ح) العلاقات الثقافية :

إن الثقافة من أهم عوامل التقرب والتفاهم والتوادّ بين الشعوب ، فتعنى بها الدول ، وتنفق فى سبيل نشرها الأموال الطائلة. ومن الوسائل التى تتبع فى هذا الغرض : تعلم اللغات الأجنبية ، وإيفاد البعثات العلمية ، وتبادل الطلبة والأساتذة ، والرحلات العلمية ، وترجمة الكتب النفيسة ، وتداول الصحف والمجلات والكتب والمطبوعات وأفلام السينما الثقافة ،

وتخصيص إذاعات بالراديو باللغات الأجنبية ، وإيفاد الفرق التمثيلية والرقصية ، وإقامة معارض الفنون الجميلة ، وبذلك تتغذي العقول ، وتأتلف القلوب ، فتصبح الطريق ممهدة للتعاون فى الميادين الأخرى من اقتصادية وتجارية وسياسية وغيرها .

وقبيل سفرى إلى مقر عملى الجديد بمدريد ، مررت على المكتبات الشهيرة بالقاهرة والإسكندرية ، فلم أعثر على كتاب واحد أو مجلة باللغة الإسبانية ، أو ترجمة لكتاب إسبانى ، اللهم إلا موجزاً بالإنجليزية لكتاب « دون كيخوته دولامانشا » ، ذي الشهرة العالمية ، لكاتب إسبانيا الأول « ثيرڤانتس » (١٥٤٧ — ١٦١٦) ، الذى رفعته بلاده وشرفته ، بأن نسبت اللغة إلى اسمه ، فأصبح يقال « لغة ثيرفانتس » .

غير أن الموجز الذى وجدته ، لا يعطى فكرة تامة عن قدرة هذا الكاتب خالد الذكر ، وكان يحسن وجود ترجمة عربية كاملة ، وتراجم أخرى لمؤلفاته ، أسوة بما تم نحو تعريب بعض مؤلفات أمثاله من كبار كتاب الغرب الأقدمين ، كشكسبير وموليير وراسين وغيرهم . ويرجع السبب الأكبر إلى أننا لم نوجه بعثاتنا العلمية إلى إسبانيا ، كما لم توجه إسبانيا ثقافتها إلينا ، فهالني أن الصلة الثقافية معدومة بين مصر وإسبانيا ، وبانت لى ثقالة مهمتى .

ومن حسن الحظ أن كان أولو الأمر مقدرين هذه الظروف ،

فقرروا أن توفد بعثة من الطلبة إلى جامعات إسبانيا ، لتلقى مختلف العلوم والفنون ، ولا سيما فيما يتعلق بالناحية العربية بالأندلس ، فضلا عن أن الاتصال بالأدمغة العلمية الإسبانية يمهد لشبابنا الناهض استخراج النفائس من كنوز أجدادنا العرب هناك . ويتيح لهم إجادة اللغة الإسبانية وثقافتها ، فيصبحون حلقة اتصال متينة بين مصر وإسبانيا بل العالم المتكلم بالإسبانية ، وسيُفتح أمامهم ميدانٌ شاسع جديد كان من قبل مغلقاً ، يشمل دول أمريكا اللاتينية والفلبين ، فلغاتها الرسمية هى الإسبانية ، وبلادها غنية بالتربة الخصبة ، والكنوز المعدنية ، وتستجلب سنوياً المكافحين العاملين من كل الشعوب ، وقد سبقنا كثير من إخواننا الشجعان من أبناء العروبة ، فاقتحموا هذا الميدان الشريف ، ويبلغ عددهم حوالى المليون ، فكلّل كفاحهم المجيد بالنجاح والإثراء ، واستحقوا من الأمة العربية كل فخر وتقدير وثناء ، إذ أثبتوا للغرب أن معدن العربى لا يزال سليماً لم يأكله الصدأ بعد ، وإن قليلا من الجلْو يردّه إلى جوهره الأصلى .

وتبرم الدول فيما بينها معاهدات تنظم بها علاقاتها المختلفة بما فيها حقوق رعاياها ، فتجرى المعاملات على أسس ثابتة ، ووفقاً لقواعد واضحة سهلة ، فتزداد العلاقات نماءً .

فارتأيت من الخير فى الميدان الثقافى أن يبرَم اتفاق بين البلدين ، وقد تبين لى أن إحدى الدول العربية سبقتنا إلى ذلك ، فاقترحت على أولى

الأمر إبرام اتفاق ثقافى على غرار ما أبرم مع إحدى الدول العربية أو بصيغة أخرى يقترحونها ، وناشدتهم سرعة إنجازه، حتى يبدأ التعاون الثقافى الفعلى ، فإذا ما ووفق على اقتراحى ، بدأت فى المفاوضة رسمياً مع الحكومة الإسبانية ، ولكن اقتراحى بقى مدة طويلة تتلقفه المصالح المختلفة . لتعقد الإجراآت الإدارية . إلى أن وُفقتُ إلى رجل قدير من أولى الأمر ، فأمضى الاتفاق بالقاهرة فى ٢٧ أبريل سنة ١٩٥٢ ، وقد اطلعت فى صحيفة مصرية على نص المذكرة التى رفعتها وزارة الخارجية إلى مجلس الوزراء ، بشأن طلب الموافقة على إبرام هذا الاتفاق ، وتفويض وزير الخارجية بإمضائه بالقاهرة ، وتضمنت هذه المذكرة أن السفارة المصرية بمدريد اقترحت إبرام هذا الاتفاق .

ولا بد من التصديق على هذا الاتفاق حتى يبدأ فى النفاذ ، فدخل موضوع التصديق ثانية فى الجهاز الإدارى ، وبقى ساكناً بالرغم من استعجالى المتكرر إلى أن غادرت مدريد فى أول نوفمبر سنة ١٩٥٢ لنهاية بعثتى ، على أننى شعرت بالسعادة تغمرنى . إذ تمّ إمضاء الاتفاق، فوفقت إلى إرساء لبنة صغيرة فى بناء العلاقات الثقافية بين مصر وإسبانيا ، فإن التصديق[١] عليه يعتبر أمراً شكلياً . يجرى تباعاً فى العادة عقب الإمضاء .

---

(١) علمت من الصحافة المصرية ، وأنا فى التقاعد ، أنه قد تم التصديق على هذا الاتفاق فى سنة ١٩٥٣ .

وأخذ تيار الثقافة ينساب بين البلدين ويتدفق ، وكان من بين الذين دعتهم الحكومة الإسبانية فنان مصرى نابه ، فدار حديثى معه حول الرقص الإسبانى ومقارنته بالمصرى ، ووافق على أن هناك بعض الشبه بينهما ، فإنه يشجى النفوس المصرية ، ويطرب الآذان العربية ، ولا يستسيغه كثير من الآذان الغربية ، ولذلك فهناك مجال كبير أمامنا للاقتباس فالإجادة ، فترتفع رقصة البطن إلى المستوى الفنى اللائق بمجد مصر القديم وبنهضتها الحديثة ، وناشدته وزملاءه القيام بهذه الخدمة الجليلة .

قد كادت الرقصات الشعبية فى إسبانيا تندثر أمام الرقص العصرى ، كما حدث فى بلاد الغرب وفى الشرق والعالم أجمع ، إلا أن إسبانيا الحديثة عملت على حفظ التراث الشعبى ، وتحملت الخزانة العامة النفقات الباهظة فى سبيل التعليم ، وإقامة المعاهد ، وإعداد الأثواب المزركشة الغالية ، فعاشت الرقصات الشعبية البديعة ، فصانت الروح المرحة البريئة التى يمتاز بها الشعب الإسبانى ، وخلقت لأفراد الشعب مخرجاً صالحاً لمتاعب الحياة ، فضلا عن أنها أصبحت أكبر دعاية للفن الشعبى فى إسبانياوخارجها ، ففى الداخل يهرع السائحون والأهلون لمشاهدتها ، وفى الخارج توفد السلطات المختصة الفرق من الفتيات تطوف بلاد العالم ، لعرض الرقصات الشعبية الرائعة ، وتقوم بالعرض فتيات فضليات هاويات ، وقد استقبلن فى كل مكان بالترحاب والتكريم والإعجاب ، ولقد مرت فرقة بمصر ،

فحازت الثناء المستطاب ، غير أن هناك حادثاً وقع بكل أسف من بعض الطلبة ، فتكدر صفو الزيارة ، وقد قابلت الفرقة هذه الزلة بسعة صدر ، وشيمة الصفح ، وعفاف اللسان ، مما اشتهر به الخلق الإسبانى ، وأبى كرم الصحافة الإسبانية والسلطات الإسبانية التنويه به ، واتصلت ببعض القائمين بالأمر ، فأظهروا النبل فى تقبل وجهة نظرى فى التعليل الذى بررت به وقوع الحادث المؤلم ، ذلك أنه وقع من بعض الجهلاء المغرضين ذوى الميول المتطرفة ، يريدون الإيقاع بين الشعبين الصديقين .

ووقع هذا الحادث ولم أسمع عنه من القاهرة شيئاً . بل أسعفتنى به صحافتنا القديرة ، أما التعليل الذى خطر لى ، فإنه يرجع إلى اعتقادى الأكيد ، بأن الوسط الجامعى – وقد دخلته الفتاة المصرية بأدبها وكمالها وجمالها وخفارتها – لا شك قد خطا خطوة مباركة نحو بث آداب المجتمع مما نعتز به ، فلن يجرؤ طالب على أن يسىء إلى فتاة ، اللهم إلا إذا كان ضعيف الإيمان والوطنية ومدفوعاً بتيار خارجى يبغى تعكير صفاء الجو بين البلدين الصديقين .

ما أثقل مسئولية الدبلوماسى إذا ما سار فى الضباب ! ! !

(د) العلاقات الصداقية :

جرت الدول على تدعيم مودتها بإبرام معاهدات صداقة ، وهى مفرغة فى قالب تقليدى ، ينص على أن يكون بين الطرفين المتعاقدين سلم دائم ، وأن يتمتع الدبلوماسيون بالمزايا والحصانات الدبلوماسية وفقاً للقانون الدولى العام ، مع مراعاة تطبيق مبدأ المعاملة بالمثل ، وأن يعامل القناصل طبقاً لأحكام القانون المذكور .

غير أن إسبانيا ابتدعت نمطاً جديداً فى الصيغة التقليدية ، بأن نصت على أن تشكل لجنة خماسية دائمة من الطرفين يرأسها محايد يختارانه ، وتفصل هذه اللجنة فى النزاعات التى قد تنشأ بين الطرفين .

وقد أبرمت إسبانيا مثل هذه المعاهدة مع إحدى الدول العربية ، فارتأيت أن تبرم مثيلتها مع مصر ، فتكون الخطوة التالية للاتفاق الثقافى ، واقترحت ذلك على أولى الأمر . غير أن الاقتراح دخل — كالعادة — فى الجهاز الإدارى . ولم يبرم بعد منذ أن غادرت مدريد فى أول نوفمبر سنة ١٩٥٢ ، ومن الخير أن يتم ذلك ، تنظيماً للأوضاع ، وتعزيزاً للعلاقات .

(ه) إسبانيا وأمريكا اللاتينية :

تعترف دول أمريكا اللاتينية لإسبانيا بالوطن الأمى « mère patrie » إذ يجرى الدم الإسبانى فى عروق أبنائها ، وتتأصل الكاثوليكية فى نفوس رعاياها ، وتسيطر العادات والتقاليد الإسبانية على شعوبها ، وتنساب اللغة الإسبانية على ألسنة أفرادها ، وتهيمن الثقافة الإسبانية على عقولهم .

ويلاحظ أن الدول الكبرى والصغرى جرت على أن تخطب ود جمهوريات أمريكا اللاتينية ، إذ أنها صغيرة بمفردها ، كبيرة بتكتلها ، وذلك لكسب أصواتها العديدة ،فى مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة ومنظماتها المختلفة .

فمن أصالة الرأى ألا يهمل الدبلوماسى الانتفاع بقوة إسبانيا المعنوية لدى هذه الدول ، إذا ما قامت مصلحة لدولته فى هذا الميدان الدولى الهام.

(و) التحالف :

إذا ما أبرمت مصر مع إسبانيا اتفاقاً ثقافياً وآخر صداقياً ، فسيصبح الطريق ممهداً أمام المرحلة الدقيقة التى تتعلق بالتحالف . ويعد التحالف من صميم السياسة العليا فى كل دولة ، فإن كان نطاق هذه السياسة يشمل التحالف ، جاز للدبلوماسى أن يضع له

مشروع خطوط رئيسية ، يعرضه على دولته دون أن ينبس بكلمة عنه إلى الدولة المراد التحالف معها ، فإن كانت سياسة دولته نبذ الأحلاف ، فعليه أن يؤيد ذلك بكل الوسائل .

وإذا فُرض أن دولته استطلعت رأيه فى عقد حلف ، فعليه ألا يبديه إلا بعد دراسة مستفيضة ، لأنه موضوع ماس بحياة وطنه .

ولما كانت السياسة العليا لبلادى إزاء هذا الموضوع فى صمت ، فلم أفكر فى وضع منهج له ، واكتفيت بمراقبة أحداث السياسة الدولية وتياراتها الخفية ، التى تدور فى الوقت الحاضر بين المعسكرين المتنازعين الغربى والشرقى ، وبخاصة ما يهب من هذه التيارات على دولتى والدولة المعتمد لديها ، فأحسست بأن كل معسكر يوجه دبلوماسيته نحو التكتل والتطويق والحياد ، بأن يضم إليه أكثر ما يمكن من الدول ، ويحكم تماسك الدول التى تقع على الحدود الفاصلة بين المعسكرين ، ويبذل المسعى لدى الدول غير الراغبة فى ذلك لكى تبقى على الحياد ، متذرعاً بشتى الحجج والوسائل للوصول إلى بغيته .

وهكذا أثبت إنسان هذا العصر ، أن غريزة الإنسان فى العهد الذرى ، لا تزال كما كانت عليه فى العصر الحجرى .

وتحدث معى زميل إسبانى فى السياسة العامة ، وما كان منه إلا أن مسّ موضوع حلف يعقد بين دول البحر الأبيض المتوسط ، تتزعمه

الدولتان اللتان تملكان مفتاحيه ، وهما مصر وإسبانيا ، ونظراً لخطورة هذا الموضوع كما قدمت والسياسة العليا فى صمت ، أمسكت عن إبداء أى رأى ، واستطعت نقل الحديث فى ظرف إلى ناحية أخرى مباحة ، فتناولت الاتفاق الثقافى المزمع عقده بين البلدين ، مشيراً إلى أن إبرامه يعتبر خطوة أولى أساسية فى العلاقات الدولية ، فالثقافة أداة للتفاهم ، ولن تقوم صداقة إلا على أساس من التفاهم بين الشعوب ، وقد كانت الثقافة الإسبانية ولا تزال موجهة نحو أبناء إسبانيا فى دول أمريكا اللاتينية ، فلم تعرف الثقافة المصرية عنها شيئاً ، وإن جل أملى أن يبرم أولا هذا الاتفاق ، فتتعارف الثقافتان المصرية والإسبانية ، فتزدهر العلاقات بين البلدين ، وسيعقب ذلك ولا شك إبرام معاهدات أخرى من صداقية وغيرها .فأمّن محدثى على وجهة نظرى .

(ز) المغرب الأقصى :

أولا : تمهيد .

لا تدخل فى اختصاصى شئون المغرب الأقصى بمناطقه الثلاث : السلطانية والخليفية وطنجة ، فلا يجوز لى رسمياً أن أتدخل فى هذه الشئون، غير أنه لما كانت سياسة جامعة الدول العربية ترمى إلى مناصرة الشعوب العربية ناقصة السيادة لكى تنال حريتها ، فإن ذلك يجيز لى التدخل بصفة

شخصية ، فأتخذ الأساليب الودّية ، التى تفوز بثقة المستمع ، فتخرج الكلمة من القلب لتنفذ إلى القلب ، وقد يأتى اللسان بما لم يستطع أن يأتى به الحسام .

وكان المغرب الأقصى منذ القرن الخامس عشر محطًّا لأطماع القوى التسلطية ، فأخذت هذه القوى تتبع أساليبها الفتاكة لنيل مآربها ، فقامت بإضعاف الروح الوطنية ، وإفساد الشخصيات والطموحة، وإغراء النفوس المادية بالمال والهدايا ، وإقراض أولى الأمر ، إثارة الفتن والاضطرابات فى داخل البلاد ، والحصول على الامتيازات لرعاياها فى التجارة وفى محاكمتهم أمام قنصلياتهم ، وغير ذلك من ضروب التدخل .

وكانت القوى التسلطية متعددة ، يطمع كل منها فى أن ينفرد بالغنيمة فاصطدمت التيارات ، وتفاعلت المصالح فى المنطقة وغيرها حتى أوائل القرن الحالى ، ثم تبلورت ، فوزعت الغنيمة ومناطق النفوذ ، ففازت فرنسا بأكبر قسط ويشمل الجزء الجنوبى من المغرب الأقصى ويطلق عليه « المنطقة السلطانية» ، ونالت إسبانيا جزءاً صغيراً فى الشمال ويطلق عليه « المنطقة الخليفية» ، كما نالت بقعة صغيرة فى جنوب المنطقة السلطانية تسمى« أفنى » ، وقد تقرر أن تكون طنجة دولية ، فبقيت كذلك اللهم إلا فترة قصيرة إبان الحرب العالمية الثانية ، إذ ضمتها إسبانيا فى سنة ١٩٤٣

إلى المنطقة الخليفية من تلقاء نفسها ، فأعيدت دوليّتها ثانية سنة ١٩٤٥ .

وهكذا عجز المغرب الأقصى عن أن يقاوم ما هبّ عليه من التيارات التسلطية عند ما تدفقت فى اتجاه واحد .

ويمتاز عصرنا بالتخصص العلمى فى شتّى الفروع والجزئيات . فأصبح من الأمور المركبة ، التى تحتاج إلى مراحل تحضيرية عديدة ، واستعدادات ضخمة ماديًّا وفنيًّا . وسنين طويلة ، وهذا هو سر تفوق الغرب على الشرق ، وسيطرته عليه ، بل إصراره على أن يضن بالعلم عليه. فما على الهمم العربية — والذكاء لا ينقصها — إلا أن تتفانى فى إقامة هذا الصرح الضخم المركب ، مستعينة فى ذلك بخبرة الغرب ، وقد بدأت ترسى الأسس ، وخطت خطوات واسعة . فلا تيأس ولا تن ، فإن الحقبة طويلة ، والجهود مضنية ، ولا بد من أن البناء يعلو ويكتمل .

بهذا كنت أذكر نفسى قبل أن أذكر من سعدت بلقائهم من إخوانى المغاربة ، وأختتم تذكيرى بأنّ أغلب العبء يقع على عواتقهم وقد قويت بإشعاع العروبة .

ولتقتف بلاد العروبة إثر بعض الدول الأوربية والأمريكية الصغيرة فى مساحاتها وسكانها وإمكانياتها ، فأصبحت أعضاء قوية بين الدول ، وذلك بفضل بناء جهازها الشعبى على العلم الحديث مع التخصص فيه .

ثانياً : المنطقة السلطانية :

تحدثت مع دبلوماسى فرنسى ، اتصف بحدّة الذكاء وأصالة الرأى ، حول الكفاح الوطنى القائم الآن فى المنطقة السلطانية .

فقال محدثى إن الاستعمار الفرنسى قام فى هذه المنطقة بأعمال تقدمية هائلة ، من تعبيد الطرق ، وتحسين الزراعة ، وإقامة صناعات كثيرة هامة ، ونشر التعليم ، وأنه يعطف شخصيًّا على المغاربة ويجدهم ظرفاء ، ولكنه وجدهم بكل أسف راغبين عن تلقى التدريب المهنى والإدارى ، وأن أبناء الأسر الكبيرة منهم يأنفون من العمل فى الوظائف الدنيا ككتبة أو عمال ، بل يبتغون العمل طفرة كرؤساء ومديرى مصالح دون خبرة أو دراية سابقة :

فأجبته بأن هناك خطراً شيوعيًّا يهدد ببلشفة العالم دون اللجوء إلى الحرب وهذا يعتبر أشد خطراً من التهديد بالحرب ، ولذلك وجب على الدول الديمقراطية القضاء على الاستعمار ، إذ أنه سلاح ماض تستعمله الشيوعية فى محاربة الديمقراطية ، فيجدر بفرنسا ، باعثة الحرية والمساواة والإخاء ، أن تقتفى سياسة بريطانيا فى الهند وباكستان ، وسياسة هولندا فى أندونسيا ، إذ اعترفتا باستقلال هذه البلاد تمشياً مع تطور الوعى القومى نحو الحرية ، فإن الشعوب المستعبدة تثور فتلجأ إلى ارتكاب الجرائم ، وغالباً ما يدفعها

اليأس إلى الارتماء فى أحضان الشيوعية التى تنادى بزوال الاستعمار ، ولا يخفى أن مبادئ الشيوعية برّاقة جذابة ، تخفى حقائقها عن النفوس المكافحة الطامعة فى الحرية ، فلا تدرى أنها ستهوى بها إلى كارثة أنكى من الرق ، وهكذا فازت بريطانيا بصداقة شعبى الهند والباكستان ، كما فازت هولندا بعطف شعب أندونسيا .

ولذلك فإننى أنصح مخلصاً ألاّ تقف فرنسا أمام أمانىّ المغاربة المشروعة فى الحرية والاستقلال ، ففى هذا كسب كبير لفرنسا ماديًّا وأدبيًّا ، وإعلاء لشأنها فى العالم العربى بل العالم الحر ، فضلا عن أنه نصر للمعسكر الغربى وخسارة للمعسكر الشرقى ، وإن كانت هناك مصالح فرنسية فى المغرب الأقصى فمن اليسير صيانتها بمعاهدات ، ولاشك أن المغربى الصديق خير من يقدر لفرنسا جميلها ، فيولى وجهه صوبها بقلبه كلما احتاج إلى معلم أو خبير أو صناعة أو تجارة ، وأما القول بالنقص فى التدريب لدى المغاربة ، فإن الذكاء الفرنسى كفيل بإكماله ، كما أن الذكاء المغربى جدير باستيعابه .

وبدا على محدثى أنه استساغ كلمتى الخالصة ، فأمّن على ما قلت ، ولكنه هز رأسه قائلا بأن ذلك صعب التحقيق على الفور ويجب أن يأتى تدريجيًّا ، وكأنه يريد أن يفصح عن عجزه فى إقناع التيار التسلطى فى بلده ويخشى سطوته .

وأبدى لى زميل إسبانى رأيه بألاّ تثار قضية مراكش فى الجمعية العامة

للأمم المتحدة المزمع عقدها فى سنة ١٩٥١ ، فإن الولايات المتحدة لن تؤيد هذه القضية حتى لا تغضب فرنسا ، التى أذنت لها بإنشاء مطارات فى تلك المنطقة ، فأصبحت حيوية لها من الوجهة العسكرية ، فتجاهلت وعد روزفلت لمراكش إبّان الحرب العالمية الثانية ، ولذلك فلا فائدة ترجى من عرض هذه القضية .

فأفهمت زميلى بأن ليس الغرض كسب القضية ، وإنما أن يسمع الضمير الدولى صوت الشعب المظلوم ، وكفى بذلك وصمة عار على الديمقراطية ، فإن لم تعدل فرنسا عن سياستها ، فإن هذا الظلم يخدم الشيوعية دون عناء فى انتشار مبادئها وبث دعوتها ، فيضعف من قوة الديمقراطية ، ويشكك العقول الحرة فى الإيمان بمبادئها العادلة ، وينال من هيبتها .

وأعلمنى زميلى أن فرنسا حاولت أن توحد سياستها مع إسبانيا فى المنطقتين السلطانية والخليفية ، وكذلك فى خارجهما بواسطة دبلوماسيي الدولتين . ولما كانت سياستا الدولتين مختلفاً أساسهما ، فإن فرنسا لم تفلح فى إقناع إسبانيا ، التى واصلت سياستها الودية فى المنطقة الخليفية ، مما أحفظ فرنسا ، فهاجمتها الصحافة الفرنسية ، فقابلتها الصحافة الإسبانية بالمثل وبضربات أشد .

ثالثاً : المنطقة الخليفية :

يتميز الشعب الإسبانى فى الماضى والحاضر بشدة التدين والتمسك بتعاليم الكنيسة الكاثوليكية ، وينبهر الدبلوماسى من بقاء هذه النزعة الدينية المتأصلة فى القلوب فى عصرنا المادى ، وليست سطحية على الأفواه ، فإنه يلمسها ساطعة فى القرى والمدن ، وفى داخل الكنائس . وعند الذهاب إلى المعابد أو الخروج منها ، وفى المواكب الدينية .

وتشربت التسلطية الإسبانية إبّان حكمها فى دول أمريكا اللاتينية بهذه العقيدة الدينية المتأججة ، والتى يهون أمامها كل نفس ونفيس . فنشرت هناك التعاليم الكاثوليكية ، وبثت الثقافة الإسبانية والحضارة الغربية ، فجاء حكمها فى غالبيته ، مبنيًّا على التسامح والصفح والرحمة والعدالة ، فلما زالت هذه التسلطية سياسيًّا ، بقيت روحانيًّا ، واعترف أهل الدول المذكورة لإسبانيا بالوطن الأمى ، وتعلقت به القلوب .

وفى الحرب الأهلية الإسبانية ، التى بدأت فى سنة ١٩٣٦ وانتهت فى سنة ١٩٣٩ ، قد أتى الإسبانى المتدين بالمعجزات فى محاربته الشيوعية ، مما أدى إلى النصر ، مع قلة العدد والعتاد والزاد والمال ، وكان الحافز الوحيد لاستعار حماسته ، أن الشيوعية ترمى إلى محو الأديان ونشر الإلحاد .

فالتقى الإسبانى المتدين بالمغربى فى الطبع والهدف ، لذلك فإن

عدداً كبيراً من المغاربة ، يبلغ حوالى المائتى ألف ، قد تطوعوا فى صفوف جيش الوطنيين الإسبان ، تحت قيادة الجنرال فرانكو ، الذى عاش فى المنطقة الخليفية ، وخبر قوة عقيدة المغاربة ، وثبت له ذلك بتطوعهم فى الحرب الأهلية ضد الشيوعية ، فآمن بقوة إيمانهم ووفائهم ، فاختار منهم حرسه الخاص ، وحفظ لهم هذا الجميل . فأكن لهم كل عطف وثقة .

وعلمت من بعض المصادر المغربية ، أن زعماء المغرب يثقون فى حسن نية الجنرال فرانكو وأعوانه وميولهم الودية نحو العرب ، ولذلك فإنهم قطعوا عهداً بعدم إثارة أى شغب فى المنطقة الخليفية . فخيم عليها الهدوء والاستقرار ، ورُزئت المنطقة السلطانية بالكفاح والاضطراب .

٣ ـ ١٨ يولية : العيد الوطنى :

تحتفل إسبانيا فى ١٨ يولية من كل عام بعيدها الوطنى ، وهو ذكرى ذلك اليوم التاريخى من سنة ١٩٣٦ ، إذ قام الإسبانى يحارب أخاه الإسبانى لينقذ وطنه من براثن حكومة الجمهورية ذات الصبغة الشيوعية ، فشبت الحرب الأهلية الطاحنة ، وهى شر الحروب ، واستعر أوارها ، واندلعت ألسنة نيرانها فلم يدع لهيبها أسرة أو بيتاً . ودامت ما يقرب من ثلاث سنوات بعد أن حصدت أكثر من مليون من شبابها ،

وأقفرت الخزانة العامة من رصيدها الذهبي إذ هربته الحكومة الشيوعية المنهزمة ، والتي لا تزال بالمنفى فى المكسيك تدعى قيامها ، وقد تركت هذه الحرب الشريرة الأطلال قائمة إلى اليوم عبرة لمن لا يعلم أن الحرب الأهلية شر الحروب ، وموعظة لمن قد تبهره الدعايات الخداعة للمبادئ الهدامة .

ودار لى حديث مع إسبانى مسئول تناول عقلية الشعوب ، فإذا بها سريعة النسيان لما نزل بها من محن متى دارت عجلة الزمن ، وعادت الحياة العادية إلى مجراها الطبيعى ، ولذا كان لزاماً على أولى الأمر ، أن يداوموا تذكير عقلية الشعوب بما سبق أن انتابها من كوارث ، حتى لا يمحو الزمن آثارها فى نفوس الآباء قبل الأبناء .

٤ ـ حفلة قصر الجرانخا :

يقيم الجنرال فرانكو ، رئيس الدولة ، احتفاء بذكرى العيد الوطنى ، حفلة استقبال مسائية فى قصر الجرانخا ، تبدأ من الساعة السابعة مساء وتنتهى فى منتصف الليل ، يدعى إليها رؤساء البعثات الدبلوماسية ومستشاروهم وكبار رجال الدولة وقريناتهم ، وترتدى ملابس بعد الظهر للرجال والسيدات .

وكنت توّاقاً لأحضر عقب اعتمادى بثلاثة أيام حفلة كبرى

تعطيني فكرة واضحة عن المجتمع الإسبانى ، الذى يهجر العاصمة فى فصل الصيف .

فقصدت بالسيارة قصر الجرانخا ، وهو يقع فى شمال غربى مدريد على بعد ثمانين كيلومتراً . والطريق معبّد بالأسفلت وسط المرتفعات ، يصعد ويهبط نحو جبل وادى الرامة ، وتموج بقعة القصر بالمروج والغابات ، وكان الملوك السابقون يقصدونها للقنص ، وقد كشفها الملك هنرى الرابع فى منتصف القرن الخامس عشر ، فابتنى له فيها مسكناً ومعبداً ويسمّى البناء فى الريف فى اللغة الإسبانية بالجرانخا ، ثم جاء الملك فيليب الخامس فبنى فى أوائل القرن الثامن عشر قصر الجرانخا فى المكان نفسه ، على طراز قصر فرساى ، وجمله بالفاخر من التحف ولا سيما السجاد ، وترتفع جهة الجرانخا الخضراء حوالى ١٢٠٠ متر عن سطح البحر ، فتمتاز فى الصيف بهوائها البارد الصافى من الرطوبة ، ولذلك اتخذها الملوك السابقون مصيفاً .

ولما وصلت إلى هذا القصر الفخم فى الساعة السابعة من مساء ١٨ يولية سنة ١٩٥٠ ، وانتظرت مع المدعوين والمدعوات فى مدخل فنائه خرج الجنرال فرانكو والسيدة الفاضلة قرينته وسلّما علينا ، ثم قادا الجميع نحو الحديقة ، يتأبط كل مدعوّ ذراع جارته فى المائدة ، فبهرتنى واجهة القصر المطلة على الجنة التى تزدان بالنافورات البديعة تبعث بمياهها الفوارة

فأخذ السمع يطرب لحرير المياه ، والبصر يبتهج من انعكاس أضواء الثريات الكهربائية على الأمواه الفوّارة ، وقد مدّت وسط الحديقة المتلألئة مائدة رئيسية تتسع لجلوس مائة مدعو ، ونثرت مناضد أخرى صغيرة فى جوانب الحديقة الفسيحة ، وكان من حظى الحسن أن السيدة التى شرفتنى بجوارها تتكلم الفرنسية ، سيماها يشف عن الفضل والخلق الكريم ، وزوجها من العظماء ، ومع ذلك فقد ظهرت فى ثوب كله حشمة وذوق سليم ، وسمت فى نقاشها بالتواضع والبراءة من أدران مركب النقص ، وأجلتُ نظرى فى غيرها من السيدات المدعوات ، بادئاً بالتى على يسارى ، فوجدتهن جميعاً تلك السيدة الفضلى جارتى ، وهى أول سيدة إسبانية أتكلم معها ، فأحسست لأول وهلة أن المرأة الإسبانية تتربع على عرش بيتها ، وترعى مملكتها الصغيرة العظيمة فى تحنان وعطف وإخلاص ، فيجد الزوج والأولاد عشاً هادئاً يركنون إليه ، فيمحو عن نفوسهم متاعب اليوم ، فتبدو لهم الحياة زاهية ، فتنساب السعادة إلى صدورهم ، فوقفت فى مستهل إقامتى على سر سعادة الأسرة الإسبانية ، وهناء الشعب الإسبانى ، وطول الأعمار .

وبدا لى مدعوّ فاضل ذا مسحة عربية ، فظننته من إخواننا المراكشيين ، فاستعلمت عنه من جارتى ، فتبين أنه إسبانى من الكبراء . فازداد شعورى بأننى فى بيئة يسهل علىّ الانسجام فيها ، وسبح الخيال

وسط نغمات الموسيقى الشجية ، وكانت الأنوار الوضاءة تداعب أفنان الخمائل ، والأزهار تنفح طيبها فى الهواء .

ثم انتقل المدعوون ، يتقدمهم الداعى وقرينته ، إلى مؤخر الحديقة حيث جلسوا أمام حوض كبير من المياه على شكل نصف دائرة ، يعلو قطرها مرتفع من الأرض أعدّ ليكون مسرحاً طبيعياً فى الهواء الطلق ، تحيط به الأشجار ، وتسطع عليه الأنوار ، وعرضت ألوان مختلفة من الرقص والتمثيل والغناء من أمهر فنانى إسبانيا وفناناتها ، وعند ما كان هؤلاء يعرضون فنهم الرفيع على المسرح الطبيعى ، كان ظلهم ينعكس على مياه الحوض ، فيزيد حسن الأداء بهاءً ، وجمال المنظر سناء ، وجلال الفكر خيالاً .

وراقتنى الرقصة الأندلسية الشهيرة ، ذات الصُّحون الخشبية ، فقد خرج إلى المسرح من بين الأشجار سرب من الغيد الحسان ، بأزيائهن الشعبية المزركشة ذوات السراويل الفضفاضة ، والأكمام الطويلة المخرّمة ، وقد امتلأت بنيتهن قوة ، وبدت وجوههن وضّاءة وسط هالة الشعور الفاحمة إلا من بعض الورود البيضاء ، وثغورهن باسمة من نشوة الطرب ، فاندفعن فى قوة ورشاقة مع دقة التوقيع على نغمات الموسيقى ، سواء أكانت حركات القدود اللدنة ، أم دبيب الأقدام ، أم رنات الصحون الخشبية ، فأخذن يتمايلن ويدرن ويتقدمن ويتأخرن ، وتارة يرفعن الأنوف شامخات عفافاً وإباء ، وتارة أخرى يخفضن الرؤوس ويخفين الوجوه أدباً وحياءً ،

ويواصلن الكرّ والفرّ فى حركات كلها فن ودلال وعفاف وخفة ، ويبلغن الذروة فى الإجادة، عند ما يدرن فتنفتح السراويل المزركشة كما ينفتح الزهر عن كمامته ، فيرسمن بفنهن الخارق لوحة حية نادرة .

وانتهت هذه الرقصة الأندلسية البديعة بعد أن نقشت فى الذاكرة والمذكرة ، كما نقشت فيهما من قبل مثيلتها على نطاق مصغر ، إذ قام بها ثلاثة من الفنانين الإسبان ، على وجه خاطف ، وكانوا شاباً وفتاتين ، وذلك فى حفلة ساهرة أقامها ، منذ خمس عشرة سنة ، وزير خارجيتى فى نزل بالقاهرة ، احتفاء بالهيئة الدبلوماسية الأجنبية بمصر ، وعرضت فى هذه الحفلة رقصة البطن المصرية مع الصحون النحاسية ، وهى رقصة خالية من أصول الفن ، وأحرجتُ إذ سألتنى جارتى ، قرينة دبلوماسى أجنبى ، عن أصل هذه الرقصة الشعبية ومرماها ، فلم أستطع جواباً أو مخرجاً فأجبت بأننى لا أعلم ،وفى النفس حسرة ، وتمنيت أن يرتفع الرقص الشعبى عندنا إلى مستوى تقاليدنا الإسلامية ، فيختفى العرى ، وتعبر حركات الرقص عن آراء فاضلة وتوجيهات عالية ، وقد ازدادت حيرتى فى ذاك الوقت ، إذ أعلمتنى زوجتى أن السيدة المستعلمة المذكورة ، قد أخبرتها فيما بعد ، أنها استحسنت رقصة البطن ، واجتهدت فى دارها أن تقلدها حتى نجحت فى ذلك .

ثم توقف شريط ذاكرتى ومذكراتى عن إخراج بعض ما بها من

صور ، إذ شغفت الأذن بصوت كروانى عذب يخرج من فم آنسة صغيرة السن نحيفة القد ، وقد غنت ، فغرّدت وأخذت بمجامع القلوب .

وانتهت السهرة البارعة ، وخرج فريق يتحدث عن جمالها ، وآخر كان مأخوذاً بسحرها وجلالها .

٥ ــ حفلة الريتيرو :

أقام مدير بلدية مدريد فى الساعة الحادية عشرة من مساء ١٩ يولية سنة ١٩٥٠ ، حفلة ساهرة فى بستان الريتيرو ، تكريماً لأعضاء الهيئة الدبلوماسية بمدريد وقريناتهم . وذلك بمناسبة بدء موسم الصيف ، وانتقال الحكومة ورؤساء البعثات الدبلوماسية إلى المصيف الرسمى بسان سباستيان ، وقد دُعى أيضاً كبار رجال الدولة والمجتمع وقريناتهم .

وكانت الحفلة رائعة ، امتازت بأنها فى الهواء الطلق ، وسطعت الأنوار الكهربائية على الحديقة ، فكشفت فى الليل البهيم عن جمال الخضرة وفتنة الورود ، وسحر الخمائل ، وازدانت بعرض فنى بديع للأغنيات والرقصات الشعبية الساحرة ، وبعد تناول الطعام الشهى ، اتجه المدعوّون إلى حلقة الرقص الحديث الصاخب (Jazz) .

فأتيحت لى فى بداية مهمتى فرصة أخرى ثمينة أن أرى عن كثب المجتمع الإسبانى الذى قرأت عنه ، فازداد إعجابى بوقار المرأة فى ملبسها ، وكمالها فى خلقها ، وجمالها فى خفارتها . وتبين لى أنها لا تولع

بالرقص الحديث إيلاع أخواتها الغربيات ، ولا تزال الرقصات الشعبية تأخذ عليها لبها .

ولمست توًّا من حديثى مع بعض الفضليات ، أن الإسبانية تعنى بزوجها وأولادها ، وتأوى إلى عش الزوجية وتأنس به ، وتفخر بكثرة الولد ، فأيقنت أنها متربعة على عرش الأنوثة ، فهى الحاكمة المطلقة فى بيتها ولكن بقلب كله تحنان ورقة ، وحق لها على أهل البيت الطاعة عن رغبة لا عن رهبة .

ولذلك فإن الإسبانى مغمور بحب زوجته وذريته ، فسيتقبل غده بصدر منشرح ، ويستصغر متاعب الحياة فيتغلب عليها .

وهكذا سمت الزوجة فارتضى الزوج فى زهو أن يحمل لقب زوجته الشرفى إن كانت من طبقة الأشراف ، فيصبح أميراً أو دوقاً أو مركيزاً أو باروناً تبعاً للقب زوجته ، فانفردت إسبانيا بذلك بين سائر الأمم .

٦ ــ قضاء الصيف فى مدريد :

لما قدمت مدريد إبان فصل الصيف ، لم أفز بدار فى المصيف بسان سباستيان أو بغرف فى فنادقه ، فاضطررت إلى البقاء فى العاصمة ، وقد اشتد حرّها ، ولكنه حر محتمل ، إذ أنه جاف ، وتخففه القيلولة ، ويذهب به نسيم الليل العليل ، ومن ينشد البرودة بعد الظهر ، فما عليه إلا

أن يقصد ضواحى العاصمة ، فينعم فى جباها بالهواء البارد الجاف المنشط ، ولم يكن الحر عنى غريباً ، فلى جسم قد لفحته أشعة الشمس .

وتبين لى من تجوالى فى الضواحى والريف ، أن الطرق معبدة بالأسفلت ، فتنساب السيارة دون اهتزاز . مما يدع مجالا للتمتع بالنزهة وجمال الطبيعة ، ووجدت القرويين نظفاء غير حفاة ، وأولادهم مسالمين ، فلا يتعرضون للسيارة عند اجتيازها طرق القرية .

ولفت نظرى أن هناك بائعين لمياه الشرب فى أباريق من الفخار ، شبيهة لما عندنا ، وأعجبت من أن الشارب يتناول الإبريق بين يديه عالياً بعيداً عن فمه ، ويدع المياه تتدفق فى مهارة من البلبل نحو فمه . دون أن يمس البلبل شفتيه ، أو تضيع قطرة من المياه المسكوبة ، وهكذا عاشت عادة الشرب من الإبريق ولكن بطريقة صحية .

وقد راقنى رؤية ما اعتدته فى ريفنا ، إذ رأيت بعض الزارعين يستعملون أدوات الزراعة غير الآلية ، كالنورج والمذراة ، وأقاموا الأخصاص فى حقول البطيخ والشمام والخضر .

وكم كانت الأذن تستعذب فى الريف وقت الأصيل ، سماع الناقوس يدق دقاً خفيفاً متواصلا ، وقد علق فى عنق أحد الخراف أو الماعز ، يؤذن بأن قطيعاً من الغنم فى طريقه إلى حظيرته ، بعد أن رعى فى الوديان . والراعى مبتهج لأداء واجبه ، وكلبه أكثر منه ابتهاجاً ، إذ ردّ الأمانة إلى

أهلها ، فعاد القطيع سالماً كاملاً .

وانتهزت الفرصة وزاولت لعبة التنس فى نادى الباب الحديدى ، وهو ناد رياضى ممتاز فى مدريد ، يشترك فيه الدبلوماسيون وكبار القوم ، ويقع على ربوة ، فيسيطر النظر على آفاق بديعة ، ويمتاز بنظافته وجودة طعامه ، وبأن به غرفاً للنوم مقصورة على الأعضاء ، إذا رغب أحدهم فى الهدوء وسحر الطبيعة ، ولاحظت أن المرأة الإسبانية الرياضية لا تزال محافظة على الحشمة فى ملبسها حتى فى الملعب ، فكانت تلعب التنس بالثوب الأبيض الطويل ذى الكمين ، على حين أختها الغربية التى تلعب معها ، ترتدى سروالا قصيراً ضيقاً ، يعلوه قميص حريرى ضيق قصير كماه ، فتظهر أجزاء من الجسم عارية ، وسألت زميلا غربيًّا عن أى الثوبين يفضل ، فأجاب فى دبلوماسية ، بأن لكل منهما سحره ، فسحر ثوب الإسبانية فى الإخفاء ، وسحر ثوب أختها الغربية فى الإظهار . على أن السحر الإسبانى قد يفوز ، إذ أن الأجسام لا يدوم كمالها فى العادة طويلا ، ولو أنها تكتسب صحة وحيوية بتعرضها لأشعة الشمس والهواء الطلق .

وفى أيام الآحاد ، بهرنى خشوع أهالى القرى ، صغاراً وكباراً ، وهم يتمهلون فى مشيتهم زرافات إلى الكنائس ، للصلاة أو خارجين منها بعد أدائها ، مما يدل فى وضوح ، على أن الدين قد تغلغل فى أعماق قلوب الشعب ، فسمت النفوس ، فقنعت من المادة بما يسد الحاجة .

ولاحظت أن الروحانية قد تمكنت من عقول الكتاب ، فلم تخل قصة أو رواية سينمائية أو مسرحية من مسحة دينية ، حتى لا يطغى اللهو البرىء ، فيبتعد بالنفوس عن تعاليم الدين ، ولذلك اعتبر الشعب الإسبانى بحق ، العدو اللدود للمبادئ التقدمية والهادمة للدين .

٧ ـ التجاهل الدبلوماسى :

تحدثت مع زميل أجنبى لدولة كبرى ، وهو حاد الذكاء ، واسع الاطلاع ، فأدهشنى بسؤاله إياى ، عما إذا كانت دولتى ممثلة فى إسرائيل ، فأجبته بأن دولتى لم تعترف بها ولن تفعل ذلك ، وأن أية دولة قامت على أساس غير طبيعى ، لا تستطيع أن تعمر طويلاً .

وزاد زميلى من دهشتى ، إذ استفهم منى عما إذا كان لنا ممثل فى ألبانيا ، لأن دولته قلقة مما يجرى هناك ، ولا يوجد لها ممثل دبلوماسى ، فأجبته بالنفى ، وأن الملك زُوجو مقيم فى مصر ، وله فيها ممثل معترف به ، وقد يكون لدولته قلم للمخابرات السرية ، وأن لهذا القلم عيوناً منبثة هناك .

وأذهلنى زميلى إذ استعلم منى عن السبب فى تقرب إسبانيا من البلاد العربية ، وفى دعوة الملك عبد الله ، ملك الأردن ، لزيارة إسبانيا وقد تمت فى سنة ١٩٤٩ ، وفى دعوة الزيارة التى وجهت أخيراً إلى الأمير عبد الإله ، الوصىّ على عرش العراق ، فأجبته بأننى لا أعلم السبب ، وأن الزميل

ولا شك أدرى منى بذلك .

وأبدى الزميل رأياً بأنه لا ضرر على العالم من أن تكون الشيوعية محصورة فى داخل حدود أية دولة ، وإنما الخطر الداهم أن تبتغى الشيوعية الدولية السيطرة على العالم ، وأنه من الخير للعالم أن تنفصل الدول الشيوعية عن موسكو ، وهذا الرأى لم يفهمه الساسة الإسبان . . .

ما أعمق غور التجاهل الدبلوماسى ! ! !

٨ ـ آداب الزيارات الدبلوماسية :

تبين لى أن سفيراً لإحدى دول أمريكا اللاتينية لم يقم برد الزيارة لى ، وقد أديتها إليه عملاً بما تقضى به قواعد القانون الدبلوماسى .

فانتهزت فرصة قيام عميد الهيئة الدبلوماسية بمدريد برد الزيارة لى ، وفاتحته فى شأن السهو الذى وقع من هذا السفير عن غير قصد ، وذلك حرصاً على كرامة الدولة التى أتشرف بتمثيلها .

فإذا بالسفير يردّ الزيارة ، ويقدم إلىّ اعتذاره ، متعللاً بعذر المرض ، وقبلت العذر فى ظرف ، وتجاذبنا الحديث وكأن الحادث لم يكن .

ولاحظت أن زميلاً آخر لإحدى الدول الكبرى ، فاته أن يؤدى الزيارة لى ، ثم تلقيت منه دعوة إلى حفلة شراب « Cocktail » ، فأفهمته على لسان أحد أعوانى بالسفارة ، بأنه لم يقم بأداء الزيارة الدبلوماسية الأولى

الواجبة ، فمن المتعذر قبول دعوته إذ لم يسبق لى التشرف بمعرفته .

فقام هذا الزميل على الفور بأداء الزيارة ، وقدم اعتذاره فى صراحة بريئة ، مبدياً أسفه بأنه جديد فى مهنة الدبلوماسية . ولم يألف بعد هذه المراسم الشكلية . فقبلت العذر فى رفق ، وطويت الحادث ، وأشعرته بأنه انمحى ، ولم يبق إلا صفاء الزمالة الدبلوماسية ، ولا سيما مع زميل ، سمت أخلاقه ، ولمعت صراحته فى جو الدبلوماسية الحالك ، وحرصت على حضور حفلته ، ورد الزيارة له .

وقد لمست من هذين الزميلين فى المعاملة مودة وثقة . فأثبتا أنهما حريصان على كرامة دولتيهما ، وبالتالى كرامة الدول الأخرى .

٩ ـ سحر الغربة :

اعتادت الأذن أن تتأذّى من نهيق الحمير . سواء أكان فى الريف أم فى المدن ، ولم أشاهد فى الغرب من الحمير إلا قليلاً . ومن ذلك النوع الضئيل الحجم ، ولا تظهر الحمير فى المدن الأوربية ، ويندر ظهورها فى الريف حيث حلت القوة الآلية محلها .

وما بدأت الإقامة بدار السفارة بمدريد ، حتى فوجئت فى الصباح المبكر بسماع نهيق يدوّى فى الحىّ الهادئ ، فنال منى العجب ، وخلت نفسى بدارى بحىّ الدقى بالجيزة أستمع فى ضيق إلى نهيق حمار بائع البترول

غير أن الأذن لم تألم هذه المرة كما كانت تفعل فى مصر ، وفى اليوم التالى وفى الوقت نفسه استمعت الأذن إلى النهيق ، الذى توالى يومياً فى المواعيد نفسها ، ثم أخذت تستسيغه بعد أن كانت تنفر منه ، بل تفتقده إذا ما مرّ يوم دون سماعه .

وهكذا تفعل الغربة فى مشاعر المغترب ، فيحس بالتعلق بالوطن ، والتحنان إليه والهيام به ، فيغضى عن عيوبه ، ويرتضى منغّصاته ، ولا يرى فيه إلا سيد الأوطان ، مهما تصغر رقعته ، ويقل عدد سكانه ، وتتخلف حضارته ، وتمتلئ بأنكر الأصوات جواؤه .

١٠ ـ معهد مصر للدراسات الإسلامية :

قبيل مغادرتى مصر إلى مقر عملى بمدريد ، أبدى لى أولو الأمر رغبتهم الملحة فى افتتاح معهد الدراسات الإسلامية بمدريد فى شهر نوفمبر سنة ١٩٥٠ ، فلما باشرت عملى رسمياً بادرت بالاتصال بالمختصين بوزارة الخارجية الإسبانية ، لكى أحصل فى عجل على موافقة الحكومة الإسبانية على إنشاء هذا المعهد بمدريد ، ففوجئت بأن المسألة شائكة ، لأنها أتت فى ظروف غير مواتية ، فهناك تشريع تحت البحث ينظم المعاهد الأجنبية بإسبانيا ، فقد ثبت أن معتنقى المبادئ الهدامة فى الخارج استغلوا حصانة بعض هذه المعاهد الأجنبية ، فأدخلوا عن طريقها

المطبوعات الهدامة فى داخل البلاد . لذلك فمن العسير أن تتم الموافقة على إنشاء معهد جديد قبل إصدار هذا التشريع ، فأفهمت المختصين أن مصر المناهضة للمبادئ الهدامة تؤيد إسبانيا الصديقة فى مكافحة هذه المبادئ الخطرة بل تساعدها على ذلك ، فهى توافق من الآن وبدون قيد وشرط على تنفيذ أحكام أى تشريع يصدر فى هذا الصدد ، ولذلك فإننى أطلب الموافقة على إنشاء المعهد على هذا الأساس دون الانتظار إلى صدور التشريع الجديد ، فووفق على وجهة نظرى وتمت الموافقة . ثم أعدّت دار المعهد فى سرعة خاطفة ، بفضل المجهود الخارق الذى بذله مندوبو وزارة معارفنا ، وقام عالمنا الفذّ ، الدكتور طه حسين ، وزير المعارف ، بافتتاحه رسمياً فى نوفمبر سنة ١٩٥٠ .

ولم تكسب مصر من إنشاء المعهد بقدر ما كسبته من زيارة العالم القدير الدكتور طه حسين ، فقد سبق أن زار إسبانيا فى سنة ١٩٤٨ ضيفاً على الحكومة الإسبانية ، وألقى محاضرتين فى مدريد وغرناطة ، وفاز بعطف القوم وثقتهم ، والإسبانى مشهود له بالوفاء والتفانى فيه إذا ما منح عطفه وثقته ، ولذلك لمست أن علماء القوم يقدرونه بالقلوب قبل الألسنة ، وأن الصحافة تفيض أنهارها بالترحيب به ، وأن السلطات الرسمية تبالغ فى تكريمه والحفاوة به .

ألم أر السنيور أبانيز مارتن ، وزير معارف إسبانيا ، وقد وصل متعباً

بالطائرة فى ساعة متأخرة من الليل عائداً من روما ، وهو يهرع مبكراً فى الصباح التالى إلى المحطة بمدريد لاستقبال عالمنا ، ولما شكرته على فضل مقدمه بالرغم من مشاقّ السفر وقلة النوم ، أجابنى فى نبالة ، بأنه إنما جاء ليستقبل وزير معارف إسبانيا . . .

وكفى فخراً لمصر أن ينشر أحد الإسبان فى الصحف بأنه مستعد لأن يتبرّع بإحدى عينيه إلى عالمنا الضرير ، حتى يزيد نور عقله ضياءً .

وإزاء هذا الفوز العظيم للوطن ، رجوت أولى الأمر فينا ، أن يوفدوا دواماً علماءنا الأفاضل فى مختلف العلوم ، فتندمج مصر الحديثة فى البيئة العلمية العالمية ، فتستفيد وتفيد أدبيًّا وعلميًّا وماديًّا ، وتزيد دعائم سلكها الدبلوماسى قوة وعلوًّا .

ولم أتبين الغرض الذى من أجله أنشئ هذا المعهد بمدريد ، وتركت الزمن يمرّ عله يفصح لى عن ذلك ، ومضت الشهور والأيام ولم أوفق إلى تبينه ، وألفيت المعهد قد وقف جهوده على تعليم اللغة العربية إلى بعض الإسبان ، وتصوير بعض المطبوعات العربية القديمة ، فى حين أن هدف مصر الأصيل هو إحياء التراث العربى القديم ، ودراسة المخطوطات والآثار القديمة محليًّا فى الإسكوريال وطليطلة وقرطبة وإشبيلية وغرْناطة وغيرها ، والوقوف على التقدّم العلمى فى إسبانيا الحديثة ، كل هذا لا يستدعى إنشاء معهد بمدريد ، وإنما يتطلب إيفاد علماء بارزين فى بعثات علمية

خاصة ، يتنقلون ويقيمون حيث توجد بحوثهم .

أما زيادة العلاقات الثقافية بين البلدين ، فتتم ، كما وُفق إليه أولو الأمر فينا أخيراً ، بإيفاد الطلبة فى بعثات تعليمية للدراسات العليا فى الجامعات الإسبانية ، فيتقنون اللغة الإسبانية ويتبحرون فى العلوم ، فيصبحون نواةً صالحة فى المستقبل لطائفة من العلماء المصريين ، الذين يحاضرون باللغة الإسبانية فى إسبانيا وأمريكا اللاتينية . وكذلك تتم بتبادل الأساتذة والطلبة والفنيين والرياضيين . فمن الخير أن تخصص اعتمادات المعهد للأوجه التى إليها أشرت .

١١ ـ جولة مع زميل أجنبى حول السياسة الأمريكية :

حدثنى زميل أجنبى قال ، إن قائداً أمريكيًّا فى سنة ١٩٤٥ ذكر أن الألمان عند ما كانوا يسلمونه أسلحتهم عند هزيمتهم ، كانوا يتوسلون إليه ليحتفظ بها ، حتى يأتى اليوم الموعود لكى يحاربوا بها الشيوعيين .

ولذلك فإن الدبلوماسية الأمريكية تتعجب من تمسك فرنسا بألاّ تتسلح ألمانيا الغربية مهما تكن الدوافع .

وأبان زميلى أن هناك خلافاً فى وجهة النظر بين أمريكا وبريطانيا بشأن الاعتراف بجمهورية الصين الشعبية ، وترى الدبلوماسية الأمريكية أن سبب اعتراف بريطانيا بها ، يرجع إلى المصالح البريطانية التجارية .

فعلقت على رأى زميلى بأن المصالح الأمريكية أضخم من المصالح البريطانية وأكثر أهمية ، فلا بد من قيام سبب آخر ، وربما كان ضرورة وجود ممثل دبلوماسى لدولة من المعسكر الغربى ، حتى يشرف عن كثب على الميدان . فلم يوافق زميلى على هذا التخريج .

وذكر زميلى أنه كان لممثل أمريكا بمدريد الفضل الأكبر فى فتح الحدود الإسبانية الفرنسية فى سنة ١٩٤٨ ، فقد قام من وراء الستار بدور هام لإنهاء الأزمة الحادة بين البلدين ، وعرض عليه مشروع الاتفاق بينهما فى هذا الصدد ، فعدّل فيه ، وحذف منه العبارات التى كانت تزيد الموقف تعقيداً .

ولاحظ زميلى أن كثيرين يظنون خطأ أن دبلوماسيي المعسكر الغربىّ دائماً على وفاق تام ، وقد خلت نفوسهم من التنافس والتعالى والغيرة والأثرة ، فقد حدث أن ممثل بريطانيا فى مدريد، أراد أن يجرى مع ممثل أمريكا على دبلوماسية التكتم والحذر ، فكان يقف من الأخير على كل خطوات الدبلوماسية الأمريكية ، دون أن يطلعه على خطوات الدبلوماسية البريطانية . فلما فطن ممثل أمريكا إلى ذلك ، عامله بالمثل ، فاضطر ممثل بريطانيا إلى العدول عن مسلكه ، واتبع سياسة الإفصاح .

وأشار زميلى إلى أن الرئيس ترومان أمضى قانوناً بمنح إسبانيا قرضاً قدره اثنان وستون ونصف مليون دولار ، ولم يبق سوى الإجراآت التنفيذية

وهى تحتاج إلى إقرار من الرئيس ، فإن لم يقرها ظل القانون من غير تنفيذ . وترجع معارضة الرئيس لإسبانيا ، إلى أن الحكومة الإسبانية أساءت معاملة رجال الدين الأمريكان ببرشلونة . ورفضت طلباتهم بشأن كنيستهم ، فضلاً عن أن اتحادات العمال فى أمريكا . تكره النظام القائم فى إسبانيا ، ولهذه الاتحادات قوة يعتمد عليها رئيس الجمهورية الأمريكية فى معركة الانتخابات .

وأضاف زميلى أن الدبلوماسية الأمريكية نصحت إسبانيا . بأن تنتهج سياسة تؤدى إلى قبولها فى المعسكر الغربى . وذلك بأن يفرج عن المعتقلين من الإسبان المعادين للنظام القائم . وأن يتركوا أحراراً . وأن يلغى نظام القضاء العسكرى ، وأن تترك الصحافة حرّة .

ولما كانت الدبلوماسية الأمريكية لم تفقه كنه العقلية الإسبانية ، تدخلت فى شئون إسبانيا الداخلية . ومست فى الصميم السيادة ، وبالتالى كرامة الوطن ، فقد رفضت إسبانيا النصح فى شمم . ولم تكترث لبريق الدولار وهو العملة النادرة فى المعاملات الدولية . فرمتها أمريكا بالجمود وعدم تفهم تطور الحوادث الدولية ، وبأنها لا تزال تفكر بعقلية عصر فردناند وإيزابيل ، ناسية الخطر الشيوعى المستطير . الذى وضعها من بين أهدافه الذرية الماحقة . وليست لديها قوة جوية أو أرضية سريعة كفيلة بصد غزوه الجوى ، إذ يخشى عسكريو الغرب أن يقع على إسبانيا

غزو شيوعى من الجو .

وختم زميلى حديثه بأن الدبلوماسية الأمريكية تعترف بأن الإسبانى أشجع جندى أوربى ، وأعدى أعداء الشيوعية ، يفنى فى سبيل مثله العليا ولا ينقصه إلا العتاد الحربى الحديث والمرانة عليه ، فقد تقدم كثير من الإسبان إلى السفارة الأمريكية بمدريد، يلحون فى قبولهم متطوعين فى حرب كوريا ، فأكبرت أمريكا هذه العاطفة الفدائية الحارة ، ولكنها أسفت لعدم إمكانها تلبية نداء التضحية النبيل ، لأن ذلك يستدعى إيفاد المتطوعين أولاً إلى أمريكا للمرانة والإعداد ، ثم تسفيرهم إلى كوريا ، وهذا يتطلب وقتاً طويلا وجهداً كبيراً .

١٢ – مع سياسى إسبانى كبير :

تحدثت مع سياسىّ إسبانى كبير ، فأظهر لى امتعاضه من فرنسا ، فقد امتنعت عن التصويت فى اللجنة الخاصة باللجنة السياسية للجمعية العامة للأمم المتحدة ، بشأن طلب إلغاء قرار الجمعية السابق الخاص بسحب السفراء والوزراء المفوضين من مدريد . فبرهنت على أنها لا تزال متبعة سياسة الجمود ، وقد منيت سياستها بالضعف من جراء التيارات الشيوعية التى تتفاعل فيها ، فقد علم من مصدر عسكرى أن فرنسا لا تعتمد على سواعد الجنود الفرنسية للقضاء على الحرب الشيوعية

القائمة فى الهند الصينية ، وإنما تعتمد فى ذلك على الفرق المتطوعة ، فهناك ثلاثون ألف متطوع من الألمان .

وأظهر محدثى دهشته من أن الدول الديمقراطية قد تبين لها فى وضوح ، أن الاتحاد السوفيتى يتبع السياسة القيصرية التسلطية ، فيرمى إلى بسط التسلطية الشيوعية على العالم بأجمعه ، ومع ذلك تتجاهل هذه الدول إسبانيا ، التى سبقتها فى مكافحة الشيوعية منذ سنة ١٩٣٦ ، ولن تغير أبداً خطتها إزاءها .

وسألنى محدثى عن موقف مصر إزاء إسرائيل . فأجبته بأن البلاد العربية ومن بينها مصر ، قد عقدت العزم على ألا تعترف بإسرائيل أو تتعاون معها ، وسبق أن أفهم ممثلو الولايات المتحدة مراراً أن دولتهم قد خلقت إسرائيل ، متبعة فى ذلك سياسة ستظهر الأيام خطأها .

فعلق محدثى على قولى ، بأن لليهود نفوذاً قوياً فى الانتخابات . ولذا يخشاهم الرئيس ترومان فيعمل على ترضيتهم ، وهم يمقتون إسبانيا ، ويسعون دائماً إلى إفساد سياسة التقرب الأمريكية منها . ولذلك فإن القرض الأمريكى الذى تقرر لها ، قد أنقص من ١٠٠ مليون دولار إلى ٦٢,٥ مليوناً ، ووافقت عليه الهيئة التشريعية (الكونجرس) ، ولكن التأخير أصابه فى التنفيذ ، ممالأة لليهود ، بغية كسب أصواتهم فى الانتخابات ، مع العلم بأن إسبانيا فى أشد الحاجة إلى تجديد جهازها الصناعى .

وسمع محدثى دبلوماسيًّا أمريكيًّا يقول : إن مواطنيه يكرهون اليهود ويمقتون نفوذهم القوى فى بلادهم ، وأنه سيأتى يوم يهب فيه الشعب الأمريكى فى وجه هذا النفوذ المتغلغل فى الخفاء .

وأبدى لى محدثى إعجابه بتصرف مصر إزاء مشكلة كوريا فى مجلس الأمن ، فإنها أظهرت حنكة دبلوماسية ، وذلك بأنها أبدت بغضها للعدوان ، مع الأسف على عدم إمكانها الموافقة على المعاونة فى كوريا ، لأن الأمم المتحدة لم توقف عدوان إسرائيل على فلسطين الوديعة وتشريد أهلها .

١٣ – مع إسبانى ثقة :

فى أواسط نوفمبر سنة ١٩٥٠ حدثنى إسبانى ثقة قال ، إنه علم أن المستر بيفن ، وزير خارجية بريطانيا ، سيلقى تصريحاً فى مجلس العموم بشأن تعيين سفير لبريطانيا بمدريد ، وذلك على أثر صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الصادر فى ٤ / ١١ / ١٩٥٠ ، القاضى بإلغاء قرارها السابق الصادر فى سنة ١٩٤٦ ، الخاص بسحب السفراء والوزراء المفوضين من مدريد .

وأضاف محدثى أن الإنجليز فى السياسة عمليون ، وأنهم يريدون أن يكون سفيرهم أول من توفده الدول التى سبق أن نفذت قرار السحب .

وأظهر محدثى دهشته من أن فرنسا تعارض فى اشتراك ألمانيا الغربية فى الدفاع عن أوربا ضد الشيوعية ، مع أن كثيراً من الألمان تطوعوا فى الحرب فى الهند الصينية مكافحة للشيوعية ، التى استفحل خطرها فى شرق آسيا ، فإن اشتراك الصينيين الشيوعيين فى الحرب الكورية ، قد زاد الأزمة الدولية تعقيداً ، ويحتمل أن تنطلق هناك شرارة الانفجار الدولى ، فتشتعل نيران الحرب العالمية الثالثة . مع العلم بأن فرنسا لا تقوى وحدها على صدّ أى عدوان سوفيتى ، فضلاً عن أن الشيوعية منبثة فى الكرة الأرضية ، ولم تنس العالم الجديد ، فقد اغتيل الرئيس الموقت لجمهورية فنزويلا ، الذى استولى على الحكم منذ سنتين . وكان صديقاً حميماً لإسبانيا ، ويخشى أن تكون أيدى الشيوعية قد اغتالته .

١٤ ـ العلاقات الإسبانية الفرنسية :

أفضى إلىّ زميل أجنبى نابه ، له خبرة واسعة بإسبانيا ، بأن الأسباب غير التاريخية للعداء المستحكم بين إسبانيا وفرنسا فى الوقت الحاضر ، ترجع إلى أنه فى الحرب الأهلية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) ، كان الفرنسيون يساعدون المعسكر الشيوعى بالرجال والعتاد ، وبعد إنهاء هذه الحرب بنصر الوطنيين ، احتضنت فرنسا ما يقرب من نصف مليون شيوعى إسبانى ، وهاجر منهم كثيرون إلى الأمريكتين الوسطى والجنوبية ،

وتجنس من بقى منهم بالجنسية الفرنسية ، فزاد من قوة الحزب الشيوعى الفرنسى ، وحرّض المشاغبون منهم على أن ينبثوا مسلحين فى حدود جبال بيرينة ، فقاموا بشن غارات عصابية فتاكة ، فانتشر الذعر فى شمال إسبانيا ، واختلّ الأمن العام مما دعا الحكومة الإسبانية إلى قرار بإغلاق الحدود بين البلدين ، فأخذت العلاقات بينهما تزداد توتراً وسوءاً ، وطفح الكيل عند ما امتنعت فرنسا عن التصويت فى قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الصادر فى ٤ / ١١ / ١٩٥٠ بشأن إلغاء سحب السفراء والوزراء المفوضين . وإزاء تدهور الحالة التجارية بين البلدين ، اضطرت فرنسا إلى معالجة أزمة الحدود ، فسوّيت .

ولما تبين لفرنسا أن الدول تتسابق فى كسب ود إسبانيا ، وإعادة المياه إلى مجاريها ، ارتأت ألاّ تتخلف عن الركب الدولى ، ولا سيما أنها ترتبط بها برباط وثيق فريد ، ألا وهو الجوار ، فتراجعت تدريجياً فى سياستها الكيدية ، فمنعت الشيوعيين الإسبان بفرنسا من مواصلة أى نشاط عدائى ، وألغت حزبهم وكذا الصحيفة التى يصدرونها ، وأمرت بأن يغادروا فرنسا إلى أى بلد شيوعى ، أو الإقامة تحت رقابة شديدة .

وبذلك مهدت فرنسا للجو المكفهر عناصر الصفاء .

١٥ ـ قدوم مستشار الأمير دون خوان :

إن للأمير دون خوان ، المطالب بعرش إسبانيا ، والمقيم بلشبونة ، مستشارين إسبانيين ، فقدم أحدهما مدريد فى منتصف نوفمبر سنة ١٩٥٠ ، فأشيع أنه قادم للقيام بالوساطة بصدد مشكلة العرش .

فاتصلت بزميل أجنبى متضلع من هذه الشئون ، فأخبرنى بأن الشائعة على غير أساس ، إذ أن هذا المستشار قدم مدريد بسبب مرض أحد أقاربه ، فضلاً عن أنه ذو نزعة مناهضة للنظام القائم ، فمن المستبعد أن تجرى أية محادثات على يديه .

وسبق أن أخبر الأمير زميلى بأن ولديه يتلقيان العلم فى سان سباستيان ، فأجابه الزميل بأن فى ذلك خيراً لإسبانيا وللأسرة المالكة .

ويرى زميلى عدم احتمال عودة المطالب بالعرش فى الوقت الحاضر ، وذلك لأن للجنرال فرانكو مكانة مكينة فى نفوس الشعب ، وأنه ما دام الشعب راغباً فى الملكية ، فلا بد من إيجاد حل آخر .

١٦ ـ رأى زميل عسكرىّ فى الصراع القائم :

إنه زميل لإحدى دول أمريكا اللاتينية ، العسكرية مهنته ، واختاره رئيس دولته ليمثله دبلوماسياً ، فوجدت فيه خير معين للاستشارة فى الشئون

الحربية ، ولا سيما أن العالم يرقص فوق أفران الطاقة الذرّية ، وهى تنذر بنفث الشعع الذرّية ، فتبدأ الحرب العالمية الثالثة المبيدة للمدنية الحديثة بل للبشرية .

فلما استشرته ، أفزعنى أن أفتى بأن الغرب قد أخطأ خطأ جسيماً فى إهماله تسليح إسبانيا للآن ، وفى إضعاف بلاده اقتصادياً ، مع العلم بأن القوات العسكرية فى أوربا متواضعة العدد وضعيفة إزاء مثيلاتها الشيوعية الضخمة القوية ، فلا تقوى على احتمال غزو شيوعى أكثر من بضعة أيام وأن هناك كتائب شيوعية فى فرنسا وإيطاليا ستسبب الانهيار السريع إذا ما جاء الغزو الشيوعى .

وأردف زميلى صراحته العسكرية بصراحة دبلوماسية ، قائلاً إن تسلطيتى الدولار والإسترلينى ، والتسلطية الشيوعية ، متشابهتان فى أنهما كارثتان على الإنسانية .

١٧ – نظرة لقائد إسبانى :

كانت حلقة تتكون من قائد إسبانى عظيم وملحق عسكرى لدولة كبرى وبعض الزملاء الأجانب ومنى ، فقال القائد إن الحالة فى كوريا خطيرة ، وإن كثرة العدد لا تزال عاملاً هاماً فى الحروب ، وإذا

ما قرر الغرب الانسحاب من كوريا ، فسيتشدد ستالين فى طلباته بشأن فرموزا واليابان .

وقال الملحق العسكرى إن قوات الغرب هناك يجب أن تعزز وأن تستعمل القنبلة الذرية . فخالفه القائد فى ذلك مجيباً بأنه إذا كان المراد إلقاء القنابل الذرية ، فلتلق على موسكو ، الرأس المدبر ، وأنه ينبغى ألاّ تستنزف دماء قوات الغرب فى ميادين ثانوية . فإن الاتحاد السوفيتى يرمى إلى إعداد جنود بلاد أخرى ودفعها لكى يقاتلوا أعداءها ، فتبقى قواته مصونة متزايدة ، فيسهل عليه القضاء على غرمائه .

أما فى غرب أوربا ، فيرى القائد أن قوات الغرب ضعيفة ، ولا تستطيع مقاومة الجحافل الشيوعية ، ولا سيما فرنسا وإيطاليا وفيهما الشيوعية متغلغلة ، فقد علم أنه حدث فى بلدة پيرپنيون ، الواقعة فى جنوب فرنسا بالقرب من الحدود الإسبانية الشمالية الشرقية ، أن خرجت قوة عسكرية فى مظاهرة رافعة العلم الأحمر ، ولم تبد السلطات المحلية حراكاً ، فإذا وقع غزو فإن الجيوش السوفيتية لن تقف إلاّ أمام جبال بيرينه ، فإن تركت أمريكا إسبانيا من غير أن تسلح تسليحاً حديثاً ، فستدافع قوات بلاده دفاعاً مستميتاً حتى تفنى عن آخرها .

وأسرّ إلىّ القائد أنه كان يعمل مع الجنرال فرانكو فى الحرب الأهلية ، فكشف له أفاعيل الشيوعية وخططها ومراميها ، فتحقق كل ما تنبأ به عقله

الكبير ، فأثبتت الأيام بأنه موهوب ، ذو نظر ثاقب يخترق حجب المستقبل .

١٨ ـ مشكلة جبل طارق :

فى أواسط ديسمبر سنة ١٩٥٠ ، قام الطلبة بمظاهرات فى شوارع مدريد ، مطالبين بجبل طارق ، وهاجت الخواطر ، وخيف أن يتفاقم الأمر ، ويصطاد المغرضون فى الماء العكر ، فأدلى الجنرال فرانكو بتصريح إلى رئيس تحرير صحيفة « إريبا » ، لسان حزب الفلانخ ، ناشد فيه الطلبة بأن يلتزموا الهدوء ، حتى لا يفسدوا مطلبهم الأسمى ، وأنه يؤيد مطلبهم برد جبل طارق إلى إسبانيا ، وفاءً بالوعد الذى أعطى فى الحرب العالمية الثانية . ولا فائدة حربية لهذه القلعة ما دامت إسبانيا غير صديقة لبريطانيا ، وستبقى كذلك ما بقيت القلعة فى غير أيدى أصحابها . ولا يشرّف بريطانيا التمسك بها ، ولا تستأهل قيمة هذه القلعة فى نظر إسبانيا أن يثار من أجلها قتال ، إذ ستسقط من تلقاء نفسها يوماً ما ، كما تسقط الثمرة عقب نضجها ، وأن على بريطانيا أن تفهم أن الحرب القادمة لن تكون مقصورة على دائرة ضيقة من الدول ، ولكنها ستشمل مجموعات من الدول . فمن الخير لها أن تنبذ السياسة العتيقة ، سياسة الأنانية ، وأن تتبع سياسة الصراحة ، فيكون هناك تعاون حقيقى .

وأبدى لى بريطانى مسئول امتعاضه من إثارة هذا الموضوع ، فإن

بريطانيا لن تترك هذه القلعة لأهميتها الحربية الكبرى . فلها مصالح فى البحر الأبيض المتوسط ، وفى بترول الشرق الأوسط ، وفى الهند ، التى زادت علاقاتها ببريطانيا بعد استقلالها أكثر من ذى قبل ، فضلاً عن أن هذه القلعة هامة بالنسبة لمرور القوات المعادية . على أن إثارة هذا الموضوع سيغضب المحافظين ، وهم من دعاة التقرب من إسبانيا ...

* * *

وهكذا تسيِّر المصالح دائماً الدول . وفى سبيلها تبرِّر جميع الوسائل . وأما علاقات بريطانيا بالهند وغيرها من البلاد التى ذاقت طعم الاستقلال ، فإنها تلقى مسئوليات جدّ خطيرة على عاتق بريطانيا ، فقد انطلقت الطيور الحبيسة من أقفاصها المحطمة إلى الفضاء ، فاشتدت قوادمها وخوافيها ، فصعب على الصياد الماهر بل استحال عليه أن يحصر الجواء التى تستطيع فيها الطيران ، وقد أخذت تضرب بأجنحتها القوية فى الأهوية ، التى تلائمها وترتضيها وتشعر بالدفاءة فيها .

١٩ ــ المأزق الدبلوماسى :

إنه زميل ، قائم بأعمال بعثة دبلوماسية لإحدى دول أمريكا

اللاتينية، قد أسرّ إلىّ بأن حكومته طلبت منه، أن يبلغ الحكومة الإسبانية أن دولته ستصوّت في صالحها في الجمعية العامة للأمم المتحدة. عند ما يعرض إلغاء قرار الجمعية العامة الصادر في سنة ١٩٤٦ بشأن سحب السفراء والوزراء المفوضين.

فقام الزميل على الفور وفي ابتهاج بإبلاغ ذلك إلى الحكومة الإسبانية. حتى يحملها الجميل.

غير أن الزميل فوجئ عند صدور القرار، بأن دولته امتنعت عن التصويت، فألفى المسكين نفسه في مأزق حرج معيب.

فاستفسرت من الزميل السبب في هذا التطور الفجائي دون مبرر أو إخطار، فأجاب في صوت حزين، بأنه لا يدرى، ولا بدّ أنه قد وقع ضغط على ممثل دولته في الجمعية العامة، عن طريق الإغراء الأدبي أو المادي، فسلك هذا المسلك الغريب.

وبادرت دولة الزميل بتعيينه وزيراً مفوّضاً لها بمدريد. علها تخفف من وطئة الخجل.

٢٠ ـ هدايا الأعياد:

إنه بمناسبة أعياد الميلاد ورأس السنة الميلادية، يهدى وزير الخارجية إلى كل من السفراء، صندوقين كبيرين من الخمور الإسبانية العتيقة،

وصندوقاً منها إلى كل من الوزراء المفوضين .

فتلقيت الهدية القيمة شاكراً ، وازدانت بها كؤوس المائدة فى الولائم ، ونابت عنى ألسنة الضيوف فى التعبير عن حلو المذاق وعلوّ التقدير .

ويتبادل القوم هدايا من علب الحلوى اللذيذة أو الخمور الفاخرة ، وذلك علاوة على بطاقات الزيارة والمصوّرة ، وقد نالنى من هذه الهدايا القيمة فيض عميم ، ورددت عليها ، غير أنى لم أستطع أن أجارى القوم فى كرمهم .

وهكذا انفردت إسبانيا فى الغرب بعادة تشف عن الجود ، والبعد عن الأنانية ، فاحتفظت بتراث تليد ، فى زمان انمحى فيه القديم ، وغمرته المادية .

٢١ – مع فيلسوف إسبانى :

قرأت القليل لبعض فلاسفة الغرب القدماء والمعاصرين ، فى مختلف النواحى الفلسفية فى الفكر والاجتماع والسياسة والعلوم ، مما جادت به العقول العبقرية ، وكانت القراءة ممتعة ، ولكنها بعيدة الغور ، فيجدّ العقل حتى يستخلص فى صعوبة بعض أسرارها .

فكان بودى لو أتيح لى أن أقابل أحد هؤلاء من الأحياء ،

وكم كانت المخيلة تصوّر لى العبقرىّ إنساناً غير عادىّ ، شاذّاً فى ملبسه ومشربه ومعيشته ، لا يسير على الأنماط المعتادة ، ويحتاج إلى شخص يتولى تدبير شئون معاشه ، حتى يتفرّغ عقله العبقرىّ بكلياته إلى أداء رسالته ، فكثيراً ما أعاقت هذه الشئون العقل المفكر عن العمل ، فأصابت الجسم بالضعف والمرض ، وقضت عليه قبل الأوان .

ولم أسمع من قبل أن بإسبانيا فيلسوفاً عالميًّا معاصراً لا يزال حيًّا ، وعلمت من بعض علماء القوم ومثقفيهم ، أنهم فخورون بأن إسبانيا أنجبت فيلسوفاً يدعى خوسيه [1] أورتيجا وجاسيه José Ortega gasset وهو فى الحلقة السادسة ، سبق أن درس فى ألمانيا ، وله مؤلفات كثيرة ، ترجمت إلى عدة لغات ومنها اليابانية ، ومن أشهر كتبه « ثورة العامة » .

وكان هذا الفيلسوف ثائراً على النظام الملكى ، ومنادياً بقيام النظام الجمهورى ، بل كان ثائراً على الثائرين الوطنيين .

وكان يشغل كرسى أستاذ الفلسفة فى جامعة مدريد ، ولكنه هجره وبلاده من تلقاء نفسه ، وراح يتنقل فى خارج وطنه بين أمريكا وأوربا ، حتى حطّ به الرّحال فى البرتغال ، ورفض أن يتقاضى مرتب منصبه ، الذى ظلّ شاغراً محجوزاً باسمه ، واستعطفه أولو الأمر لكى يقبل شغله

---

(١) نعت الصحافة المصرية والعالمية هذا الفيلسوف بمدريد فى أكتوبر سنة ١٩٥٥ عن ٧٢ عاماً .

اسمياً على أن يستمر فى رحيله كما يشاء ، فأبى ، وفضّل أن يعيش مع عبقريته حرًّا طليقاً ، هانئاً بما تجود به ثمرات عبقريته .

ورماه خصومه بالإلحاد ، وأكد مريدوه ، وهم كثير ، إيمانه بالكاثوليكية .

وكنت مدعوًّا عند أحد العلماء الأفذاذ بمدريد فى آخر سنة ١٩٥٠ ، وقابلت من حسن حظى هذا الفيلسوف العالمى ، فإذا به رجل ربع ، حليق الشارب ، عيناه دائمتا الحركة وسط إشعاع يدلّ على الذكاء الخارق ، مرح ، أنيق فى ملبسه ، متواضع ، يلبس رباط الرقبة على شكل الفراشة .

وسرعان ما انطبع فى مخيلتى أن هذا الفيلسوف واقف على منصة ، فطفقت أرفع إليه البصر . تاركاً إياه يتكلم فى إسهاب ، منتهزاً فرصة إطراقه لكى أسأل وأفوز برأى العقل العبقرى .

فسألته رأيه فى النزاع الدولى القائم بين مذهبى الشيوعية والرأسمالية ، وما نتيجته ؟

فأجاب بأنه لا يرى أن هناك نزاعاً بين مذهبين ، ولكن هناك نزاعاً بين كتلتين من البشر ، تريد كل منهما السيطرة على الأخرى ، إحداهما كتلة روسيا السلافية ومعها آسيا المغولية ، والأخرى كتلة أوربا وأمريكا ، وتحتاج الكتلة الأخيرة إلى حاكم قوى الشخصية ،

يسيطر على شعوبها ويقودها .

وهنا مسّ الفيلسوف روح فلسفته ، التى تنادى بأنه ينبغى للعقول العادية ، وهى الكثرة ، أن تنقاد للعقول الموهوبة ، وهى القلة .

ويرى الفيلسوف أنه من المنتظر أن تتخلى أمريكا والمملكة المتحدة قهراً عن نزاعهما فى كوريا وفورموزا واليابان والهندالصينية والهند وكذا آسيا بأجمعها ، فإن الجحافل الصينية الهائلة العدد، ستسحق أمامها كل قوة ، وإنه من المغالطات السياسية الظهور بمظهر القوى ، فتعلن بريطانيا وأمريكا على لسانى المستر أتلى ، رئيس وزراء بريطانيا ، والرئيس ترومان ، أنهما لن تتخليا عن كوريا وفورموزا .

وذكر الفيلسوف أن الحالة الاجتماعية فى إيران خطيرة ، إذ قرأ فى بعض الصحف الأمريكية ، أن هناك طبقتين : طبقة الأغنياء ، وهم ذوو ثراء ضخم ، يملكون الآلاف من المدن والقرى ، ويقاس ثراء الواحد منهم بعدد ما يملك منها ؛ وطبقة الفقراء المعدمين ، وهم يتضوّرون جوعاً ، ولذلك فإن الشيوعية ستلتهم إيران التهاماً .

وأضاف أن هناك تياراً شيوعيًّا يسرى فى إسبانيا والبرتغال ويعمل فى الخفاء ، ولكن نظامى الحكم فى هاتين الدولتين متشابهان ، وهما جديران بأن يقفا هذا التيار عن السريان .

وسألته ، بمناسبة ذكر البرتغال وإقامته فيها ، عن المستوى العلمى هناك

فأجاب بأنه يوجد فقط شعراء وأدباء ، أما فى الميدان العلمى ، فالمستوى عادىّ ، وقد يجهل بعض المفكرين البيئات العلمية فى العالم .

وسألته عن أيهما أذكى : الرجل أم المرأة ؟ وما مدى نفوذ المرأة فى الرجل ؟

فأجاب فى ابتسامة هادئة ، بأنه من مصلحة المرأة ألاّ تعرف ضعفها فى الذكاء بالنسبة للرجل .

وأما نفوذها فى الرجل فقوى ، إذ تستخدم قوة ضعفها فتفوز بسيطرتها عليه .

ثم تناول الحديث طريقة إكرام العرب للضيف بتقديم القهوة عدة مرات ، فقال الفيلسوف : إن هذه العادة كانت متبعة فى أمريكا الجنوبية ثم اندثرت ، وإنه كان يراد بها عند العرب استدراج الضيف ثم الانقضاض عليه وقتله ! ! !

فأجبته بأن تقاليد العرب منذ القدم إلى الآن ، تقضى بإكرام الضيف وتأمين سلامته ، وهم مشهورون بذلك .

ولاحظت أن هذا الفيلسوف أشعل عود الثقاب أثناء كلامه ، ونسى أن العود مشتعل وكاد يحرق أصبعه ، فأطفأه فى آخر لحظة ، وظن أنه قد أشعل لفافة التبغ ، فأخذ يدخنها من غير أن يحس بأنها غير مشتعلة ، فعاد إلى إشعالها ، ولكنها لم تشتعل تماماً ، فنسى أيضاً أنها مطفأة ، فكرر

العملية فى فترات .

وحكمت عليه أنه فيلسوف حقًّا ، فقد طغى عقله الجبار ، فلم تقو حواسه على أن تؤدى عملها .

وتبينت أنه لا يدرك أنه فيلسوف ، ولكن أهل الفكر فى العالم يدركون ، وسيقدره خصومه بعد وفاته .

وهكذا وُفقت النفس إلى ما كانت تصبو إليه فتتخيله ، فطابقت الحقيقة الخيال .

٢٢ ـ لوحتان قديمتان :

تبين لى عقب وصولى إلى مدريد ، أن دار السفارة تضيق بالمكاتب ، فطفقت أبحث عن دار أوسع ، فسنحت لى الفرصة لكى أشاهد مجموعة من القصور الفخمة ، فوقفت على جانب من عظمة إسبانيا فى أوجها ، وتستحق هذه القصور أن تصبح متاحف ، وقد فطن بعض أربابها إلى ذلك ، فأوصوا بها للدولة .

وأسفت أن الحرب الأهلية قضت على كثير من القصور وما بها من تحف نادرة .

وأخبرنى أحد الأشراف ، أن القصر الذى ورثه وإخوته عن أبيه ، كان يعمل فيه أربعون خادماً ، أما الآن وقد ارتفع مستوى المعيشة فارتفعت

تباعاً أجور الخدم ، فلا يستطيع الورثة مجتمعين الإنفاق على ربع هذا العدد ، ولذلك فإنهم سايروا التطور العصرى ، وعرضوا القصر للبيع ، واستأجر كل منهم شقة فى صرح ، مكتفياً بخادم واحدة ، تساعدها الزوجة .

وقد تفضّلت سيدة شريفة بدعوتى وزوجى إلى مأدبة عشاء فى قصرها الفخم ، ففزت برؤية لوحة حية لأحد هذه القصور .

وكان قصر السيدة الداعية يزخر بالطنافس الإسبانية الثمينة ، واللوحات النفيسة من زيتية ومائية ورصاصية وقد أبدعها كبار الفنانين ، والأوانى الخزفية والبلورية الجميلة ، والثريات الإسبانية البديعة تتلألأ فى السقوف ، والسجادات « الجوبلان » تبدو فى جدران القاعات صوراً باهرة ، والستائر المخملة ذات اللون الأحمر تستر النوافذ الشامخة كالبراقع الجذابة ، والمرايا الإسبانية البلورية منثورة على الحياط تزيد الأضواء لمعاناً لجودة صقلها وتعدّد أضلاع بلورها .

وازدانت مائدة الطعام بأطباق من ذهب وفضة ، وكؤوس بلورية فاخرة قد تلوّنت من الراح بألوان مختلفة زاهية ، فأنعست العيون ، مما حدا بالفم أن يجارى العين فى التمتع بالنظر إلى الطعام الفاخر ، وأما السمع فقد سعد بالاستماع إلى الأحاديث الرقيقة عن أحدث طرز للثياب والقبعات ، ومباهج المشاتى والمصايف فى خارج

إسبانيا ، وبعض النوادر عن العواطف وفلسفتها ، وبضعة أنباء عن مصاهرة الأسر الراقية .

وكل ذلك فى أنوثة ورقة وأناقة . فأغمضت العين لحظة سبح الفكر فترة فى الماضى الجميل . فاستعذبت النفس الكسل والترف ، ثم سرعان ما انفتح الجفن ، فعادت إلى الكدّ . تنشد فترات الراحة فتستعذبها .

ووُفقت إلى رؤية لوحة ثانية حية ، فزرت أحد الأشراف ، زانه العلم . فلم يضعفه الثراء ونبالة المحتد وبيئة الدّلاعة والدّلال ، وفاز بشرف العلم ، وهو شرف العصر الحديث . فجالس العلماء ، وصادق الحكماء . وشجع العلم والفنون ، وقد أخذتُ بما أظهره من رجاحة العقل ، وسعة الاطلاع ، وبما لديه من التحف النادرة الفاخرة .

تحدث إلىّ فى طلاقة ومنطق سليم ، قائلاً إنه بالرجوع إلى التاريخ يتبين أن القوة والمال والحنكة السياسية ، عناصر أساسية لازمة لقيام الإمبراطورية والملك العريض ، كما حدث فى بريطانيا فى عهد الملكة فيكتوريا ، فإذا ما نقص أحد هذه العناصر ، كان الزوال مؤكداً ، كما وقع لإسبانيا فى القرن السادس عشر ، عند ما كانت غنية بمستعمراتها الشاسعة ، وإن الحال الآن كذلك بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية فإن لديها القوة والمال ، ولكن تنقصها الحنكة السياسية ، ولذلك فإنها تخفق

فى سياستها ، فهى ترمى إلى أن يسيطر دولارها على العالم . فلا تقوى على ذلك .

وقال إن قائداً بريطانياً أفضى إليه فى سنة ١٩٥٠ بأنه إذا مات ستالين ، فلا أمل فى أن يحدث انقلاب فى النظام الشيوعى القائم فى الاتحاد السوفيتى ، إذ أن حوله جماعة من الشيوعيين الأقحاح ، الذين يسيرون دفة السياسة ، بل يسيرون ستالين نفسه .

وعلق الشريف العالم على ذلك ، بأن هناك رأياً مخالفاً يقول : إن فى الاتحاد السوفيتى حركة تذمر خفية من جراء الحجر على الحرية ، فالروسى ، بالرغم من أساليب التنشئة والزجر والإغراء ، توّاق إلى الحرية ما دام فى رأسه عقل يفكر . وإن كثيراً ممن زاروا الروسيا ، لم يستطيعوا أن يتصلوا بالشعب ، ولكنهم شاهدوا الحزن بادياً فى ملامح وجوه بعض النظارة بالمسارح ، وفى عيون المارة فى طرقات موسكو . وهو حزن دفين ، لا تستطيع الأفواه أن تبوح به خشية البطش ، فسرى فى أسارير الوجوه ونظرات العيون ، يبث شكواه وأنينه ، إلى أن تدق الساعة فيخرج الدفين .

وروى الشريف العالم أن الشيوعيين فى الحرب الأهلية الإسبانية ، أنزلوا أشد العذاب بكل من كان ضدهم ، وكان هناك جنود شيوعيون من الاتحاد السوفيتى يحاربون فى صفوفهم ، فوقع أحد هؤلاء الجنود فى الأسر فى يد الوطنيين ، فلما استجوب ، أفاد بأنه جاء مكرهاً ليحارب فى إسبانيا

وأنه لا يعرف هذه البلاد ، ولا يضمر لها السوء ، ولا يدرى السبب الذى من أجله يحارب ، وأنه يفضل البقاء فى الأسر على العودة إلى وطنه ، الذى لا حرية فيه .

لقد فزت بما كنت أتوق إليه ، فعشت فترة قصيرة أمام لوحتين حيتين ، تمثلان أبهة الماضى وبذخه وزخرفه ، وهما لوحتان نادرتان فى عصرنا الحاضر ، ولا يمكن أن تشاهد نسخ منهما إلا فى السينما والمتاحف .

٢٣ – الكتيبة الخامسة « La Cinquième Colonne » :

إنه فى أثناء الحرب الأهلية (١٩٣٦ – ١٩٣٩) ، كان الجنرال فرانكو يزحف على مدريد بأربع كتائب ومن أربع جهات ، وكانت هناك فى داخل مدريد حركة مقاومة خفية قوية مشايعة له ، فكان التيار المناوئ للشيوعية قوياً ، وعدد أنصار الحركة الوطنية كبيراً وفى ازدياد مطرد ، ويرمى الهدف الرئيسى إلى إسقاط العاصمة ، حتى يستتب الأمر للوطنيين بقيادة الجنرال فرانكو ، وينتهى حكم الشيوعية الرهيب .

ولذلك طفق الجنرال كيبو دو إيانو « Le général Queipo de Llano » وهو من أنصار الوطنيين ، يذيع بالراديو من إشبيلية ، بأن الجنرال فرانكو يزحف على مدريد بخمس كتائب ، منها أربع فى خارج مدريد ، والخامسة ترابط خفية فى داخلها تعمل سراً مع الكتائب الأربع الزاحفة ،

فكأن هجوم المغير واقع من داخل العاصمة وخارجها .

وأفلحت الخطة الإسبانية المبتكرة فى انهيار مقاومة العاصمة وسقوطها فى أيدى الوطنيين .

ومنذ ذاك الوقت ، ذهبت عبارة « الكتيبة الخامسة » مثلاً فى المحيط الدولى ، يطلق على كل مهاجم أو تيار ، له قوة مقاومة خفية فى داخل ميدان خصمه ، سواء أكان ذلك فى الحروب أم فى السياسة أم فى غيرها .

٢٤ ـ فى آداب المجتمع :

تمتاز إسبانيا بمواعيد خاصة للأكل . فيقدم طعام الفطور فى الساعة العاشرة صباحاً ، والغداء فى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ، والعشاء فى الساعة العاشرة مساء ، وتقام حفلات الشراب فى الساعة الثامنة والنصف مساء .

ويمرّن الدبلوماسى الصالح نفسه على أن يعتاد هذه المواعيد ، فلا يدع لها مجالاً للتذمر ، حتى لا تفسد عليه صحته ، وكذا الجوّ الذى يعمل فيه . ومن الميسور أن يفعل ذلك ، إذ أن معدته اعتادت الأكل فى غير المواعيد ، وتناول الوجبات اللذيذة المذاق ، المتعددة الأصناف .

وجرت المراسم هنا على أنه فى حفلات العشاء التى يقيمها دبلوماسيون ، تلبس غالباً بذلة السهرة الصغرى (السموكن) ، وإذا كان وزير الخارجية

مدعواً ، فتلبس بذلة السهرة الكبرى (الفراك) .

وتقضى آداب المجتمع بأن يبعث المدعو بباقة من الورد مصحوبة ببطاقة زيارته إلى زوجة الداعى فى يوم الدعوة ، فتشكره الداعية شفهياً فى الحفلة ، كما تبعث إليه فى اليوم التالى ببطاقة زيارتها ، تحمل شكرها على هديته ، وتُرسل هذه البطاقة بالبريد أو مع رسول .

وفى المآدب تدفع خفارة الأنوثة الإسبانية السيدات الفضليات عقب تناول الطعام ، إلى أن يجتمعن معاً فى أحد الأركان ، وينتحى الرجال جماعات أركاناً أخرى ، وذلك للسَّمر واجتذاب أطراف الحديث ، كل جنس على شاكلته ، فيحلو الحديث ويطيب السّمر .

٢٥ ـ إسبانيا والأمم المتحدة :

أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤٦ قراراً بأن جميع أعضاء الأمم المتحدة تسحب على الفور سفراءها ووزراءها المفوضين من مدريد ، وأن تمنع حكومة فرانكو من عضوية الوكالات التى أنشأتها منظمة الأمم المتحدة ، أو التى لها علاقة بها . وتضمن القرار المذكور تهديداً بأنه إذا لم تؤلف فى إسبانيا وفى مدة معقولة ، حكومة منتخبة بإرادة الشعب ، فعلى مجلس الأمن أن يتخذ الإجراءات اللازمة لمعالجة الموقف .

فإذا ما نفذت الدول الأعضاء هذا القرار ، وسحبت سفراءها ووزراءها المفوضين ، بقى التمثيل الدبلوماسى فى يد قائمين بالأعمال بالأصالة أو بالنيابة .

ولا ينطبق هذا القرار على مصر ، لأنها كانت وقتئذ ممثلة بقائم بأعمال أصيل ، وكان بدرجة مستشار . وقد نُقل فى حركة دبلوماسية ، عفواً أو قصداً ، وظل مكانه شاغراً ، وتركت البعثة الدبلوماسية إلى دبلوماسىّ بدرجة صغرى بصفة قائم بأعمال بالنيابة لمدة تزيد على السنتين .

ولم تسحب إسبانيا وزيرها المفوض من مصر ، أسوة بما اتبعته إزاء الدول التى سحبت سفراءها ووزراءها المفوضين ، تطبيقاً لمبدأ المجازاة بالمثل .

وقامت كل من مصر وإسبانيا فى سنة ١٩٤٩ برفع مفوضيتهما بالقاهرة ومدريد إلى سفارة ، وقدم وزير إسبانيا المفوض بالقاهرة أوراق اعتماده كسفير ، وعينت مصر سفيراً ، ولكنه لم يسافر إلى مدريد وأحيل إلى التقاعد ، وكان من حظى الحسن أن عينت أول سفير لمصر لدى إسبانيا وقدمت أوراق اعتمادى فى ١٥ يولية سنة ١٩٥٠ .

ولما كانت السياسة العليا تسبح فى جو من الغموض يخفى على كل من يعمل فيه ، فلا تتكلم الأفواه إلا همساً ، ولا تتحرك الرؤوس إلا

تأييداً ، ولا تنطق الألسنة إلا مديحاً وتكبيراً ، فإن الدبلوماسيّ التائه لا يستطيع السؤال خشية أن يرمى فى ذكائه أو إخلاصه أو بالتدخل فيما لايعنيه ، فلاذ اللسان بالصمت قبيل رحيلى من مصر ، وسبح العقل الحائر فى هذا الجو الحالك ، علّه يستبين بصيصاً خفيفاً من النور ، فخالجته الفروض التالية :

(ا) هل أرادت مصر أن تثأر لنفسها من منظمة الأمم المتحدة ، إذ ناصر مجلس الأمن القوة على الحق فى شكوى مصر ضد بريطانيا فى سنة ١٩٤٧ ، فلم يتخذ قراراً عادلاً ، بل خشى الحق ووضع الشكوى على الرّفّ ؟

(ب) هل انتهزت مصر الفرصة لكى ترد على منظمة الأمم المتحدة ، التى خذلت البلاد العربية فى منع عدوان إسرائيل على فلسطين ، وناصرت الصهيونية الأجنبية المعتدية على العروبة ، الطريدة من وطنها ، العارية إلا من الكرامة والإباء وقوة الإخاء ؟

(حـ) هل رسمت مصر سياسة دولية ضد العدوان الإسرائيلى ، فأرادت أن تستجلب إسبانيا إلى صفوف العرب فى كفاحها ضد إسرائيل ، فتصل عن طريقها ومنزلتها الروحية إلى أن تفوز أيضاً بعطف الجمهوريات الأمريكية اللاتينية وتأييدها ؟

(د) هل وضعت مصر سياسة إقليمية خاصة بمنطقة البحر الأبيض المتوسط ، ترمى إلى إنشاء حلف من دول هذه المنطقة ، وتكون إسبانيا من أعضائه البارزة ؟

وازداد العقل حيرة أمام هذه الفروض حتى تاه فيها ، وأخذت الحسرة تحز فى النفس كلما تذكرت الزملاء الأجانب ، فإنهم يعملون فى النور ، وفقاً لخطة مرسومة ، وهدف معلوم . فإن لم يستطع أحدهم تنفيذ الخطة وبلوغ الهدف . تنحى عن منصبه من تلقاء نفسه وفى سرور لكى يحلّ محلّه من هو أجدر منه للقيام بهذا العبء .

ومهما تكن الفروض والبواعث . فإن هناك نتيجة ملموسة ، فقد قامت مصر بمخالفة قرار الأمم المتحدة . ورفعت مفوضيتها إلى سفارة ، وأوفدت سفيراً إلى مدريد . وإن جاء الإيفاد متأخراً . فإنه يعتبر جميلاً من مصر . تأبى نبالة إسبانيا إلا أن تقدره وتحفظه .

ورحت أستقصى سبب استصدار هذا القرار الدولى القاسى ، الذى حكم على إسبانيا بالمنع من منظمة الأمم المتحدة عقب الحرب العالمية الثانية ، فحرمها التمتع بالعمل مع مجموعة الأمم فى العهد الدولى الجديد، الذى يأمل فيه الساسة أن يكون عهد وفاق وسلام وإخاء وتسامح ، كما حرمها أيضاً الميادين الدولية الاقتصادية والمالية والعلمية . فأوقعها فى ضيق اقتصادىّ قاسٍ .

ورجعت إلى قراءاتى ، فتبين لى أن الباعث الأكبر فى انتهاج هذه السياسة العدائية ، هو الدبلوماسية السوفيتية .

وكانت إسبانيا ، ولا تزال ، حصناً منيعاً للكاثوليكية فى أوربا ، وقد ساعدتها طبيعة أرضها الهضبية على أن تعزلها عن أوربا ، فبقيت الكاثوليكية سليمة ، ونشأ الإسبانىّ متديناً متعصباً لمذهبه الكاثوليكى .

واجتاحت الشيوعية دول أوربا ، ووجدت فى إسبانيا مناعة الدين حائلاً دونها ، ولكن عوامل الهدم لم تيأس ، فراحت تركز هجومها فى المناطق الصناعية ، فى شمال إسبانيا وشرقها ، حيث يكثر العمال ، ولم تتوان عن بث الدعوة بين الزّارعين ، ولكنها أخفقت فى البيئة الزراعية ، فإن الزارع الإسبانى قنوع ، يكتفى بالقليل ، وإذا ما حصل عليه ، فلن يطلب المزيد .

وقد روى لى زميل أجنبى ، أن له مواطنة متزوجة من إسبانى غنىّ ، يملك ضَيعةً كبيرة ، ويتولى راع ماشيته يسرح بها طول النهار ، ويستلقى على رابية فى ظلال شجرة وارفة ، ويطلّ على المرعى ، ويمضى أكثر وقته ينفخ فى مزماره ، عازفاً قطعاً من الأغانى والرقصات الشعبية . فإذا حل الغروب ، عاد طروباً بالماشية ليدخلها إلى الحظيرة ، ثم يأوى إلى داره الصغيرة بالضيعة ، حيث يلتقى بأسرته المكونة من زوجة وولدين .

وكانت زوجة الغنىّ ترقب هذا الراعى كل يوم ، وأعجبت به لأنه فنان بطبعه ، يبعث من مزماره بنغمات حلوة مريحة . فأرادت أن تشجعه فتكافئه بعمل إضافى ، فيضاعف أجره ، فاتفقت مع زوجها على إنشاء حديقة حول الدار . ويتولى الراعى شئونها ، فاستدعت الراعى وزفت إليه البشرى . فما كان منه إلا أن أظهر لها دهشته . قائلاً إن أجره يكفيه وأسرته ، وإنه لسعيد أن يمضى وقته فى الفضاء وبين المروج ينفخ فى مزماره . ويبثّ فى الهواء نغمات شجية ، تهنأ بها نفسه ، وتطرب لها الماشية . فاعتذر لها من عدم إمكانه القيام بأىّ عمل إضافىّ يحرمه ما هو فيه من سعادة .

فارتج على زوجة الغنى . وبهرتها قناعة الراعى فى وقت سيطرت الآلية على جهاز المعيشة ، فتدفع النفوس الكادحة إلى زيادة العمل حتى تتمتع بمباهج العصر الآلىّ .

فزادت السيدة أجره فى خفاء خشية أن تجرح إحساسه .

ولذلك ركزت الشيوعية جهودها فى المناطق الصناعية . ونجح أعوانها فى إقناع بعض الإسبان بالسفر إلى روسيا . وتلقى المبادئ الشيوعية ، حتى إذا عادوا كانوا أعواناً لها فى تنفيذ هذه المبادئ بالقوة .

وضاعفت الكنيسة جهودها ، حتى لا تقضى موجة الإلحاد على النفوس الكاثوليكية الآمنة .

ودأبت عناصر الهدم تعمل ، وما أسهل الهدم ! ! وما أصعب البناء ! ! فقامت الحرب الأهلية (١٩٣٦ – ١٩٣٩) ، وكانت ميداناً من جحيم ، تتطاحن فيه عوامل الهدم والبناء ، فذاق أنصار البناء ألوان العذاب من شياطين الهدم ، فقتل الكثير من رجال الدين ونسائه ، ونهبت الكنائس والأديرة ، وأحيلت دور العبادة إلى حظائر ، وفتك بكل ذى عقيدة بالقتل والتعذيب والرفت ، وسلبت الأموال من الأثرياء والتجار والمصارف ، وأزهقت الأرواح لأدنى شبهة أو فرْية ، كنقل وشاية بقراءة صحيفة فى السر موالية لأنصار البناء ، وفقدت إسبانيا أكثر من مليون من زهرة شبابها .

وتولى الجنرال فرانكو قيادة معسكر أنصار البناء ، وهم من الريكيتيين والكاثوليكيين والملكيين والفلنخيين ، الذين اندمجوا وأطْلِق عليهم الوطنيون أو الفلنخ الإسبانى التقليدى .

وكان معسكر الهدم يضم الشيوعيين والفوضويين والبنائين الأحرار .

وتلقى الوطنيون المعاونة من ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشستية ، فقد كان هتلر وموسولينى عدوين لدودين للشيوعية ، ولا يرغبان فى قيامها فى إسبانيا وبالتالى فى البحر الأبيض المتوسط وبخاصة فى مدخله الغربى ذى الموقع الحربى الهام .

وتلقى المعسكر الشيوعى المعاونة من البلاد المناوئة لمحور روما – برلين ولا سيما من الاتحاد السوفيتى وفرنسا ، التى آوت عدداً كبيراً من الشيوعيين

الهاربين من الإسبان ، وأبقتهم على حدود جبال بيرينه ، فكانوا مصدراً دائماً للقلق والاضطراب .

ودامت الحرب الأهلية فى قسوة ووحشية حوالى أربع سنوات ، وما أبشع أن يقاتل المواطن أخاه ، وأن يهدم كيان وطنه بنفسه ! ! وانتهت المأساة بنصر الوطنيين ، وهروب أنصار الشيوعية إلى الخارج ، فأخفقت محاولة السيطرة الشيوعية على إسبانيا .

وألّف أنصار الشيوعية من الإسبان فى الخارج حكومة فى المنفى بباريس ، ثم انتقلت إلى المكسيك ، وأخرجت معها الرصيد الذهبى ، وتركت وراءها الخزانة العامة خاوية للوطنيين . ثم تلاشت الحكومة الصورية .

وأدّى عداء إسبانية للشيوعية إلى الانتقام من الاتحاد السوفيتى ، فلما قامت الحرب العالمية الثانية ، كانت إسبانيا فى حالة إعياء تام مما أصابها من جراء الحرب الأهلية ، فلم تستطع الحراك ولكنها كانت حكومة وشعباً ، تنادى بتأييد ألمانيا النازية ، وتؤكد نصرها . إلى أن أبرمت ألمانيا فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٩ معاهدة عدم اعتداء مع الاتحاد السوفيتى ، ففترت فى إسبانيا موجة التأييد لألمانيا ، فلما غزت ألمانيا الاتحاد السوفيتى فى ٢٢ يونية سنة ١٩٤١ عادت موجة التأييد الإسبانى أشد عنفاً وارتفاعاً ، فأدّت الحماسة إلى تشكيل الفرقة الزرقاء من المتطوعين . تحت قيادة الجنرال مونيز جرانده « Le Général Munez Grande » ، وحاربت فى صفوف

الجيش الألمانى ضد الاتحاد السوفيتى ، وتعللت الحكومة الإسبانية بأن هذه الفرقة من المتطوعين .

ولما أخذت دفة الحرب تسير فى اتجاه الحلفاء ، أفلحت الدبلوماسية البريطانية فى أن تسحب إسبانيا شراذم من الفرقة الزرقاء ، حتى تمّ سحبها بأكملها فى آخر سنة ١٩٤٣ .

وكان إيفاد الفرقة الزرقاء مما أوغر صدور رجال موسكو ، وحفزهم على الأخذ بالثأر .

وكان ديدن الغرب خلال الحرب العالمية الثانية مجاملة الاتحاد السوفيتى ، حتى يضمن دخوله فى الحرب ضد اليابان ، فيُقضى عليها كما قُضى على ألمانيا النازية . فكانت رغبات الاتحاد السوفيتى موضع التقدير والتأثير ، فلم يترك هذا الاتحاد اجتماعاً دوليًّا إلا وأثار فيه موضوع إسبانيا الفلنخية ، متعللاً بأنه ما دامت النازية والفاشستية قد قضى عليهما ، وهما النظامان الشبيهان بالفلنخية ، فلا بد من القضاء على النظام الشبيه ، حتى تنجو أوربا من خطر الفاشستية فى المستقبل .

وبدأت الاجتماعات الدولية تنعقد فى أوائل سنة ١٩٤٥ للنظر فى شئون ما بعد الحرب وأهمها إنشاء منظمة الأمم المتحدة ، وكانت الدبلوماسية السوفيتية ترمى إلى أن الأمم المتحدة تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع إسبانيا ، ولكن الدبلوماسية البريطانية المرنة قد أفسدت المرمى .

غير أن الدبلوماسية السوفيتية دأبت على العمل على إقصاء إسبانيا عن منظمة الأمم المتحدة المزمع إنشاؤها ، مع خنقها اقتصادياً . حتى تدبّ فيها الفوضى من جديد ، فتقع فريسة فى براثن الشيوعية . فوالت حملاتها فى مؤتمر سان فرانسسكو (أبريل سنة ١٩٤٥) . وفى مؤتمر بوتسدام (يولية سنة ١٩٤٥) ، وفى الدورة الأولى للجمعية العامة التى عقدت بلندن (نوفمبر سنة ١٩٤٥) . فنجحت فى حرمانها عضوية الأمم المتحدة ، وتمّ لها الفوز بقرار الجمعية العامة الصادر فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤٦ والمتقدم الذكر ، والخاص بسحب السفراء والوزراء المفوضين من مدريد ، وحرمان إسبانيا الفرانكية عضوية الوكالات الدولية .

وحاولت بعض دول أمريكا اللاتينية فى الدورة الخامسة للجمعية العامة للأمم المتحدة (سنة ١٩٤٩) ، أن تقترح إلغاء قرار الجمعية العامة المذكور ، ولكنها أخفقت ، فاستمرت الدبلوماسية السوفيتية فى فوزها .

ولما بدأت عملى الدبلوماسى بمدريد فى ١٥ يولية سنة ١٩٥٠ ، كان عدد السفراء ثمانية للدول التالية :

الفاتيكان والبرتغال ودومنيكا وبيرو وبوليفيا والبرازيل ومصر والأرجنتين مع العلم بأن الدولة الأولى ليست عضواً فى الأمم المتحدة . وقد أفرحت هذه القلة فى السفراء وزيراً مفوضاً معتمداً منذ عدة سنين ، فأضفت عليه تقدّماً فى الأسبقية فى الحفلات والمآدب الرسمية . فقد كانت كثرتهم

تطوّح بترتيبه بعيداً فى الأسبقية ، حتى لا يكاد يرى فى الحفلات .

ومما يدل على عداء إسبانيا السافر للشيوعية ، أنها لم تنشئ علاقات دبلوماسية مع الدول الشيوعية ، وأنها أكرمت وفادة بعض الدبلوماسيين والشخصيات العظيمة التابعين لهذه الدول ، وقد لجأوا إلى حماها ولم يرتضوا العودة إلى بلادهم ، ما دامت ترزح تحت نير الشيوعية ، وقد أسرّت إلىّ شخصية أجنبية من الحكام السابقين لإحدى هذه الدول ، أن دولة أوربية عرضت عليها الإقامة فيها ، فرفضت وفضلت الإقامة فى إسبانيا الطاهرة من وباء الشيوعية .

وتبين لى أن الدوائر الرسمية ترى أن قرار الجمعية العامة المتقدم الذكر ، قد صدر لاغياً ، لأنه يخالف صراحة أحكام ميثاق الأمم المتحدة ، إذ نصّ فى البند السابع من المادة الثانية على أنه لا يسوّغ للأمم المتحدة أن تتدخل فى الشئون التى تكون من صميم السلطان الداخلى لدولة ما ، ولا أن تعرض مثل هذه المسائل لكى تحلّ بحكم الميثاق . فضلاً عن أن إسبانيا كانت أول صخرة تحطمت عليها الشيوعية الدولية ، وكان على الغرب أن يكافئها على كفاحها المرير الذى هدّ كيانها ، ولكن الدبلوماسية السوفيتية خدعته بأنها عدلت عن بسط الشيوعية على العالم ، وقصرت نظامها على حدودها ، وستظهر له الأيام المقبلة هذه الخديعة ، وستثبت له أن سياسة إسبانيا الفرانكية كانت على صواب ، وسيلجأ إليها الغرب راغماً لكى تنضم

إلى صفوفه لإنقاذ العالم ، بل المدنية ، بل الإنسانية من كارثة عبودية الشيوعية .

وترى هذه الدوائر أن الأمم المتحدة قد ضربت على إسبانيا فوق الحصار الدبلوماسى حصاراً اقتصادياً ، مخالفة فى ذلك ما جاء فى مقدمة الميثاق ، من أن أداة الأمم المتحدة تستخدم فى ترقية الشئون الاقتصادية والاجتماعية للشعوب جميعها .

فتحملت إسبانيا ، حكومة وشعباً ، هذه الضربة القاصمة فى صبر وإباء ، وشدّ الناس الأربطة على بطونهم ، وأكلت الأفواه فى لذّة الخبز الأسود المتحجر ، وكان الجنرال فرانكو ، رئيس الدولة ، يشارك الشعب فى محنته ، فيأكل مما يأكلون ، فأتى بجديد ، بأن القادة على دين شعوبهم .

وظهر لى أن الدوائر الدبلوماسية ترى أن القرار المذكور يعتبر غلطة دبلوماسية ، وكان يجدر بالغرب ألاّ ينساق وراء الدبلوماسية السوفيتية ، وأنه إذا كان هناك نظام داخلى أحق بالتدخل ، فهو النظام الشيوعى ولا سيما فى البلاد التى أُدخلت قسراً فى داخل الستار الحديدى . ومع ذلك فالاتحاد السوفيتى والدول التى أدارها فى فلكه (ما عدا الصين الشعبية) ويوجوسلافيا أعضاء فى الأمم المتحدة ، ولذلك فإن حجة الغرب واهية . وكان من الخير للمنظمة الدولية الجديدة أن تبدأ بداية طيبة ، وإذا

حكمت بين الدول أن تحكم بالعدل ، حتى تكتسب الهيبة الدولية واحترام الشعوب ، فلا تسلك مسلك سابقتها عصبة الأمم . ولا شك أن أعضاء المنظمة ستستدرك هذا الخطأ ، وتعمل على تصحيحه .

وأحسست فى البيئة الاجتماعية حرارةً تصدر من قلوب عامرة بالكرامة ، ولمست فيها نفوساً تمتلئ حماسة للذّود عن الشرف الدولىّ وقد خدشه القرار المتجنى . وحدثنى أحد كبار الأشراف ، بأنه ملكىّ ، ولا يؤيد النظام الفلنخى ، ولكن إزاء هذا القرار الجارح للكرامة الإسبانية ، فإنه يؤيد النظام القائم بكل قواه ، ويقف وراء الجنرال فرانكو ، الذى أثبت أنه إسبانى وطنى صميم .

وقصت علىّ سيدة من الأشراف مأساتها التى وقعت لها خلال الحرب الأهلية من الجناة الشيوعيين ، فقد اقتحموا قصرها ، وقتلوا إخوتها الشبان ، واعتقلوها فى القصر واضعين إياها تحت حراستهم ، فانتشر الحراس فى غرفه وعبثوا بها ، فلما رأتهم قد أنسوا إليها ، فكرت فى أن تستأذن منهم لشراء بعض لفائف التبغ ، فطلبوا منها إعطاءهم كلمة شرف بعودتها ، فأعطتها إياهم ، فأذنوا لها ، ظنّاً منهم أنها لن تجرؤ على نكث العهد ، فإن الإفلات من قبضتهم متعذر وجزاؤه القتل . وكررت الخروج ، وأخيراً صممت على الهرب بالالتجاء إلى دار إحدى السفارات بمدريد ، فهربت

فى ثياب النوم ، وما كادت تخطو عتبة دار السفارة حتى خرّت فاقدة الوعى ، وقد أصيبت بانهيار عصبى كاد يفقدها صوابها ، فتفضلت السيدة السفيرة بالعناية بها وكانت صديقتها ، وبقيت لديها لاجئة حتى انهزم الشيوعيون وانتصر الوطنيون .

وكانت نبرات صوتها تخرج حزينة ، وعيناها امتلأتا بالدموع ، وأسارير وجهها ترتعد هلعاً من هول الأيام السوداء التى مرّت بها ، وختمت حديثها الحزين ، بأن الغرب قسا على إسبانيا بإصداره قراره المتجنى ، فإنه لم يذق مرارة الوحشية الشيوعية وعبوديتها ، ولكن الشعب الإسبانى الباسل قد تجرعها ، ولذلك فإن السيدة الشريفة تؤيد الجنرال فرانكو ، مع أنها من أنصار الملكية ، لأنه أنقذ الوطن من الفناء ، وتتمنى له العمر الطويل ، وكلما أشيع أن صحته معتلة ، ارتعدت فرائصها ، ودعت له بالشفاء ، خشية أن تقع بعده البلاد ثانية فى هاوية الشيوعية ، فمن العسير الآن أن يخرج من الشعب من يخلفه ، فكيف تبغى الأمم المتحدة أن يتنحى عن الحكم منقذ إسبانيا وزعيمها الوحيد ! ! !

وهكذا كان قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة السابق الذكر سبباً فى أن تلتئم العناصر المناوئة للنظام الفلنخى ، وتنبذ خلافها الداخلى ، وتلتف بقلوبها حول الجنرال فرانكو ، إزاء الخطر المحدق بسلامة الوطن من الشيوعية ، وهذه شيمة الإسبانى ، فإنه جبل على أن يبذل النفس

والنفيس إذا ما خدش شرفه ، أو تمّ تدخل فى شئونه الخاصة ، وإنه يعتبر نظام الحكم من شئون الشعب الخاصة ، ولا يجوز لأجنبى أن يتدخل فيها .

وأسرّ إلىّ زميل أجنبى ، أنه سمع من الأمير « دون خوان » ، المطالب بعرش إسبانيا ، يقول إنه إزاء هذه السياسة الدولية الخرقاء ، قد أصبح هو نفسه من أنصار فرانكو .

ومنذ سنة ١٩٤٨ بدأت تنكشف للدبلوماسية الغربية ولا سيما الأمريكية حقيقة نوايا الدبلوماسية السوفيتية من محاولة بسط مبادئها على العالم كله ، فأثارت الحرب الباردة ، وأوقدت الحرب الساخنة بأيدى غيرها ، فاندلعت النيران فى الصين ،وانطلقت الدعايات الهدامة ، ودُبِّرت الفتن ، ولم تخل منها بقعة من بقاع العالم .

فآمنت الدبلوماسية الأمريكية بالخطر الشيوعى الداهم ، وبدأت نقطة التحول فى الدبلوماسية الغربية ، وسارت على النمط التقليدى التاريخى ، من التسلح والتكتل والتحالف والتطويق .

وأجمع خبراء الحرب فى الغرب على أن موقع إسبانيا هام من الوجهة الحربية ، فضلاً عن أن الإسبانى محارب فدائى فى سحق الشيوعية ، فقامت أمريكا وأمريكا اللاتينية والدول العربية بمجهود مشترك موفق فى الدورة السادسة للجمعية العامة ، فأصدرت الجمعية قراراً فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٥٠

بإلغاء قرارها السابق صدوره فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤٦ .

وقد امتنعت بريطانيا وفرنسا عن التصويت ، مما أحفظ الساسة الإسبان ، وزاد هذه الحفيظة ما كان يذيعه وينشره فى هاتين الدولتين بعض قصيرى النظر فى السياسة الدولية ، مطالبين بعدم تنفيذ قرار الجمعية العامة الأخير .

وامتنع عن التصويت الاتحاد السوفيتى والدول الضالعة معه ويوجوسلافيا وإسرائيل ، وكانت إسبانيا تتوقع ذلك فلم تأبه له ، إذ أنها لا ترغب فى إيجاد علاقات دبلوماسية معها .

وعلى أثر صدور هذا القرار ، أخذت الدول المهتدية تتبارى فى الإسراع فى إيفاد سفرائها ووزرائها المفوضين ، وبدأت تخطب ود إسبانيا ، التى ناضلت وحيدة ، فى صبر وشجاعة ، التحدى الدولى القاسى ، فنالت إعجاب الدول المحايدة ، وتقدير الدول المتحدية ، ففازت الدبلوماسية الإسبانية بالنصر المبين .

ومدّت أمريكا إسبانيا بالعون المالى والحربى ، لكى تأخذ المكان اللائق ببسالتها وروحانيتها وموقعها الحربى الممتاز ، فتؤدى دورها وواجبها فى الدفاع عن المدنية الحديثة ، وأدركت أمريكا كنه العقلية الإسبانية الحساسة ، فارتضت كل شرائطها ، كسباً لصداقتها وتحالفها .

ولمستُ من الزملاء الأجانب ، الذين قدموا أوراق اعتمادهم عقب .

إلغاء القرار المذكور ، أنهم جميعاً موافقون على الإلغاء ، وأن أصل القرار الملغى غير سليم ، إذ أن موضوعه يدخل فى صميم السياسة الداخلية للدولة ، على أن العلاقات الدبلوماسية ظلت قائمة ، وإنما طرأ عليها ضعف الرئاسة ، فأضاعت على الدول كثيراً من مصالحها ، فضلاً عن أن القائمين بالأعمال بالنيابة قد أصيبوا بعقدة الرئاسة وقد أثرت أبهتها فيهم ، فلم يرض أغلبهم استمرار العمل مع السفراء والوزراء المفوضين كمرؤوسين ، وفضلوا النقل إلى بلد آخر .

وزادت دهشة زميل أجنبى أنه وجد هذا التغيير التردى من موظف دبلوماسى كفئ ، كان التمس منه وهو فى عاصمة بلده ، أن يساعده فى أن يعين فى مدريد لكى يعاونه عند ما يلغى القرار المذكور ، ففعل ، فلم يذكره بما كان . وأشفق عليه لما أصابه من عقدة النقص ، فقد تقف فى سبيل نجاحه فى الدبلوماسية .

وشكا لى زميل أجنبى آخر من أن مرؤوسه ، الذى كان قائماً بالأعمال بالنيابة ، قد حدث به عقدة النقص أن يسوئ سمعة رئيسه فى الأوساط الدبلوماسية والرسمية والاجتماعية .

وأرى علاجاً لهذه الحالة أنه كان يجدر بالدول أن توفد دبلوماسيين بدرجة وزير مفوض ليتولوا السفارات ، وبدرجة مستشار ليتولوا المفوضيات وذلك بصفة قائمين بالأعمال بالنيابة .

وبدأت إسبانيا بعد إلغاء القرار المذكور تدخل فى الميدان الدولى [١] فأصبحت عضواً فى بعض الوكالات الدولية التابعة للأمم المتحدة ، وكانت تلقى تعضيداً كاملاً فى ذلك من البلاد العربية ودول أمريكا اللاتينية .

وهكذا أخطأت دبلوماسية الغرب فى اتخاذ قرارها العاطفى ، وعادت فصححته ، وبرهنت الدبلوماسية الإسبانية على الحيوية والنضوج ، فكتب لها النصر ، وقفل فصل ، وفتحت أبواب .

(١) وبعد إنهاء بعثتى فى ١ نوفمبر سنة ١٩٥٢ ، قد عينت إسبانيا فى أوائل سنة ١٩٥٥ مراقباً دائماً لدى الأمم المتحدة ، وفى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٥ قبلت إسبانيا عضواً فى الأمم المتحدة .

الفصل الثانى

من يناير إلى يونية ١٩٥١

١ ـ الخبيئة الذهبية فى الكعكة :

حضرت مع زوجتى حفلة شراب أقامتها أسرة من الأشراف فى ٦ يناير ، وهو يوم عيد الملوك القديسين ، وقدمت كعكة كبيرة ، وفقاً للتقاليد ، وقد دُسَّت فى داخلها قطعة من ذهب ، وأخذ كل مدعو يقطع بسكين قطعة منها ، عله يعثر فى نصيبه على قطعة الذهب الدفينة ، فتجلب له الحظ طوال العام .

ورجتنى إحدى سيدات الأسرة فى ظرف أن أجرب حظى ، فشكرت لها عطفها ، وأجبتها بأن حظى معروف لدىّ ، وسبق لى أن عثرت على قطعة الذهب المنشودة ، وأشرت بيدى إلى زوجى وكانت على مقربة منا ، فسددت السيدة الفاضلة النظر إليها ، وقالت فى ابتسامة هانئة إننى على حق ، فإنها أيضاً لا تقطع الكعكة ، فقد عثرت على الخبيئة المنشودة فى زواجها السعيد .

وتعرفت فى الحفلة بابنة أحد الحكام العظماء ، وقد حفت بها هالة

من الكمال والجمال والتواضع ، مما رفع من شأن عظمة أسرتها ، فأثبتت أن العظمة حقيقية وليست صورية ، وسألتها عما إذا كانت قد عثرت على قطعة الذهب ، فأجابت فى ظرف وصراحة بريئة ، بأنها عثرت عليها ، ولكنها تظن أن الداعين أرادوا أن تفوز بالحبيئة فدسوها فى جانب الكعكة الذى قطعته ، فقلت بأنى لا أعتقد ذلك ، وتمنيت أن تجلب لها القطعة حظا وافراً مدى الحياة الطويلة ، فشكرتنى ، وقد علت حمرة الخجل وجهاً صبيحاً ، ذا عينين فاحمتين ، تشعان من الذكاء نوراً .

٢ ـ سياسة الدفاع عن البحر الأبيض المتوسط :

نشرت الصحافة الإسبانية ، أن وزير الخارجية قد شرح لمجلس الوزراء سياسة الدفاع عن البحر الأبيض المتوسط .

فبادر زميل أجنبي لإحدى دول هذا البحر ، بطلب مقابلتى فى موعد حدده ، فأدركت أنه يرغب فى استقصاء هذا النبأ ، لكى يوافى به دولته ، فرحبت بالزيارة .

واتصلت على الفور تليفونيا بزميل أجنبي آخر لإحدى دول هذا البحر المرموق ، فأبلغنى أن الزميل الزائر ، طلب منه أيضاً مقابلته فى موعد حدده وتبين أنه حدّد بعد موعدى ، فلبى الطلب ، ولكنه أظهر لى دهشته من أن زميلاً يتخذ مثل هذا المسلك غير المألوف فى الدبلوماسية ، إذ لم تصل بعد

بينهما علاقات الزمالة إلى الصداقة ، مما يرتفع معها التكلف ، فكان يجدر به أن يمهد لذلك بدعوة إلى وليمة أو شراب أو شاى ، فيجمع من الأنباء أكثر مما يريد . وقد يأتيه بالأخبار من لم يزوّد ، ولذا فالجواب على استعلامه معروف ، وهو بأن ليست لديه أية معلومات فى هذا الصدد .

ولما قابلنى الزميل الزائر ، تحقق الاستنتاج ، فاستعلم عن هذا الموضوع ، فأجبته بأنى لم أتلق عنه شيئاً من حكومتى أو الحكومة الإسبانية وحذا زميلى الأجنبى الآخر حذوى .

وبالرجوع إلى الدوائر السياسية والدبلوماسية ، تبين أن العرض على مجلس الوزراء كان سرداً عاما للسياسات الدولية التى تجرى فى هذا البحر مع تبيان موقف إسبانيا إزاءها ، وأنه قصد بنشر الخبر ، إطلاق إشارة تنبيه وتذكير فى الجو السياسى الدولى ، بألا تنسى إسبانيا ، وهى إحدى الدول التى تحتل مركزاً ممتازاً فى أحد بابى هذا البحر .

٣ ــ جولة فرنسية فى الموقف :

حدثنى فرنسى مسئول ، بأنه يتوق إلى أن يعين سفيراً فى مدريد ، فإنه يحب إسبانيا ، ويؤمن بضرورة تعاون الدولتين المجاورتين تعاوناً وثيقاً ، ولكنه يخشى منافسة الطامعين فى المنصب وهم كثير ، وذلك عندما يحين الوقت لإعادة العلاقات بين البلدين إلى مجراها الطبيعى ، وإنه يأسف ، أن

لجنة الشئون الخارجية للجمعية الوطنية ، قد أصدرت قراراً بعدم إعادة هذه العلاقات ، ويرى أن هذا القرار سيؤثر فى العلاقات بين البلدين فتزداد توتراً ، ولا سيما أن الإسبان ذوو نفوس حساسة . غير أنه يظن أن صدور هذا القرار لا يقيد الحكومة الفرنسية . فهى حرة فى أن تتصرف دون الالتفات إليه .

ولما كان البحر الأبيض المتوسط تعنى به دوله عموماً ، والدول التسلطية خصوصاً ، وكانت ألبانيا ، المطلة عليه قد دخلت تحت النفوذ السوفيتى ، وكان لفرنسا تمثيل دبلوماسى هناك ، فقد سألت محدثى عما أذيع ونشر من إنشاء مطارات سوفيتية ضخمة فى ألبانيا .

فأجاب بأن ما لديه من عناصر مكتوبة ومسموعة ، لا يدل على وجود الاستعداد الضخم ، ولو أن هناك بعض مطارات قد أنشئت ، على أنه لا يمكن الجزم بأية حال . بتأييد الخبر أو تكذيبه . إذ أن البلاد الخاضعة للنفوذ السوفيتى ، تعيش فى ظلام دامس ، لا يدع رؤية مثل هذه المنشئات الحربية ، التى تعتبر من الأسرار العويصة الخفية .

فجاءت إجابة محدثى مائعة ، فظلت ألبانيا مصدر قلق دائم للمعسكر الغربى ، تنبث منها الشائعات الخطيرة ، من إقامة المطارات وأوكار الغواصات .

٤ ـ خطاب للرئيس ترومان :

ألقى الرئيس ترومان خطاباً ، نشر فى صحيفة التيمس فى ٩ يناير سنة ١٩٥١ ، أشار فيه إلى أن الحكم القيصرى قد أبدل بحكم أشد فظاعة ، إذ يحتفظ بملايين الرجال مدججى السلاح ، وقوات هائلة من الطائرات ، وقوة قوية من الغواصات ، ويسيطر تماماً على القوات التابعة لنفوذه ومعداتها ، وقد أبقى شعوبها واقتصادياتها تحت التعبئة المستمرة ، فإذا ما سقطت أوربا الغربية تحت يد الاتحاد السوفيتى ، ازدادت موارده من الفحم إلى الضعف ، ومن الصلب إلى ثلاثة أمثال ، وإذا ما سقطت تحت يده أيضاً الدول الحرة فى آسيا وأفريقيا ، فستفقد أمريكا كثيراً من المواد الأولية الحيوية الأساسية بما فيها الأورانيوم ، وهو أساس القوى الذرية ، فيواجهها الاتحاد بقوات لا أمل لها فى أن تجاريه فيها ، ولن يهاجمها الاتحاد لفرض سلطانه عليها ، بل سينال غرضه بعزلها وابتلاع حلفائها .

وترى الدوائر الدبلوماسية اليقظة أن هذا الخطاب قد أفصح فى صراحة عن سياسة أمريكا نحو أوربا وأفريقيا وآسيا ، وكشف عن السرّ الدفين الذى يحركها فى هذه القارات ، سواء أكان فى الحكم الحزب الديمقراطى أم الجمهورى ، إذ يحتاج جهازها الحربى الهائل إلى الأورانيوم والبترول لكى يعمل ويتفوّق ، كما يحتاج جهازها الصناعى الضخم إلى البترول والمواد

الأولية ، وإلى أسواق لتصريف الفائض من مصنوعاتها ومنتجاتها .

ولا شك أن الساسة المحنكين فى هذه القارات ودبلوماسييهم فاطنون من قبل إلى هذا السرّ الدفين .

٥ ـ أمير شعراء تركيا :

حدثنى زميل تركى ، بأن الشاعر عبد الحق حامد ، أمير شعراء تركيا ، قد وضع تمثيليتين ، إحداهما بعنوان « موسى بن نصير » ، والأخرى بعنوان « طارق بن زياد » ، وحذا فيهما حذو شكسبير فى تمثيلياته ، فصاغ التاريخ فى قالب تمثيلى ممتع جذاب ، يشوّق القارئ إلى أن يأتى فى سرعة على الصفحات جمعاء ، فيستوعب فى يسر الوقائع التاريخية.

وسألت زميلى عما إذا كانت هاتان التحفتان قد ترجمتا إلى الفرنسية أو الإنجليزية ، وقد تناولتا تاريخ قائدين خالدين ، أولهما كان من كبار قادة الدولة الأموية وساستها ، والثانى من البربر ، فأجاب بالنفى.

فتمنيت أن تترجما إلى اللغة العربية .

٦ ـ سياسة أمريكا إزاء إسبانيا :

أخبرنى زميل أجنبي أن الحالة الدولية خطيرة ، وكلما ازدادت تحرجا ،

زاد اليقين لدى خبراء الحرب الأمريكان من ضرورة إشراك إسبانيا فى الدفاع عن أوربا ، فإن نفوس أهلها تتأجج مقتا للشيوعية .

لذلك فإن الجنرال أيزنهاور ، القائد الأعلى لقوات الحلفاء فى أوربا ، اتصل وهو بباريس ، بالسفارة الإسبانية هناك ، مستعلماً عما إذا كانت زيارته لإسبانيا تقابل بالترحاب .

فلما رجعت السفارة إلى حكومتها بمدريد ، أجابت بأن الزيارة ستقابل بالترحيب ، ولكن يجدر ملاحظة أن إسبانيا ليست عضواً فى معاهدة منظمة شمال الأطلنطى .

فكانت هذه الإجابة فى كياسة دبلوماسية عالية ، ففيها رفض مؤدب.

وأضاف زميلى أن الجنرال سبق أن زار البرتغال ، وهى الحليفة الأولى لإسبانيا ، فابتهج للترحاب الذى قوبل به ، وأبان له وزير الدفاع البرتغالى ضرورة إشراك إسبانيا فى الدفاع عن شبه جزيرة إيبيريا ، فبدونها لا تقوى البرتغال على أن تقوم بأى عمل منتج نافع فى هذا الصدد ، فضلاً عن أن الدولتين تسيران على سياسة خارجية موحدة .

٧ ــ الخبراء الألمان :

أخبرنى زميل أجنبى أن إسبانيا تعتمد فى مهارة على الخبراء الألمان فى كثير من صناعاتها ، التى لا تتسع فيها ولكنها تتقن المحدود منها ، وإن هناك

علماء ألمان من مخترعي القذيفتين ف١ (V.I) وف٢ (V.II) .

وأضاف زميلي أنه علم من صديق له ألماني مقيم هنا ، أن لدى الاتحاد السوفيتي قنابل ذرية ، ولكنها أقل عدداً مما عند أمريكا ، ولم يصل الاتحاد بعد إلى اختراع القنبلة الهيدروجينية ولكنه جاد للوصول إلى ذلك .

٨ ـ المجلس الأعلى للبحث العلمي :

دُعيت مع زملائي الأجانب في مدريد إلى حضور ختام الدورة السنوية للمجلس الأعلى للبحث العلمي ، ورأس الاجتماع الجنرال فرانكو رئيس الدولة ، الذي يحرص على الحضور شخصياً . فقد أنشأه في أواخر سنة ١٩٣٩ فلا بد من أن يحتضنه ويؤيده .

وشملت جهود هذا المجلس جميع أنحاء إسبانيا ، فانبثت فيها فروعه المختلفة من معاهد ومراكز وأقسام .

وفي هذه الحفلة هرع العلماء الباحثون من كل صوب . وقدموا بحوثهم العلمية في تواضع ومهابة ، فتسلمها الجنرال فرانكو منهم بيده فخوراً ، وُصفت على المنضدة أمامه في صفوف متراكمة .

ولما انتهت الحفلة ، تكدست مجلدات البحوث العلمية ، وظهرت شامخة ، فشخصت إليها عيون المدعوين .

وقد شاركني زملائي الإعجاب من مواصلة البحوث العلمية وتقديرها ،

وتشجيع العلماء الباحثين ماديا وأدبيا ، ولا سيما فى عصر قد انمحت منه أرستقراطية الدم ، وحلّت محلها أرستقراطية العلم .

ولاحظ الزملاء معى أن زميلا أجنبيا ترك الحفلة ، سهواً أو قصداً ، قبل أن يغادرها رئيس الدولة ، فأتى عملا ينبو عن الآداب الدبلوماسية .

٩ ــ تقرير للجنرال أيزنهاور عن إسبانيا :

علمت من سياسى ثقة ، أن الجنرال أيزنهاور ، القائد الأعلى لقوات الحلفاء فى أوربا ، قدم إلى السلطات الأمريكية المختصة تقريره بشأن الدفاع عن أوربا ، وقد أشار فيه إلى ضرورة إشراك كل من إسبانيا وألمانيا الغربية فى قوات هذا الدفاع .

١٠ ــ الحرب الكورية :

ترى الدوائر السياسية أن الدول أخطأت فى عدم تأييد اقتراح الدول العربية والأسيوية ، بشأن التفاوض مع الصين الشعبية لحسم النزاع فى كوريا ، إذ تتيح المفاوضة لأمريكا وقتاً كافياً لاستعدادها وكذا الدول الحليفة فى أوربا الغربية والشرقين الأوسط والأقصى .

ولذلك فإنه من خطل الرأى السياسى الموافقة على اقتراح أمريكا بأن الصين الشعبية معتدية ، فيفوّت على أمريكا المفاوضة فكسب الوقت

اللازم لكى يستعد المعسكر الغربى . وقد تسنح له الفرصة لعزل الصين الشعبية عن موسكو ، كما تم فى يوجوسلافيا . ومن الحماقة أن يستنفد أية قوة مهما صغرت ، فى بلاد شاسعة يناهز عدد سكانها الخمسمائة مليون

وعلمت من زميل لإحدى دول إسكاندينافيا . أن دولته لا توافق على السياسة الأمريكية اتجاه الصين الشعبية . وترى أن تُتبع إزاءها سياسة اللين .

١١ ــ الحياء الدبلوماسى :

كنت مدعواً عند أحد الأشراف . وكانت الداعية زارت مصر ، وتعرفت بإحدى الأسر المصرية . فطفقت تذم ابنة هذه الأسرة ورمتها بالدمامة .

فتولانى الوجوم ، إذ تهاجم سيدة شريفة أختا لها أجنبية وأمام ممثلها ، مع أن السيدة المتجنية ليست على جانب كبير من الوسامة . التى تمتاز بها الابنة عليها ، فلم ترض لها عجرفة الأرستقراطية أن تتحلى بجمال الأخلاق .

وأبى حيائى أن أرد التجنّى . لأن المهاجمة سيدة تكرمنى فى دارها ، فسكت ، وتذكرت ما سبق أن سمعته من إسبانى ثقة يقول إنه اشمأز من سماع سيدة من طبقة الأشراف تتفوه بعبارات بذيئة . تفوق ما تقذف

به أفواه سفلة القوم ويمنعه حياؤه من سردها .

وترنحت رأسي تعجباً . وآمنتُ بأن اللآلئ الكريمة أخذت تتداعى من تيجان الأرستقراطية ، فانطفأت أنوارها ، وعلاها الصدأ .

١٢ ـ تقدير لقوات المعسكرين :

أبلغني زميل أجنبي سبق أن عمل في موسكو . أن عظيما من الإسبان سأله عما يعلمه عن قوة الاتحاد السوفيتي الحربية ، فأجابه بأنه يعلم عن طريق أركان حرب بلاده . أن قوات الاتحاد بأسلحتها المختلفة ، أقوى من قوات المعسكر الغربي مجتمعة .

فلم يوافقه العظيم على ذلك ، وأكد بأنه لا يؤمن بقوة الاتحاد الحربية.

وأكد لي زميل أجنبي آخر يمثل دولة صناعية ، أنه واثق من قوة أمريكا ، وأن كفتها أصبحت راجحة ، فانتقلت عجلة قيادة الغرب من لندن إلى وشنطن ، وإذا لم يذعن الاتحاد لطلباتها ، فستضرب ضربتها الأولى في الوقت المناسب .

١٣ ـ وحي الشاعرية والكتابة :

حدثني زميل أجنبي عاش في إسبانيا أكثر من عشرين عاماً ، قال : إن كثيراً من الكتاب والشعراء النابهين من الإسبان قد ألفوا قصصهم ،

ونظموا أشعارهم فى المقهى ، حيث يمضون أغلب أوقاتهم فى جو كله سحر وإلهام .

وأن هناك صحفياً ناشئاً عبقرياً يعمل فى صحيفة كبرى . يكتب المقال فى المقهى ، ويبعث به إلى الصحيفة ، فيتلقى الأجر وهو قابع فى مهبط الوحى ، يمتع النفس بالسمر إلى الكتاب والشعراء ، وينعم بارتياد المسارح ودور السينما ، وينفق مما فى جيبه من نقود . فإذا ما طلبت منه الصحيفة مقالاً آخر ، وكانت لديه بقية من النقود ، لا يلبى طلبها حتى يستنفد كل ما لديه من دراهم ، فإذا ما نفدت ، لجأ إلى قلمه وألزمه كتابة المقال ، ودفعه إلى الصحيفة . . . .

لقد حبا الله إسبانيا بكنوز من القناعة ، لا يراها أو يقدرها ، إلا النفوس ذوات النزعة الروحانية أو الفلسفية ، ويخشى أن ينضب معين هذه الكنوز أمام لهيب المادية المستعمر فى جواء المعمورة .

١٤ ــ مع أمريكى مسئول :

أظهر لى أمريكى مسئول دهشته من أن بريطانيا لم تضم بعد إسبانيا إلى المعسكر الغربى المناهض للشيوعية ، مع أنها أشد الدول مقتاً للشيوعية ، وأنه اعتزم أن يتكلم فى ذلك مع المسئولين البريطانيين .

وسألنى محدثى فى ابتسامة عما إذا كان الإنجليز لا يزالون رابضين فى

قناة السويس ، وأنه يحسن ألاّ يجلوا عنها ، لأن خطر الشيوعية شديد .

فأجبته بأن الإنجليز لا يزالون هناك ، وأنه من المصلحة أن تترك القناة إلى الجنود المصريين ، يذودون عنها وهم أقدر على ذلك من غيرهم ، فدفاعهم صادر من قلوب تنبض بحب الوطن .

فعاد محدثى وكرر أنه يحسن عدم جلاء الإنجليز الآن عن القناة .

فسألته فى رفق عما إذا كان يظن أن أى أجنبى يستطيع أن يدافع عن بلاده دفاع الأمريكى عنها .

فأخذ لهذا السؤال ، وأبدى أسفه لأنه فتح هذا الموضوع .

وروى محدثى أنه زار موسكو فى سنة ١٩٤٧ ، وكانت العيون تحدق به فى ذهابه وإيابه . فأفلح مرة فى أن يفلت من حرسه السرى فى منحنى أحد الشوارع ، فانطلق حرًّا فى الطرق دون رقيب ، فتمتع فى حرية برؤية المحال ، وظل يبحث عن دكان لبيع الزهور فلم يجد ، إذ أنها لا تباع فى موسكو .

فسألته عن السبب . فأجاب بأنه لا يدرى .

وأجاب أمريكى آخر ، كان موجوداً معنا ، بأن الزهور تعتبر من الكماليات التى لا فائدة منها .

١٥ ـ التحنان إلى وطن الأمومة :

لما فقدت إسبانيا سيطرتها السياسية على غالبية جمهوريات أمريكا اللاتينية ، وخمدت حدة ألم التسلطية فى نفوس شعوب هذه الجمهوريات ، عادت هذه النفوس ، وهى عاطفية ، إلى الحنين إلى صلة الدم ، وشخصت عيون الأهلين إلى وطن الأمومة ، وانفتحت له القلوب ، ومدّت له الأيدى وعبرت الألسنة عن عواطفها وتحنانها بلغة واحدة ، وهى لغة ثيرفانتس .

ولم يَسَع وطن الأمومة إلا أن يحدب على أبنائه ، فتجاوبت العواطف ونشأت روابط صداقية أقوى وأنفع من روابط التسلطية الزائفة الزائلة .

وإذا انتاب وطن الأمومة شغل شاغل ، فأغفل ذريته سهواً ، حرص الأبناء على ألا يهملوه ، وراحوا يستعطفونه ويبثونه ألم الجفاء .

وقد أبدى لى زميل لإحدى دول أمريكا اللاتينية ، أن وطن الأمومة نسى أبناءه فى الماضى القريب ، ولكنهم لم ينسوه ، إلى أن جاء النظام الحاضر بإسبانيا ، فعاد العطف ، وتجاوبت الصداقة ، وتوثقت العلاقات .

وأبان زميلى أن القوم هنا متمسكون بالدين تمسكا قويًّا ، قد يوصف بالتعصب ، فتحصنت نفوسهم بمصل واق ضد الشيوعية ، التى أخذت تتسرب ببطء فى دول أمريكا اللاتينية ، ويقف الدين حائلاً دون زحفها ، ونشأت الأسرة هناك متينة التماسك ، كما هو الحال فى وطن الأمومة ،

ولا تزال التقاليد الدينية منتشرة فى أغلبها ، فلا يسمح للبنت مثلا ، بأن تخرج بمفردها .

وعادت سياسة العطف على إسبانيا بفوز مبين فى العالم الدولى ، فجمعت حولها نفوذ دول الأبناء فى هيئة الأمم المتحدة . فخطبت الدول الأخرى ودّها ، ملتمسة وساطتها فى استعطاف أحد أبنائها للتأييد فى مسألة معروضة على هذه الهيئة أو إحدى وكالاتها ، فضلاً عن أنها أوجدت لها مصادر تستورد منها المواد الأولية اللازمة لصناعاتها . وأسواقاً تصدر إليها منتجاتها الزراعية والصناعية .

١٦ ــ التشابه فى الجود :

روى لى زميل أوربى بحضور زميل أمريكى ، أنه أعجب برباط رقبة أحد الإسبان ، فأبدى له إعجابه به ، ولشد ما كانت دهشته إذ تلقى فى اليوم التالى هذا الرباط هدية ، ومعه بطاقة زيارة من المهدى .

واشتهر الزميل الأمريكى بالدعابة الظريفة ، والنكات المليحة ، فما كان منه إلا أن أسرع يخفى ساعته فى جيبه ، قائلاً بأنه يخشى أن يُعجب بها الزميل الأوربى ، فيضطر إلى إهدائها وتسليمها إياه فوراً ، وانطلقت الأفواه بالضحك إلاّ فمى .

فلم يستغرب العقل الشرقى الرواية فتضحكه ، وأما العقل الغربى

فقد تفكه بها ، وسارت نكتة تُروى للتسلية .

وجال بخاطرى على الفور حادث وقع فى مصر ، إذ أعجب أجنبى ، حديث العهد بالشرق ، بسجادة فى دار أحد الأعيان بالريف . فأبدى له إعجابه بها ، فأجاب الوجيه بأنها هدية منه له . وأمر بوضعها فى سيارة الأجنبى ، الذى تقبلها منه شاكراً .

وقصّ الأجنبى الحادث على مواطنيه المقيمين بمصر طويلاً ، فأفهموه التقاليد المصرية ، فخجل من نفسه . وهمّ برد الهدية . فحذروه من ذلك ، إذ يعتبر إهانة . واقترحوا عليه أن يبادله هدية أحسن منها ، ففعل .

ولم أستطع رواية هذا الحادث إلى الزميلين الغربيين ، حتى لا أزيد من تهكمهما ، فلن تفهمه عقليتهما فتستسيغاه ، فى عصر سيطرت فيه المادية ، فطغت على العقول فى الغرب والشرق على السواء . فلم ينج منها إلا القليل المبعثر فى إسبانيا والشرق . على أن هذا القليل عرضة لأن يجرفه تيارها الدافق .

١٧ ــ النفسية الدبلوماسية :

أخبرنى زميل لدولة عظمى ، أنه بينما تقله عربة التشريفة ذات الجياد المطهمة ، تسير الهوينا فى طريقها إلى « قصر الشرق » لتقديم أوراق

اعتماده ، لاحظ جماعة من الصبية يرافقون عربته سيراً على الأقدام حتى نهاية الموكب داخل القصر .

ولما انتهى من تقديم أوراق اعتماده واستقل العربة ليعود الموكب أدراجه إلى السفارة ، قد هاله أن ألفى هذه الجماعة فى انتظاره ، واستقبلته بالتصفيق الحاد ، وواصلت المسير فى العودة مهللة فرحة .

فأثر عطف هذه الجماعة البريئة فى نفس زميلى ، فهز مشاعره ، وأطلق لسانه يردد الإعجاب بشعب يحمل صغار عامته نفوساً كريمة ، وثغوراً باسمة ، ووجوهاً مستبشرة . . .

كم من ظاهرة بسيطة قد يُستصغر أمرها ، ولكنها قد تتمكن من نفوس العظماء ، فيكون لها أثر فعال فى انطباعاتهم ونتائجهم وتوجيههم وآرائهم ! ! !

١٨ ـ كلمة « رجل » :

من تعلم لغة قوم ، فقد ملك المفتاح إلى القلوب ، ولا سيما إذا كانوا لا يتكلمون سوى لغتهم ، فسيلمس منهم حتماً تقديراً كبيراً على المجهود المضنى ، الذى بذله فى تعلم لغتهم ، تقرباً منه إليهم ، وأملاً فى الفوز بعطفهم وصداقتهم ، ورغبة فى تذوق ثقافتهم وفنونهم ، وأغانى العامة وموسيقاهم ، وإذا ما نأى عنهم ، ألفى نفسه تحرص على الاستمرار فى

الاتصال بهم عن طريق إذاعات الراديو والكتب والصحافة التى تصدر بلغتهم .

فما كدتُ أتكلم اللغة الإسبانية فى ضعف ، حتى انفتحت أمامى صدور القوم ، فاستقبلونى كما نستقبل فى بلادنا الشرقية ، بأذرع مفتوحة وعناق حار ، ضامين الصدور ، رابتين على الكتف ، مهللين مستبشرين مرددين كلمة « رجل » . فأحسست بأنها تخرج من أعماق القلوب على ألسنة صدق .

إنها كلمة واحدة ولكنها تدل على معان سامية . فكفى أن يكون هناك رجل ، فتقوم الأسرة الصالحة ، فالأمة القوية ، فتحمل الأجناب نفوساً كريمة ، أبية ، أمينة ، مقدامة ، تستعذب الفداء فى سبيل الشرف والمثل العليا ، وقد تحلت بالتقوى ، فتمت لها الرجولة الكاملة .

فكفى فخراً ذكر كلمة « رجل » فى التحية . فلترددها ألسنة الإسبان على الزمن .

١٩ ــ جولة بريطانية فى الموقف :

حدثنى بريطانى ثقة قال ، إنه يرى أن الاتحاد السوفيتى لن يجترئ على إثارة الحرب العالمية الثالثة ، لأن كمية الصلب التى لديه ولدى الدول الدائرة فى فلكه ، تبلغ نصف ما لدى الدول الديمقراطية .

وسبق أن زار محدثى موسكو ، فلم يستطع الاتصال إلا فى نطاق ضيق ، غير أنه علم من بعض الطالبات بجامعة موسكو ، وهن بنات دبلوماسيين هناك ، أن الشيوعية تلهب عواطف الشباب الجامعى ، ولكنهم لا يدرون إلى أين المصير .

ويقدر محدثى أنه من الضرورى أن تتعاون بريطانيا مع إسبانيا سياسياً وتجارياً ، ويسير التعاون التجارى فى نماء مطرد ، فإنه من حسن السياسة العمل على إنعاش الحالة الاقتصادية . حتى لا تقع البلاد فى أحضان الشيوعية . وأما التعاون السياسى ، فيلقى بعض الصعاب التى يمكن تذليلها ، إذ يسود حزب العمال الرأى القائل بأن النظام الحالى فى إسبانيا ، لا يقوم على مصلحة الشعب ، غير أن محدثى يرتئى أن التقدم الاجتماعى للعامل والفرد ، قد قطع شوطاً بعيداً فى ظل هذا النظام ، ومن الميسور إبراز هذه الحقائق ، حتى يخفف الحزب من حدة التيار المناوئ لإسبانيا ، فتنجح الدبلوماسية فى التعاون معها سياسياً ، ولاسيما أن لها موقعا حربياً ممتازاً وهاماً لأوربا ، ويجب أن يبقى سليماً من الوجهة التموينية .

٢٠ ـ نظرة فرنسية فى الشيوعية :

حدثنى فرنسى ثقة قال ، إن النظام الشيوعى يشابه النظام النازى فى دقة الحبك وسريته مع استعمال القسوة فى تنفيذه ، على أن يكون مقصوراً

على فئة قليلة منظمة جبارة . إذا تمكنت من حكم دولة ، فإنها تقبض عليها بيد من حديد ، وتجد من الأهلين من يتعاون معهم .

ويرى محدثى أنه إذا ابتليت فرنسا بالنظام الشيوعى ، فلن تعدم الفئة القلة المسيطرة أن تجد من يشايعها من الفرنسيين .

فأجبته بأننى أستبعد ذلك فى دولة كفرنسا ، فقد شبّ الفرنسى حرًّا ، وقد بثّ نور الحرية فى العالم ، والمعروف أن النظام الشيوعى ضد الطبيعة البشرية ، التى خُلقت حرّة .

فهز رأسه ، وشخص بصره حائراً ، يخشى المستقبل الرهيب .

٢١ ــ قدوم وفد الصحافة المصرية :

قدم وفد الصحافة المصرية مدريد فى طريقه إلى مراكش ، لكى يؤدى رسالته العليا فى قضية مراكش ونضالها النبيل لنيل استقلالها وإلغاء حماية سنة ١٩١٢ .

ولما كانت مهنة الصحافة تتفق فى كثير مع مهنة الدبلوماسية ، فتعتمد كل منهما فى سرّ الصنعة على كسب العطف والثقة ، فسرعان ما تجاوبت القلوب ، فصفت النفوس ، وحلت الإقامة ، وطاب العمل ، وتحقق الأمل ، ولا غرو ، فقد جمع الوفد عقولا مثقفة راجحة ، فاقهة للشئون الدولية ، فسعدت النفس بلقاء أصحاب الأقلام التى تكتب فى

الصحف ، التى تصل من القاهرة بالطائرة إلى مدريد ، إذ اعتادت أن تتلقفها فى شغف ، فيتغذى منها العقل ، ويستعين بها الدبلوماسى على أداء مهمته .

وقد أحسست بالحنين إلى الصحافة ، فقد كتب فيها القلم أيام الشباب وأنا حرّ طليق ، قبل أن تقيد اليد اليمنى إلى اليسرى بقيد من حرير فى أسر خدمة الحكومة ، وتمنت النفس أن تحطم القيد ، وتفرّ حاملة القلم لتلحق بركب الأيدى الطليقة .

فكانت زيارة محببة ، التقى فيها الشبيهان ، الصحفى بالدبلوماسى ، العقل الظاهر بالعقل الباطن ، وبات كلّ عن شبيهه راضياً ، وله مقدرا ، ولسره ووده حافظاً ، ولتكرار الزيارة مرتقباً .

٢٢ – مع زميل إسبانى :

حدثنى زميل إسبانى قال ، إن للإسبانى نفساً عربية أنوفة ، تأبى الخنوع لمخلوق ، ولا يشعر بأن إسبانيا جزء من أوربا ، ويعتبر حدود أوربا تنتهى عند جبال بيرنيه .

ويذكر محدثى أنه عند ما كان يتلقى العلم بباريس ، سمع الطلبة الأجانب تردد إن إسبانيا قطعة من أفريقيا ، وأنه لا يزال يؤيد هذا الترديد.

وأنبأنى زميلى أن إسبانيا خطت فى أنظمة العمال وأصحاب العمل

خطوتين هامتين جديدتين ، لم تقم بهما الدول الأخرى .

فالخطوة الأولى هى أن العمال يشتركون فى مجلس إدارة المؤسسة .

والثانية هى أن الشركات تتقاضى ٨ ٪ أرباحاً ، وما زاد على ذلك يوزع على العمال على قدر ساعات عمل كل منهم .

٢٣ ـ انقلاب عسكرى ببوليفيا :

تحدثت مع بوليفى ثقة فى الانقلاب العسكرى الذى وقع فى دولته ، فأعلمنى أن هذا الانقلاب جاء فى مصلحة بلاده . فقد أنقذها من الوقوع فى أيدى الحكام الشيوعيين . وأن الملحق العسكرى السابق بالسفارة بمدريد هو الذى قام بتدبيره . وكان يقيم فى دار السفارة بالمصيف بسان سباستيان .

٢٤ ـ رأى فى الإقامة الطويلة للدبلوماسى :

أيّد لى زميل إسبانى نابه . الرأى القائل بضرورة بقاء رئيس البعثة الدبلوماسية فى منصبه مدة طويلة ؛ فكلما طالت مدة إقامته ، زادت صلاته بالقوم توثيقاً ، فجمع حوله قلوباً غمرها طول الزمن بالإخلاص ، ففاضت بالصداقة ، فروت أرض وطنه فى أوقات الجفاف .

فقد كان زميلى ممثلا لحكومة الجنرال فرانكو ببورغوس . وفى إبان

محنة الحرب الأهلية كانت خزانة حكومته خاوية من المال ، فلجأ إلى عطف القلوب الصديقة ، فجادت بكثير من المواد والآلات بدون مقابل فأغاث بها حكومته فى أشد الأوقات ضنكاً . و يرجع الفضل فى ذلك إلى الصداقات . التى طال عليها الأمد . فتأصلت فى النفوس ، وترعرعت فى الجود .

وأضاف زميلى أن الماريشال تيتو . قبل توليه الحكم فى يوجوسلافيا ، والمستر أتلى . وهو بعيد عن الوزارة . كانا موجودين فى إسبانيا أثناء الحرب الأهلية ، وحاربا فى صفوف الجيش الأحمر . وقد صُوّر الثانى رافعاً يده مقبوضة .

٢٥ ـ مشكلة دار لإسبانيا بباريس :

حدثنى إسبانى ثقة قال . إن الحالة بين إسبانيا وفرنسا متوترة ، فإن لإسبانيا داراً بباريس . قد احتلتها جماعة من الإسبان ، من أهالى شمالها ، يعادون النظام القائم ، ويقومون بحركة انفصالية ، وهم فى نظر الحكومة الإسبانية أشد خطراً من الشيوعيين ، إذ ثبت أنهم دبروا الإضراب الأخير الذى وقع فى شمال إسبانيا ، وأمّدوا الحركة بالمال والسلاح .

وأصدرت محكمة السين ثلاثة أحكام ، تقضى بإخلاء هذه الدار من الجماعة الغاصبة ، ولكن الحكومة الفرنسية لم تنفذ حكم القضاء ، فاحتجت لديها الحكومة الإسبانية على ذلك ، وعدّت هذا التصرف من

جانبها ماساً بكرامتها ، وهددت بالمعاملة بالمثل . وذلك بإغلاق جميع المعاهد التعليمية الفرنسية فى إسبانيا .

وتحرجت الحال بين البلدين . فسافر ممثل فرنسا بمدريد خصيصاً إلى باريس ، ساعياً لمعالجة الأزمة فرؤى أن الحكومة الفرنسية قادمة على الانتخابات فى يونية سنة ١٩٥١ . وتنتظر إجراءها حتى تنفذ المطلوب ، فتخلى الدار من الإسبان الغاصبين المشاغبين .

فهددت إسبانيا الحكومة الفرنسية بأنها لا تحتمل الانتظار طويلا ، وضربت أول أكتوبر سنة ١٩٥١ أجلا ، فإن لم تسوّ فيه المشكلة ، أنفذت وعيدها .

٢٦ ــ الصبر الدبلوماسى :

أسرّ إلىّ إسبانى ثقة بأن الملك السابق فاروق منح قلادة محمد على إلى الجنرال فرانكو ، وأن هناك بعثة ستصل لتقليده إياها .

فأرتج علىّ لجهلى الموضوع وتجاهلى من أولى الأمر فينا ، مع إهمال القواعد الدبلوماسية الأولية ، فأجبت بصوت حزين مردداً عبارات المجاملة التى تناسب المقام ، وشعر محدّثى بأثر هذه الصدمة .

وأصابت النفس الحسرة لوجودها فى جوّ غامض . وجال فى الخاطر بعض الهواجس والتعليل . فكادت حركة التنفس تقف من هول الغموض

ثم عادت تقاوم فى سبيل الحياة حتى تنجو من الهلاك، فعللت أن التصرف وقع فى جوّ القصر ، وهو مشحون بالجبروت والرهبة ، فلا يدع لمخلوق مهما علت مرتبته وانتفخ صدره ، أن يتكلم ، أو يهز الرأس ، أو يومئ بالعين ، أو يشير بالحاجب .

فتواصت النفس بالصبر الجميل ، ولجأت إلى القلم تبثه الأنين ، فراح ينفث فى الورق مداداً قاتماً ، بدلا من أن يخط كلمة قد تنفع الوطن.

٢٧ ـ موازنة بين هتلر وموسولينى :

حدثنى إسبانى من الساسة البارزين قال ، إنه سبق أن عرف هتلر وموسولينى أثناء الحرب العالمية الثانية . ويرى أن الأول كان شخصاً غير عادى ، أعجوبة فى زمنه . يصعب وصفه أو تقديره . وأما الثانى فكان رجلاً طيباً ، ذا ميول عاطفية إنسانية .

ويرى محدثى أن هتلر قد أخطأ فى أنه لم يحارب الاتحاد السوفيتى فقط فينقذ العالم من خطر الشيوعية . كما أخطأ الحلفاء فى مشكلة دانتزج ، فاندلعت نيران الحرب العالمية الثانية .

٢٨ ـ مشكلة تحديد النسل :

اقتربت فى حفلة شراب من زميل غربى مسيحى ، فإذا به منهمك

فى مناقشة حادة مع شخصية إسبانية حول موضوع تحديد النسل ، متعجب من أن التعاليم المسيحية تحرم تحديد النسل ، فلما رآنى قال فى حماسة ، بأنه يفضل فى هذه الحالة أن يكون مسلماً إن كان الدين الإسلامى يبيح تحديد النسل ، فإن مشكلة المشاكل فى ازدياد عدد السكان ازدياداً لا يتمشى مع زيادة الإنتاج ، وهذا خطر داهم يهدد العالم بالفقر والمجاعة فالفوضى ، ولذا وجب على كل دولة أن تضع حدا لهذه المعضلة العويصة قبل أن تحل الكارثة الكبرى .

وكانت الشخصية عاجزة عن الإقناع لأنها متدينة ، تؤمن بخطل كل جدال حول المسائل الدينية من غير المتفقهين فيه . فآثرت الجدال فى رفق .

فتدخلت فى مناقشة الزميل ، وقد مسّ الدين الإسلامى ، وأفهمته بأن دينى الإسلامى لم ينص صراحة على تحريم تحديد النسل ، غير أننى أنظر إلى الموضوع من زاوية أخرى غير دينية ، وذلك بأن الخوف من ازدياد عدد السكان يرجع أصلا إلى قصور قوة الإنتاج . إذ أن غالبية قوى الإنتاج فى العالم ، سواء أكانت فى الزراعة أم الصناعة ، تسير على الطرق البدائية العتيقة ، فإذا ما أدخلت عليها الطرق الحديثة ، من آلية وكيميائية وفنية ، فإن الإنتاج سيزيد أضعافاً مضاعفة على عدد السكان ، ولا سيما إذا استخدمت الطاقة الذرية ، التى بدأت تأتى بالمعجزات فى هذا الميدان ولذلك فإن مشكلة المشاكل فى طريق الحل بفضل جبروت العقل البشرى .

فسكت زميلى عن الجواب ، ونجت الشخصية من حرج المجادلة فى موضوع حساس ، أوقعها فيه دبلوماسى ، غاب عنه أنه دبلوماسى .

٢٩ – سؤال لصحيفة « صوت إسبانيا » :

تلقيت وزملائى الأجانب من صحيفة « صوت إسبانيا » ، ثلاثة أسئلة وفيما يلى إجابتى عليها :

س – هل تفكر فى بلادك وأنت فى إسبانيا ؟ وما هى الانطباعات والمقارنات ؟

ح – لما قدمت من حظى الحسن إلى إسبانيا فى الصيف الماضى لأول مرة ، أحسست بأننى فى وطنى ، إذ بهرتنى أشعة الشمس الساطعة فى السماء كما تسطع فى سماء مصر ، ووجدتنى محاطاً بقلوب مخلصة مرحبة ، كما ألفيت أخلاق القوم تشبه أخلاقنا ، واشتركت معى أسرتى فى الإعجاب بهذا الجو الودى المضياف ، حتى إننى تمنيت أن تنتهى فى إسبانيا خدمتى بالسلك الدبلوماسى ، على أننى سأزورها بعد التقاعد .

س – هل السفر إلى المصيف بسان سباستيان مقبول أو متعب ؟ المطلوب إجابة بكل إخلاص .

ح – إننى أهيم بالبحر ، فاعتدت المقام على شط الإسكندرية الجميل فوجدت فى شاطئ سان سباستيان نفس الجمال والمتعة ، حتى إننى أنتظر

بفارغ الصبر حلول الصيف كل عام ، لأسعد فيه بهذا المصيف البديع .

س — ماذا استرعى انتباهك فى المدينة أو الساحل الباسكى ، سواء أكان حسناً أم سيئاً .

ح — إن ما استرعى نظرى هو هذا الخليج الجميل وقد أحيط بجبلين : جبل الأجلدو وجبل الأرجول . فأضفى على سان سباستيان منظراً رائعاً فريداً ، إذ جمع المصيف بين جمالى البحر والجبل .

٣٠ — كمال المرأة الإسبانية :

دعانى إسبانى كبير إلى العشاء فى مطعم فاخر بضواحى مدريد ، وكانت هناك فرقة راقصة غربية تعرض رقصاتها التوقيعية بالأقدام ، وكانت الراقصات شبه عاريات ، فأظهر الداعى امتعاضه ، مبدياً أن العرى استهانة لجمال المرأة ، فوافقه على رأيه المدعوون المحيطون به ، مشيرين إلى أن جمال المرأة فى زينة الثياب وتجميل الرأس ، فتبدو فى جمالها الشاعرى لا الواقعى فتسمو فى عيون الرجال ، وترتفع فى نفوسهم .

وتكلم الداعى عن الأسرة الإسبانية ، فوصفها بأنها متدينة ، فالزوجان حريصان على قدسية الزواج ، وإنه ليدهش من ضعف التعاليم الدينية خارج إسبانيا ، فضعفت بالتالى روابط الأسرة ، وباسم الحرية والتقدمية تدهورت الآدمية ، وافتقدت الثقة المتبادلة ، أما فى إسبانيا فالشرف فى

حرز أمين ، وإذا ثلم فلا بد من إراقة الدماء للذود عنه .

وروى الداعى أن مهراجا دُعى إلى حفلة زواج الملك الفونس الثالث عشر ، فوقع فى حب راقصة إسبانية ، وظن أنها كالفنانات المستهترات فى خارج إسبانيا ، اللائى يعبثن بأجسامهن ، فما كان منها إلاّ أن نهرته ، صارخة فى أنفة ، بأن جسمها شرفها ، وأنه لا مجال للرابطة الجسمانية إلا بالزواج . فأكبر المهراجا ذلك وتزوج منها . . .

حقاً لقد أصبحت المرأة الإسبانية مضرب الأمثال فى العفة .

الفصل الثالث

من يولية إلى ديسمبر ١٩٥١

١ ـ أزمة وزارية :

ذاعت الشائعات حول قيام أزمة وزارية وتعديل وزارى ، فاستعلمت من إسبانى ثقة عن صحة ذلك ، وعما إذا كانت الشائعات كاذبة كسابقتها.

فأجاب محدثى بأن للإشاعات هذه المرة أساساً من الصحة ، فستعدل الوزارة ، وسيبقى وزراء الخارجية والطيران والداخلية والعمل ، ويعين وزير العدل وزيراً بلا وزارة ، ويخرج باقى الوزراء ، وتقسم وزارة التجارة والصناعة إلى وزارتين ، وتنشأ وكالة وزارة لرئاسة مجلس الوزراء .

وأضاف محدثى أن هذا التعديل يرمى إلى تقوية الوزارة ، لكى تواجه المسئوليات الجسيمة الخاصة بالموقف الدولى والشئون الاقتصادية الداخلية ، كما أنه جاء استجابة لعقلية الشعوب ، وقد جُبلت على حب التبديل .

٢ ـ قدوم الأميرال شيرمان :

تحادثت مع إسبانى ثقة حول قدوم الأميرال شيرمان إلى إسبانيا ، وهو رئيس العمليات البحرية الأمريكية ، وذلك للقيام بمفاوضات .

فوقفت منه على أن السياسة الإسبانية تسير بصفة رئيسية على خطة تهدف إلى الدفاع عن شبه جزيرة إيبيريا ، فلن تستجدى إسبانيا الانضمام إلى معاهدة شمال الإطلنطى ما دامت بريطانيا وفرنسا تعارضانه . ولذلك وجب أن تكون إسبانيا والبرتغال قويتين وأهلاً للدفاع عن كيانهما . فإذا ما زادت قواتهما عن حاجة شبه الجزيرة . أمكن . فى ابتهاج . إرسال قوات إلى الخارج لمحاربة الشيوعية ، فاتجهت إسبانيا نحو أمريكا بغية الوصول إلى اتفاق ينهض بها اقتصاديًّا وحربيًّا . مما يستدعى حركة إنشائية فى المطارات والطرق والموانى ، مع تقوية القوات البرية والبحرية والجوية .

وأضاف محدثى أنه إذا ما دقت ساعة الحرب العالمية الثالثة . فإن أخوف ما يخافه ، أن تتقاعس بريطانيا وفرنسا عن الدخول فى الحرب فوراً فيقع وقتئذ العبء كله على عاتق إسبانيا والبرتغال لمجابهة الخطر الشيوعى الداهم ، ولذلك فإنه يرى المستقبل رهيباً . والحاجة ماسة لإعانة إسبانيا فى سخاء اقتصاديًّا وحربيًّا ، فقد قاست الأهوال ظلماً بسبب القطيعة السياسية والاقتصادية .

٣ ـ وفاة الأميرال شيرمان :

مات فجأة بنابولى الأميرال شيرمان ، المفاوض الأمريكى مع الحكومة الإسبانية ، وكان عطوفاً على إسبانيا ، متحمساً للاتفاق معها ، واثقاً من

تذليل كل الصعاب والوصول إلى ذلك .

فلما مات خيم الحزن على قلوب الساسة الإسبان ، لأنهم فقدوا رجلا مخلصاً ، تبادل العطف والثقة مع كبار القوم ، فتعلقت به القلوب ، والقلب الإسبانى معروف بأنه إذا قطع عهداً أو منح وداً ، فلن يحول الموت أو التنائى دون أن ينفذ العهد ، ويبقى على الود .

وأذيع أن وفاة الأميرال جاءت كارثة على المفاوضات ، ولا بد من أنها فاشلة من بعده ، كما أشيع أن الوفاة المفاجئة دبّرها أعداء إسبانيا إذ سموه بسمّ جديد ، قيل إنه إذا دُسّ للضحية ، فإن مفعوله يسرى ببطء ، ولا يترك أى أثر بعد الوفاة .

فاستعلمت من أحد الساسة الإسبان عن أثر الوفاة فى المفاوضات الجارية بين البلدين ، وما كدت أذكر اسم الأميرال ، حتى قطب جبينه أسى لفقد صديق لوطنه ، وأجاب بصوت خافت بأن السياسة الأمريكية مرسومة ، ولن تتغير بوفاته ، ولكن الكل حزين لفقد عزيز لديهم .

وأضاف محدثى أن إسبانيا اعتزمت أن تزيد من صلاتها بالدول الصديقة العطوفة ، فقرر مجلس الوزراء فى جلسته الأخيرة زيادة الروابط السياسية مع البرتغال والدول العربية .

٤ ـ مع زميل أجنبي :

بينما كنت بالمصيف بسان سباستيان ، إذا بزميل لإحدى الدول الأوربية يرغب فى زيارتى . فلبيت الطلب فى سرور . وارتاحت النفس إلى أن الاستجمام فى المصيف لم يقطع الاتصال الدبلوماسى . بل زاد منه فجمع شمل الدبلوماسيين يوميا فى الظهيرة على شط البحر الهادئ الجميل يمرحون بالسباحة ، فتخرج من أفواههم الضحكات الهانئة . ثم يستلقون على رمال الشط ، تتلقى أجسامهم أشعة الشمس ، فيطيب لهم اللقاء . وتجاذب أطراف الحديث . وقد زاد نسيم البحر من صفاء الذهن ، وأصالة الرأى .

فلما قدم زميلى إلى دارى ، بادرنى بأنه جاء ليتحدث إلىّ فى السياسة فإنه يذكر أنه تحدث معى منذ ستة أشهر فى السياسة الدولية وبخاصة فيما يتعلق منها بالسياسة الإسبانية ، فصارحته وقتئذ برأيى . بأن إسبانيا سائرة قدُماً نحو الاتفاق المباشر مع أمريكا ، وقد أبلغ الزميل هذا الرأى فى حينه إلى حكومته ، وقد تحقق ما سبق أن ذهب إليه استنتاجى .

وبعد هذه المقدمة المفاجئة ، استطلع الزميل رأيى فى التعديل الوزارى الجديد ، وهل قصد منه عودة الملكية ، أم التقرب من أمريكا ؟

فأرتج علىّ ، وشعرت بهزة فى الرأس ، وأجبته فى صوت خافت ،

بأن حدسى السابق قد صدق بطريق المصادفة فقط ، وآمل ألاّ يخيب ظنى هذه المرة ، فإن ما لدى من الأخبار القليلة ، تنبئ بأنه إذا عادت الملكية الآن ، فستعود الشيوعية تباعاً إلى إسبانيا وتسيطر عليها ، وكفى فرنسا دليلا فإنها تقاسى هذه الأيام الشدائد بسبب الشيوعية ، وقد ظلت أكثر من أربعة أسابيع بدون وزارة ، وقد اضطرت أمريكا ، أمام ضغط خبرائها الحربيين إلى أن تتحالف مع إسبانيا ، ذات الشعب المتدين ، الذى يمقت الشيوعية من كل جوارحه ، رضيت بريطانيا وفرنسا أم لم ترضيا ، فإن الحاجة العسكرية هى الدافع الأساسى .

فأمام التطور الدولى الجديد ، عدّلت الوزارة الإسبانية بتقويتها ، حتى تجابه المسئوليات الجسام .

ولما انصرف زميلى ، رجعت إلى نفسى وقد تولاها الذهول ، فوجدتها فى حيرة ، لا تستطيع أن تبرر كيف يسعى دبلوماسى أوربى لدولة عريقة فى الدبلوماسية منذ قرون ، إلى دبلوماسى عربى لدولة يبلغ عمرها الدبلوماسى ثمانية وعشرين عاماً فحسب ، مستطلعاً الرأى فى موضوع غير عربى ! ! ! فدفعت عنها كل المبررات إلاّ واحداً ، ألا وهو المصادفة ، فنجت النفس من ورطة المعرفة وخدرة المديح ، فانكبت على التقرى والتحصيل من العقول المفكرة ، سواء أكان من عباراتها المنطوقة أم كلماتها المكتوبة .

٥ ــ مع أحد الساسة :

علمت من أحد الساسة الإسبان ، أن الصين الوطنية أوفدت مندوباً إلى مدريد ، طالباً أن تعترف الحكومة الإسبانية بحكومته . وتتبادل التمثيل الدبلوماسى معها .

فأبلغته الدوائر الرسمية أسفها لعدم إمكان تلبية هذا الطلب فى الوقت الحاضر ، إذ أن حكومته لم تعترف بإسبانيا أثناء محنتها فى منظمة الأمم المتحدة . مع العلم بأن لإسبانيا بعثات تبشيرية فى الصين .

وأسرّ إلىّ محدثى ، بأنه يأسف لأن إسبانيا لم تفكر فى إيفاد جيش لنجدة العرب أثناء حربهم مع إسرائيل ، ولو أن العالم كان سيثور ضدها .

فأجبته بأنه كان من الميسور إجراء ذلك بإيفاد متطوعين ، فهز رأسه موافقاً وقال ، بأنها فكرة لم تدر بالخاطر وقتئذ .

٦ ــ إسبانيا وأمريكا :

أخبرنى سياسى إسبانى أن بريطانيا عارضت فى أن تتفق أمريكا مع إسبانيا ، غير أن الصحافة البريطانية سلكت مسلكاً معتدلاً إزاء هذا الموضوع . وتؤيد هولندا وبلجيكا سياسة التفاهم بين إسبانيا وأمريكا ، على حين تعارضها كل من النرويج والدانمارك وفرنسا ، وجاءت معارضة النرويج

والدانمارك تساير سياسة بريطانيا ، وأما فرنسا فقد تغلغلت فيها الشيوعية باسم الحرية ، فتعذر عليها الاستقرار فى سياستيها الداخلية والخارجية .

ويرى محدثى أن النظام المثالى للحكم هو القائم بالولايات المتحدة الأمريكية ، إذ يجمع رئيس الدولة بين رئاسة الدولة ورئاسة الوزارة ، ووزارته غير حزبية ، هذا وتعتبر الوزارة الإيطالية من الوجهة الشكلية أكثر انسجاماً من الوزارة الإسبانية الجديدة ، غير أن هذه الأخيرة تعتبر من الوجهة العملية أكثر إنتاجاً .

٧ ــ حق البدن على العامل :

تحدثت مع إسبانى كبير فى المصيف ، وهو حاد الذكاء ، وافر النشاط ، فأبدى لى أنه ينبغى للعامل أن يستريح من العمل فترة كل عام ، فينأى عن مكان عمله وبيئته ، ويهجر السينما والمسرح وساحات الألعاب الرياضية ، فيخلو إلى نفسه ، ويرسلها من غير كلفة ، فيرتدى ثوباً مريحاً غير الذى ألفه .

ويطبق محدثى هذا المبدأ على نفسه ، فيستريح بضعة أسابيع كل عام يعود بعدها وهو أكثر نشاطاً ، وأوفر قابلية للعمل ، ولذلك فإنه يشفق على كل مواطن يعمل جاهداً من غير وقفة للراحة .

ويرى محدثى فى حماسة أن الطبقة المتوسطة كانت وستظل عماد

إسبانيا وقوتها ، والمنقذة لها إذا ما حزب الأمر ، فهى فى الشعب الطبقة الفتية القوية السليمة فى الجسم والعقل .

٨ ـ مع أحد رجال الصناعة :

إن سان سباستيان الجميلة . عاصمة ولاية جيبوثكوا . وهى المصيف الرسمى ، كما أنها مشتى بديع ، ويبلغ تعدادها حوالى مائة ألف نسمة .

وقابلت بالمصيف أحد كبار رجال الصناعة ، فأعلمنى أن ولاية المصيف تعتبر أصغر الولايات فى الدولة ، ولكنها أغناها ، فهى منطقة صناعية ، تزخر بالصناعات ، وتدرّ على الخزانة العامة أكبر حصيلة من الضرائب ، ولا عيب فيها سوى غزارة أمطارها ، التى تعود عليها بالنفع العميم والإنتاج الصناعى الوفير .

وذكر لى محدثى ، وهو يشغل عملا ذا صفة عمومية ، أنه لا يقصر همه على منصبه الرسمى ، فإذا فقده يوماً ، عاد إلى داره ليرحب بعمله الأصلى الذى ينتظر عودته من حين إلى آخر ، فينبغى للمرء ألا يعتمد فى معاشه على عمل واحد ، فيتكالب عليه ، وقد يذل نفسه بغية الاحتفاظ به .

وكان محدثى قدعاد أخيراً من أحد المصايف بفرنسا فى الجنوب الشرقى ويبعد عدة كيلومترات من المصيف الأسبانى ، وما كدت أنطق بكلمة

المصايف الفرنسية القريبة ، حتى انتفض محدثى وقال فى صوت هائج ، بأنه رأى هناك التبجح فى العار ، وياليته ما رأى ، إذ شاهد المرأة تلبس شبه ثوب للاستحمام لا يخفى من الجسم شيئاً ، وقد توسدت رمال الشط ، فكيف تستسيغ نفس أى رجل ، له نخوة ، وفيه دماء حارة ، أن يتزوج من امرأة ، كشفت للآلاف من عيون الرجال عن محاسن جسمها فى خيلاء ودلال ، وقد حدت به التقاليد الإسبانية إلى أن يشمئز من هذه الأوضاع المعيبة ، وأن يفرّ منها ، وقد آلى على نفسه ألاّ يعود إلى مشاهدتها ، فإن هذه التقاليد تقضى بأن تلبس المرأة الإسبانية ثوب الاستحمام الكامل ذى الطبقتين ، ولا يجيز لها العرف أو القانون ، أن تتوسد أو تضطجع الرمال ، وإن أرادت التمتع بأشعة الشمس ، فما لها إلا القعود فى حشمة ، فإن مكانها الرئيسى فى البيت ، تعنى بزوجها وأولادها والشئون المنزلية ، ولن تستطيع أن تتشبه بأختها الغربية فى أن يكون مكانها خارج البيت .

وأضاف محدثى بأن عاداتهم قد أخذوها عن العرب .

ولما ودعت محدثى العظيم ، انتزع منى صداقة أكيدة تمتد إلى القدم ، ولا غرو فقد تجاوبت الآراء ، وتشابهت العادات ، ولكن خرجت من الصدر زفرة طويلة ، فإن تيار المدينة الحديثة الجارف ، أخذ على شط البحر فى بلادى يبتلع كثيراً من هذه العادات التى ورثناها عن العرب .

٩ ـ ستالين والتقرب الأمريكى الإسبانى :

أبلغنى زميل غربى أنه أبدى لأحد الساسة الإسبان رأيا ، بأن سياسة تقرب أمريكا من إسبانيا دفعت ستالين إلى أن يسعى للاتفاق مع أمريكا ، وذلك خشية أن تضعف سياسة الاتحاد السوفيتى فى فرنسا وإيطاليا .

واستطلع الزميل رأيى فى ذلك ، فأجبته بأن رأيه محتمل . وقد يكون أن ستالين يريد كسب الوقت للتسلح ، فإن كفة أمريكا وحليفاتها راجحة فى القوة الذرية ، كما يبغى أن ينفث روح التخاذل والضعف فى شعوب المعسكر الغربى .

١٠ ـ مشكلة جبل طارق :

أبلغنى زميل غربى ، له حظوة لدى الدوائر الرسمية ، أنه نصح مدير بلدية مدريد ، بمسح العبارات النابية ، التى كتبها بعض الطلبة على جدران السفارة البريطانية بمدريد ، بمناسبة ذكرى احتلال جبل طارق عام ١٧٠٤

ورجا زميلى من هذه الدوائر أن تخفف الوطء على بريطانيا فى الوقت الحاضر ، إذ أنها تمر بحقبة عصيبة ، مليئة بالورطات والأزمات .

فقبل النصح ، ولبى الرجاء .....

وهكذا تستفيد الدولة من جهود ممثلى الدول الحليفة ، إذا كانت لهم مكانة مرموقة فى الدوائر الرسمية المعتمدين لديها .

١١ ــ وليمة عشاء ذات لون خاص :

إنه فى مساء ٤ سبتمبر ١٩٥١ بالمصيف ، دعا السنيور مارتن ارتاخو وقرينته ، وزير الخارجية ، رؤساء البعثات الدبلوماسية وبعض كبار وزارة الخارجية وقريناتهم ، إلى وليمة عشاء ، ذات لون خاص (dîner typique) ، فى نادى جماعة جاستيلوبيد (Sociedad Gastelubide) وتتكون أعضاء هذه الجماعة ، الفريدة فى نوعها ، من الرجال فقط ، الذين اشتهروا بتذوق الطعام ، وإجادة الطبخ بأنفسهم ، بغض النظر عن الفوارق فى المراكز الاجتماعية ، فتضم الجماعة السائق والنجار والحداد والصياد والعامل وصاحب المصنع والتاجر والوزير والكاتب والفنان والصحفى وغيرهم .

فإذا تواجد العضو فى النادى ، قام بنفسه بإعداد ما يريد من طعام ويقوم بطبخه ثم أكله ، ويدفع من تلقاء نفسه ثمن المواد التى أعد بها طعامه ، وذلك دون رقيب أو مراجع فى الحساب ، فرائد الجماعة الأمانة التامة .

ويتكوّن النادى من ردهة واسعة ، رُفع سقفها وأركانها وجدرانها على كتل جميلة من الخشب ، ونثرت فيها موائد كثيرة . منها مائدتان طويلتان ، أعدت إحداهما للمدعوين والمدعوات ووضعت فى الجانب الأيمن للردهة ، وظهر المطبخ فى الصدر ، وقد تهافت عليه الأعضاء تهافت النحل على خلاياه استخراجا للشهد ، فأخذت النغمات الفرحة تنطلق من صدورهم المرحة ، وثغورهم الباسمة ، وألسنتهم المغردة . وانسابت هذه الموسيقى العذبة لتمتزج برنين الأوعية والصحون وأدوات الطبخ وأزيز القدور ، التى بثت أبخرتها الشهية فى فضاء الردهة ، فيملأ عطيرها الأنوف ، فيسيل اللعاب فى الأفواه ، وهى ترقب فى لذة تذوّق الطعام ، على حين أن الأعضاء بين جالس يأكل ما طاب له مما أعدّه من طعام ، ومن واقف يطبخ أو يساعد زميله فى الطبخ أو غسل الأوانى ، كل ذلك فى جو شعبى بهيج ، مفعم بالمرح البرىء ، وقد انمحت فيه الفوارق الاجتماعية ، فيغسل من الصدور ما قد علق بها من أدران الحياة ، فتصفو النفوس ، وتصحّ الأجسام ، وخليق أن يقال إن الجسم السليم فى النفس السليمة .

وجلس المدعوون على المائدة الطويلة ، وهى متواضعة تمتاز بنظافتها ، وجلست المدعوات جمعاء فى صف واحد على الجانب الأيمن للمائدة ، وجلس المدعوون أمامهن ، ولم تتبع قواعد المراسم فى الجلوس ، نزولا على شعبية المكان .

وذكر لى السيد وزير الخارجية أنه لم يطلب من الجماعة أصنافاً معينة بل ترك لهم وفقاً للتقاليد ، أن يقدموا من الألوان كما تشاء أذواقهم السليمة بسليقتها .

وخلع وزير الخارجية سترة بذلته . وتبعه المدعوون الإسبان ، وأخبرنى زميل إسبانى بأن الجو حار يحتم علىّ مجاراتهم . فرحبت بالفكرة وأنقذت نفسى من ضيق الملبس وزدت على ذلك بأن فككت رباط الرقبة أيضاً ، وسرعان ما دوّى التصفيق عالياً . وتبعنى باقى الزملاء الأجانب إلا اثنان ، فكانا موضع إشفاق من الحاضرين . فقد اكتوى جسمهما بلهيب العرق الحار المنهمر .

وكانت هناك مائدة أخرى طويلة تلى مائدتنا . وقد امتلأت بالأعضاء وترأسهم رئيس الجماعة ، وقيل إنه نجار .

ولعب عضو على البيانو فأبدع . وهو شاب وسيم . قيل إنه صياد سمك .

وغنى عضو آخر فأجاد ، فكان لصوته الرخيم وقع فى القلوب ، وقيل إنه سائق سيارة .

وتكونت من الأعضاء جوقة برئاسة أحدهم . فأخذت تغنى الأناشيد الوطنية ، والأهازيج الباسكية ، فأحسنت الغناء ، وبرع الرئيس فى توجيه الجوقة ، وهو ربع ، ممتلىء الجسم ، مرح . دائم الابتسام ، خفيف

الحركة مع كبر سنه وثقل وزنه ، وقيل إنه موظف فى صندوق التوفير معيل فله اثنا عشر ولدا .

وغنى عضو آخر ، ذو صوت منخفض غليظ ، فأبدع وقيل إنه صياد سمك .

وعزفت الجوقة بالأبواق نغمات مطربة ، وقد اعتلى رئيسها مائدة ومعه عصا القيادة ، وأخذ يترنح يمنة ويسرة ، تبعاً لهوى الموسيقى ، وكانت الأنغام عذبة مثيرة حقا ، فأثرت فى نفوس الحاضرين ، فهزهم الطرب الصاخب ، فأخذوا يصفقون بالأيدى ، ويتمايلون على هوى الأنغام ذات اليمين وذات الشمال ، وكل ممسك المنشفة بيديه ، يداعبها فى ميله وكأنه يراقصها ، وفقاً لعادة أهالى الباسك ، ونسى الجميع نفوسهم ، فعاد السفراء والوزراء المفوضون ، وعلى رأسهم وزير الخارجية ، إلى أيام الشباب الحلوة الخالية ، وقد صفت من كابوس مسئوليات الحياة .

وختمت الحفلة بأن رتل رئيس الجماعة أنغاماً دينية دعائية ، وعاونه الأعضاء فى الترتيل ، وبعد ختامها ، قصد إليه وزير الخارجية ، وهنأه على نجاح الحفلة ، وشكره على جميل الحفاوة بالضيوف ، وتبعه فى ذلك المدعوون .

وانصرف الزملاء وصدورهم منشرحة ، وقد تذوقت ألسنتهم طعاماً جيداً ، متقن الصنع ، لذيذ المذاق ، وقد طبخه عضوان ، فدلّ على

علو كعبهما فى الطهو ، بل وتفوقهم على ذوى المهنة من الطهاة .

وخرج الزملاء وقد تخلصت النفوس من متاعب السياسة الدولية فى الصراع الحاد القائم بين معسكرى الغرب والشرق ، ونست ولو إلى حين ، الخطر المنتظر .

حقًّا إنها لحفلة رائعة طريفة ، لم أسمع عن مثيلتها فى العالم من قبل ، وقد انفردت بها إسبانيا ، وكلما اكفهرّ جو السياسة الدولية ، أو أحسست بفقد الشهية ، تذكرتُ الجماعة . فسرعان ما تفاءلت النفس بعد يأس ، واشتهت الطعام بعد الزهد فيه .

١٢ ــ مع زميل أجنبي قديم :

تمتاز سان سباستيان بجمال الطبيعة يرفرف عليها الهدوء الشامل ، وتخلو من ألعاب الميسر ، وتتحلى بوداعة أخلاق أهلها ، ولذلك تجتذب صيفاً وشتاءً ، كل من ينشد الراحة والمتعة البريئة ، وكل راغب فى المحافظة على أسرته من خطر أسماك البحر الضائرة .

والشط فى الصيف متواضع مخفار ، يستقبل المستحمين فى خيام صغيرة تضرب فى الرمال ، وتؤجر بصعوبة نظراً لزيادة الطلب على العرض غير أن البلدية تكرم دائماً وفادة الدبلوماسيين الأجانب ، فتلبى طلبهم ، وتخصص لهم جانباً من الشط ، فتهيأ لهم الفرصة لمعالجة السياسة الدولية بروح رياضية .

وأبدى لى أبنائى يوماً إعجابهم بسفير إحدى دول أمريكا اللاتينية ، لصغر سنه مع علو منصبه . ووجهوا نظرى إليه ، وكانت خيمته قريبة من خيمتنا ، فنظرت إليه . وتفرست فيه وهو فى ثوب البحر . فتبين لى أنه زميل قديم . عملنا معاً فى الخارج منذ بضع سنوات . وكان زميلاً ممتازاً ، وأهلاً لمرتبة السفيرية الرفيعة ، جمع بين الكفاية وصداقة المجتمع ، وقد وُفقت إلى الفوز بصداقته وعطفه . واستفدت من عبقريته الفذة .

فهرعت إلى الزميل القديم مرحباً ، وإذا به يعمل سفيراً فى دولة أخرى وترك مصايف أوربا الصاخبة . وآثر هذا المصيف الهادئ الجميل ، وأعجبْ به وبأهله . حتى إنه فكر فى اقتناء دار فيه ، ففرحت بلقائه ، إذ سنحت لى الفرصة لكى أسترشد بآرائه الصائبة . ولكن سرعان ما تملك زمام المناقشة ، فهو المجلى دائماً . وأخذ يمطرنى بوابل من الأسئلة الدقيقة ، وخاصة فيما يتعلق بالسياسة الدولية فى هذه المنطقة الحساسة فى الدفاع عن الغرب . وقد عدل عن رأيه فى سرور ، شأن الأقوياء . فوافق على أن أمريكا سلكت سياسة حكيمة باتفاقها مع إسبانيا ، بالرغم من معارضة بريطانيا وفرنسا ، فلا يزال خطر الشيوعية جاثماً على صدر الغرب ، والاحتكاك مستمر بين الكتلتين فى الغرب والشرق ، فلا بد من أن تتولد الشرارة ، عاجلاً أو آجلاً ، فيندلع لهب الحرب العالمية الثالثة .

ويرى زميلى أن المستر مارشال ، قد أدى خدمة جليلة بمشروعه إلى

دول أوربا (ما عدا إسبانيا والاتحاد السوفيتى والدول الواقعة تحت نفوذه) وذلك لإعادة بنائها الاقتصادى ، وسيسجل التاريخ اسمه بالفخار . ولكنه أخطأ خطأً جسيما سيسجله التاريخ أيضاً ، وذلك أنه أتبع سياسة ترك الصين ، فوقعت فى قبضة الشيوعية . فإن العقلية الصينية ، وقد خبرها زميلى إذ سبق أن مثل دولته هناك . لا ترى عيباً فى أن يستحل قائد جزءاً من المال الذى خصص لجيشه ، فكانت الرشوة منتشرة والمساعدات الأمريكية ضائعة فى الجيوب . ولكن كان لذلك ثمن . ألا وهو بقاء الصين فى يد أمريكا ، وكان من أصالة السياسة الأمريكية أن تبقى الصين المنحلة فى يدها ، عن أن تصبح نزيهة فى يد الشيوعية . على أن داء الرشوة لا يشفى فى سرعة وسهولة . إذا ما تغير نظام الحكم من ديمقراطى إلى شيوعى ، وقد تبين لأمريكا فيما بعد خطل هذه السياسة ، فهى تقاسى الآن الويل فى كوريا ، وتتكبد من الخسائر المالية أضعاف ما كانت تنفقه من مساعدات مالية على الصين ، فضلا عن خسائرها فى الأرواح .

وأضاف زميلى أن سفيراً أمريكياً سبق أن نصح المستر مارشال ، بأن يعدل عن هذه السياسة الخاطئة إزاء الصين ، فلم يقبل النصح ، فتمت المأساة .

ويقدر زميلى أن الاتحاد السوفيتى لن يثير الحرب ، لأنه موقن من أن شعوب الدول الداخلة فى الستار الحديدى ستكون ضده ، فهى تقاسى

الأهوال تحت السيطرة الشيوعية ، ولذلك فإن الاتحاد يسير على حض غيره ، ككوريا والصين ، على حين يواصل بث مبادئه الهدامة فى العالم حتى تسوده الفوضى .

ويظن زميلى أن الشعب الأمريكى يريد أن يضرب ضربته على الفور إذا ما أكملت حكومته استعدادها الحربى ، لأن صبره قد نفد ، وأما حكومته ، فترى على العكس ، ألا تضرب إلا إذا كان الاتحاد السوفيتى البادئ فى التعدى .

١٣ – زميل أجنبى شبيه لى :

يقول المثل الشعبى فى بلادى « يخلق من الشبه أربعين » ، أى إن الله يخلق لكل شخص أربعين شبيهاً .

ويلوح لى أن لهذا المثل نصيباً من الصحة ، فقد وفقت فى حياتى الدبلوماسية إلى أن أعثر ، وأنا المصرى العربى ، على ثلاثة شباه ، الأول فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وكنت مرتدياً بذلة السهرة الصغيرة (سموكن) فظن ضابط أمريكى أننى قائده العظيم أيكى (الجنرال أيزنهاور) ، وصارحنى بذلك على الطريقة الأمريكية ، فأجبته بأننى لفخور بهذا الشبه وإنه لم يسعدنى الحظ بعد أن أقابل شبيهى العظيم .

وفى أواسط شهر أبريل سنة ١٩٥١ بمدريد ، أطلعتنى زوجتى على صورة فوتغرافية منشورة فى صحيفة إسبانية لسفير الفلبين (السنيور مانويل موران) ، وهو يقدم أوراق اعتماده إلى الجنرال فرانكو ، وقالت لى مازحة بأننى قدمت من جديد أوراق اعتمادى .

والحق أنه ليصعب على المرء أن يحكم بنفسه على شبيهه من ملامح الوجه ، فيترك ذلك لغيره ، فهو أقدر عليه منه . ولكن من اليسير أن يدرك وجه الشبه فى العلامات الأخرى ذوات العادات الشخصية ، كطريقة حلق شعر الرأس والشارب ، واستعمال نوع خاص من النظارة ، والطبع المرح أو العابس .

ولما رأيت صورة شبيهى ، دهشت لوجود الشبه الخارق فى العادات الشخصية ، من حلق الشارب كله ، وحلق شعر الرأس بالموسى حلقاً تامًّا ما عدا الجزء الأعلى منه ، ولبسه نظارة فضية اللون من غير إطار حول الزجاجتين ، ففرحت للعثور على الشبيه الثانى .

ولما قابلت زميلى وشبيهى ، راعه الشبه التام بينى وبين شقيقه ، فاعلمته بحادث صورته الفوتغرافية ، فأجاب بأنه سعيد أن يقابل أخاه فى إسبانيا ، ورجانى أن أتخذه لى أخا ، إذ أحسّ منذ اللحظة الأولى بالثقة والصداقة والانسجام .

فأجبته بأن الإحساس متبادل ، وإننى لسعيد بدورى أن أتخذه أخا

وصديقاً ، ولا سيما قد أعلمني أن لى شبيهاً ثالثاً وهو شقيقه .

وروى الزميل الشبيه هذه القصة إلى زوجته الفاضلة ، وقدمني إليها على أنني أخوه ، وإلى أولاده على أنني عمهم .

وذات يوم دعاني زميلي وشبيهي بالمصيف إلى وليمة غداء فى مطعم ، فقدمتْ إليّ الساقية ودعتني إلى مكالمة تليفونية ، فلما ذهبت تبين لى أن المطلوب زميلي وشبيهي ، فأفهمته ما وقع من لبس ، وذهب بين قهقهة الأفواه .

وبينما كنت واقفاً مع زميلي نتحادث ونشرب القهوة ، قدمت ساقية أخرى تطلب سفير الفلبين إلى مكالمة تليفونية أخرى . ولكنها وجدت نفسها أمام اثنين متشابهين ، فأرتج عليها ، وأخذت تجيل النظر إلى كلانا ، ثم هداها ذكاؤها الفطرى إلى الخروج من هذا المأزق الحرج ، بأن فاهت بيننا بأن يتفضل سفير الفلبين بالحضور إلى التليفون ، فذهب الزميل الشبيه وبقيت وقد ارتسمت الابتسامة على الثغور .

ولما قصصت ذلك على سفيرة الفلبين أمام زوجها ، قالت مداعبةً فى رقة ونبالة ، بأنها لسعيدة أن تجد شبيهاً لزوجها ، وتخشى أن تخطىء يوماً فتصحبني على اعتبار أنني زوجها ، فضحكنا من القلوب ، وتمنيت للزوجين السعيدين ، عمراً طويلاً ، وحبا فياضاً ، فيغمر قلوب الأهل

والأصدقاء برذاذ من سر السعادة .

ونتجت عن هذا الشبه مداعبات طريفة فى المجتمع . مرّت فى رقة وبروح تعاونية رياضية ، وكنت أرويها فى حينها إلى الزميل الشبيه ، فتزيد من روابط الإخاء . وتقابلها الثغور بابتسامة هانئة .

كم من أجناس مختلفة تشابهت . وتفاهمت ، وتآخت . فهل أوفق إلى العثور على باقى الشباه الأربعين ؟ فإن كنت أيها القارئ راغباً معى فى ذلك ، فما علينا إلا الضرب فى الأرض . والتطواف حول العالم .

١٤ ـ مصارعة الثيران :

تعتبر مصارعة الثيران فى إسبانيا الرياضة الشعبية الرئيسية . وقد عرفت للأجانب بأنها رياضة عنيفة قتالة تسيل فيها الدماء. فقد أودت بحياة كثير من أبطال هذه الرياضة .

وقد وهبتُ نفساً حساسة . لا تقوى على أن ترى إنساناً يئن دون أن تشاركه فى أنينه ، ولا تشهد حيواناً يذبح أو تسمع صياحه قبل ذبحه ، إلاّ وعافت أكله ، فكيف تحتمل رؤية إسالة الدماء . ولا سيما قد اتخذتْ من الدبلوماسية مهنة . فاعترفت بالضعف بل الجبن ، وقررت عدم مشاهدة هذه الرياضة الوحشية .

غير أن الجو المشحون بالتيارات المثيرة سرعان ما يؤثر فى المرء من حيث لا يدرى ، فقد أخذت الأذن تسمع من القوم عن هذه الرياضة آيات الإعجاب ، مع دقة الوصف ، والاهتمام الكلى بالجرح الذى أصاب المصارع الباسل ، كما أخذت الصحافة تخلب اللب بأخبارها الفياضة وصورها البديعة .

فألفيت نفسى بدأت فى التحول عما تطبعت عليه ، فأخذت تتقبل ما يردده الهاتف إليها ، من أنها على حق فى أن تشمئز من رؤية عملية الذبح فى حيوانات الأكل وقد قيدت ، وفى الطيور وقد أطبق عليها فى قبضة اليد ، ولم تترك لها جميعاً أية فرصة للدفاع سوى الركل داخل القيود .

وأما مصارعة الثيران فشبيهة بالمبارزة بالسيف ، فينازل الثور خصمه ، وقد أتيحت له فرصة الدفاع والثأر ، فكم قضى على كثير من الأبطال أو أثخن جراحهم .

وتراجعت النفس فى أمان ، وارتضت مشاهدة مصارعة الثيران ، وزاد رضاؤها ، أن تذكرت رؤية جوانب من المصارعة فى السينما فلم تتأثر منها .

واتخذت مكاناً بعد ظهر يوم فى المدرّج بساحة مصارعة الثيران ، الذى امتلأ بما يقرب من الثلاثين ألفا من النظارة ، وما حانت الساعة الخامسة تماماً حتى كان الجميع فى صمت ، وبدأت الموسيقى تعزف نغمات حماسية توقيعية ، ودخل الموكب من باب فى حلقة الساحة ، يتقدمه فارسان

فى لباس فرسان القرن السابع عشر ، ويليهما المصارعون الثلاثة ، فمعاونوهم ففرسان الحراب يركبون الخيول وقد عصبت عيونها ، وتدرعت بطونها بالجلد.

ويلبس المصارعون وأعوانهم بذلات مزركشة برّاقة ، شديدة الحبك على الجسم ، وقد سطعت عليها أشعة الشمس فتلألأت ، وتسمى بحق بذلة الأنوار .

ويعود الركب من حيث أتى بعد أن يؤدى التحية إلى رئيس الحكم وتعرض فى الحفلة ست مصارعات ، تعقب الثلاث الأولى استراحة . فيلعب ثلاثة مصارعين . وينازل كل مصارع منهم مرتين ، إحداهما فى الفترة الأولى ، والأخرى فى الفترة الثانية .

وينطلق الثور كالأسد من عرينه إلى الساحة يزمجر . وقد شمخ بقرنيه الحادين متحدياً الغرماء ، فيتصدى له أعوان المصارع ، يداعبونه بمواثرهم [1] الحمراء . فيطاردهم . فيلجأون إلى أحد المخابئ الخشبية المقامة على بعض جوانب حلقة الساحة ، ثم ينزل المصارع وينسحب المساعدون . فيداعب الثور بوثره الأحمر فى وسط الساحة ، وتعتبر هذه الفترة من أخطر المراحل فى المصارعة وأعظمها ، لأن الثور لا يزال فى عنفوان قوته . ولذلك فإنها لا تستمر أكثر من دقائق معدودات ، فيدخل الفارسان حاملى الرمح

---

(١) المواثر جمع وثر (La cape) . والوثر : الثوب الذى تجلل به الثياب فيعلوها . (القاموس المحيط) .

ذا السن الأسطوانى ، فيسدد الثور هجماته القاسية إلى الجواد ، وقد يطرحه وفارسه أرضاً ، وقد يبقر بطنه بالرغم من درعه الجلدى فتتدلى أحشاؤه ، وينهال الفارس برمحه ينخس الثور فى كتفه ، فتسيل الدماء ، فيزداد الثور هيجاناً ، وقد يضج الجمهور إذا أطال الفارس النخس ، وهذه هى العملية المثيرة التى لا تستسيغها غالبية النظارة من الأجانب .

وينبرى ثلاثة من معاونى المصارع ، ويرشق كلٌ منهم على التوالى الثور بسهمين فى كتفه ، وذلك فى سرعة خاطفة ، وقد يخيب رشق بعض السهام ، وقد تُسدد جميعاً ، فتبقى الستة مرشوقة فى الكتف ، فتزيد من إثارة الثور وإضعافه واستنزاف الدماء ، وقد يتولى المصارع الفذ عملية الرشق بمفرده .

وترمى عمليتا النخس بالرمح والرشق بالسهام إلى إضعاف قوة الثور ، حتى يتعادل نسبيا مع قوة خصمه « الإنسان » .

وأخيراً يأتى الدور الفصل ، فينزل المصارع بسيفه ووثره الأحمر المعلق على عصاً قصيرة ، ويمسك بهذه العصا ناشراً الوثر ، ومخبئاً السيف بجانب العصا ، ويبدأ فى مداعبة الثور واستفزازه ، فيقوم الثور بالهجوم الخاطف صوب الوثر ، فيمر كالبرق بجانب المصارع ومن تحت الوثر ، ويكرر المصارع الجسور هذه العملية الخطيرة بغية إجهاد الثور . ويتفنن المصارع الفذ فى ألعابه ، فيمسك بأحد قرنى الثور مصوباً إياه نحو أذنه ، أو

يسير أمامه مولياً إياه ظهره ، أو يجثو أمامه على إحدى ركبتيه ، ويقابل الجمهور كل حركة متقنة بصيحة الاستحسان التقليدية (أوليه) تدوى عالياً ومتمشية مع وزن الحركة .

وإذا شعر المصارع أن الثور قد وصل إلى درجة الإعياء ، فإنه يمسك السيف بيده اليمنى مصوباً إياه إلى منكبه . ويقبض الوثر بيده اليسرى ويفتحه أمام عينيه ، ويقف الحصان برهة رهيبة وجهاً لوجه . وهى وقفة مثيرة حقاً ، فإذا أخفض الثور رأسه لحظة ، انتهزها المصارع فانقض عليه بسيفه وغرزه فى منكبه ، فيخرّ صريعاً من ضربة صائبة واحدة .

وبعد القضاء على الثور يستحق المصارع الممتاز ذَنب الثور وأذنيه ويستحق الماهر أحدها أو اثنين منها . ويستقبل الجمهور المصارع الممتاز أو الماهر استقبال الأبطال الفاتحين . وذلك بالهتاف وتلويح المناديل والصراخ الحماسى يشق عنان السماء . وألقوا عليه بما لديهم من مناديل وقبعات وزهور وقوارير النبيذ الجلدية .

وويل للمصارع المخفق من الجمهور . فإنه يشيع بالسخرية والشتائم والصفير ، على حين يحيى الجمهور غريمه . الثور القتيل بالتصفيق الحاد ، عند ما يترك الساحة تجره البغال .

وكذلك الحال إذا رغب ثور عن المصارعة . وآثر السلامة ، فإن الجمهور يمطره بوابل من الصراخ والصفير . طالبين طرده من الساحة ،

فيدخل بعض البقرات لأغراء الثور المسالم بالخروج ، فيندمج وسطها ويخرج معها مشيعاً بازدراء الجمهور.

وأعجبت فى المصارعة بحماسة الجمهور الخارقة ، وانتباهه الشديد. وتتبعه الدقيق للمواقف المختلفة فى النزال ، مع إظهار الاستحسان أو الاستهجان على الفور ، وأيقنت أنها الرياضة الوحيدة المفضلة ، التى تملك على الشعب عقله وجسمه ، وتشف عن أن لديه روحاً وثابة مغامرة لا تخشى الموت ، تقدر البطولة ، وتزدرى الجبانة ، وتدفعه إلى الأمام فى سبيل النصر

ولقد راقت لى مشاهدة هذه الرياضة الخطيرة بعد نفور ، وازداد إعجابى بها وتقديرى لها ، كلما كان المصارع من الأبطال الممتازين ، والثور من فصيلة الكواسر .

١٥ ـ جولة حول الموقف الدولى :

فى حفلة شراب ، دارت مناقشة ممتعة فى ركن هادئ ، بين جماعة من أفاضل الزملاء الأجانب حول الموقف الدولى ، فأجمع الرأى على أن سياسة أمريكا الخاطئة قد أسفرت عن وقوع الصين فى يد الشيوعية ، وقيام الحرب الكورية ، وقد اشترك فيها صينيون شيوعيون ، فنزلت بأمريكا خسارة فادحة فى الأموال والأرواح ، فرجحت كفة السياسة الشيوعية فى الشرق الأقصى بل فى العالم .

فكان لزاماً على أمريكا أن تخطو خطوات سريعة ، لكى تملأ الفضاء الذى خلفه ابتعاد الصين عن الكتلة الغربية ، وأن تصحح الخطأ الجسيم الذى ارتكبته ، فقررت أن تنهض بألمانيا الغربية ، وأن تمهد إلى إشراكها عسكرياً فى الدفاع عن أوربا ، وأن تعقد مع إسبانيا معاهدة ضمان ، كما اعتزمت أحياء اليابان ، وإعداد معاهدة الصلح ، فعقد لذلك مؤتمر بسان فرانسسكو (من ٤ — ٧ سبتمبر ١٩٥١) . ورفضت الهند ويوجوسلافيا وبورما الاشتراك فيه . وأمضى المعاهدة مندوبو تسع وأربعين دولة . ورفض الإمضاء مندوبو الاتحاد السوفيتى وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا وصرح رئيس الوفد السوفيتى بأن هذه المعاهدة هى إعلان للحرب وليس للسلم كما تدعى أمريكا .

وأبرمت أمريكا على الفور فى ٨ سبتمبر ١٩٥١ معاهدة ضمان مع اليابان ، وأبرمت مثيلتها مع الفلبين ، وأخرى مع استراليا ونيوزيلاندا ، وسارت المفاوضات مع إسبانيا قدماً فى نجاح مطرد .

وهكذا نجحت السياسة الأمريكية فى استعادة مركزها التفوق ، فرجحت كفة الكتلة الغربية على الكتلة الشرقية . التى أصبحت تفكر ملياً قبل أن تنزل ضربتها .

١٦ – مع سياسى إسبانى كبير :

حدثنى سياسى إسبانى كبير قال . إن إسبانيا لن تكترث ببريطانيا . وهى سائرة فى المفاوضات مع أمريكا بغية الاتفاق معها . وإنه ليدهش من إقامة العراقيل أمام إبرام هذا الاتفاق ، وقد أصيب بعض ساسة الغرب بعقدة الخوف من إسبانيا . فاعتبروها عقبة كأداء أمامهم . ففى مؤتمر نيروبى رفضوا النظر فى موضوع شمال غرب أفريقيا حتى لا تدخل مراكش فتدعى إسبانيا تباعاً . كما استكثروا عليها العضوية فى منظمة شمال الإطلنطى . وكأن المنظمة لا تقوى على احتمال عضويتها .

ويرى محدثى أن سياسة بريطانيا تقليدية وقد أصابها الهرم . فلم تستطع أن تجارى العصر الذرى فى دورانه . بخلاف السياسة الأمريكية فإنها فتية عداءة ، فاستطاعت أن تجاريه وتحرص دائماً أن تبقى فى الطليعة.

١٧ – مع زميل أجنبى معتمد بلندن :

مرّ بالمصيف زميل أجنبى يعمل ممثلا لبلاده فى لندن ، فتهافت عليه الزملاء ، يستطلعون رأيه فى نتيجة الانتخابات القادمة ببريطانيا ، فأجاب بأنه لا يستطيع أن يبدى رأياً جازماً ، فإذا حكم العاطفة ، فإنه يفضّل فوز المحافظين ، فإذا تولى المستر تشرشل الحكم ، وهو السياسى المحنك ،

سيطير إلى أمريكا ويضع الرئيس ترومان فى جيبه كما يقول المثل الإنجليزى فتفوز بريطانيا بالنصر السياسى . وأما إذا فاز العمال ، فستنهار بريطانيا ، فالجوع ضارب أطنابه ، فلكل فرد الحق فى اقتناء بيضة واحدة فى الأسبوع بدلا من ثلاث ، ويئن الشعب من قلة القوت .

ويرى زميلى أن المستر تشرشل هو الوحيد الذى يستطيع أن ينقذ بريطانيا من محنها المتوالية ، فله قدرة خارقة على العمل ، فبالرغم من تقدم سنه ، يعمل بجد طول يومه ، ولديه أربع أمينات ، يعملن بالتناوب ، ويبدأ عمله فى الساعة الثامنة صباحاً ، وينتهى فى الساعة الواحدة أو الثالثة من صباح اليوم التالى ، فإذا فاز المحافظون ونجح المستر تشرشل مع الرئيس ترومان فى إنعاش بريطانيا اقتصادياً ، ضمن المحافظون البقاء فى الحكم مدة طويلة قد تصل إلى عشرة أو خمسة عشر عاماً ، إذ يخشى الشعب أن يعود إلى شظف العيش إذا ما عاد العمال إلى الحكم .

وأضاف الزميل أن ليس لدى المستر بيفان ، الوزير العمالى ، القوة الكافية للسيطرة على حزبه ، ومع ذلك فإنه يطمع فى أن ينتخبه الحزب زعيما له بدلا من المستر أتلى .

وختم الزميل حديثه القيم بأن سفير إسبانيا ببريطانيا يرى أن حزب العمال سيفوز فى الانتخابات .

ولما سكت زميلى عن الكلام ، كانت قد انطبعت فى مخيلتى عبارة الأسى بأن الفرد البريطانى أصبح له حق اقتناء بيضة واحدة فقط فى الأسبوع بدلا من ثلاث ، فأخذ الفكر يردد التمنى بأن يصبح الفرد المصرى مساوياً فقط لمثيله البريطانى فى الحرمان .

١٨ ـ مشكلة مراكش :

حدثنى زميل إسبانى قال ، إنه يرى أن عرض مشكلة مراكش على الجمعية العامة للأمم المتحدة فى دورتها القادمة لن يأتى بفائدة ، لأنه يعلم أن أمريكا لا توافق على اتخاذ إجراء معاكس لفرنسا ، فقد أنشأت لها مطارات فى هذه المنطقة ، وهى قواعد حيوية لها من الوجهة الحربية ، وقد تجاهلت أمريكا الآن وعد الرئيس روزفلت إلى سلطان مراكش أثناء الحرب العالمية الثانية ، نظراً لتغير الظروف الدولية .

وأضاف زميلى أن وضع المنطقة الخليفية مختلف عن المنطقة السلطانية ، وأنها تكبد إسبانيا نفقات باهظة .

فأبنت للزميل أن هيئة الأمم المتحدة ، كورثتها عصبة الأمم ، لم تصل بعد إلى الجهاز الدولى المثالى ، الذى ينشده الفلاسفة ، فكفى أن يسمع العالم من منبرها الدولى ، صرخة الدولة الصغرى المظلومة ، فى مواجهة الدولة الكبرى الظالمة ، ولقد أحسنت إسبانيا الفرانكية فى اتباع سياسة العطف

إزاء المنطقة الخليفية ، ولا شك أنها ستجنى ثمار ذلك معنويا وماديًّا ، من وراء صداقة البلاد العربية والعالم الإسلامى ، فقد مضى زمن الاستعمار ، وحلت محله سياسة الصداقة وتبادل المنافع ، وما أمريكا إلا خير مثال يحتذى به .

١٩ ـ تكريم رئيس جمهورية الفلبين :

فى ٣ أكتوبر ١٩٥١ دعيت وزوجى إلى مأدبة العشاء الرسمية ، التى أقامها فى قصر الشرق ، الجنرال فرانكو ، رئيس الدولة ، على شرف السنيور كيرينو (Quirino) ، رئيس جمهورية الفلبين . وهى الوليمة الأولى الرسمية ، التى أقيمت فى هذا القصر المنيف منذ قيام النظام الحالى .

وقصر الشرق مشهور بأنه متحف ، فقد تحلت جدران أبهائه ورداهه وغرفه الواسعة ، بالصور الزيتية القديمة ، والتماثيل النادرة النصفية والكاملة وقد ابتدعها كبار الفنانين من الإسبان وغيرهم ، وتحلت بالحرير والقطيفة وسجاد الجبلان والمرايا البلورية البراقة ، وأما السقوف فقد زينت بالصور الرائعة ، التى ارتفع إليها الفنانون الماهرون ، فصوروها وهم مرتفعون عن الأرض ، فرفعتهم إلى مراتب الخلود ، وتدلت منها الثريات البلورية الضخمة ذوات الشموع الكهربائية العديدة ، وقد صُفت فوق الموائد تحف نادرة من التماثيل والساعات والأوانى : من ذهب وفضة ونحاس ومرمر ، وقد

أخذت بهجة هذه التحف النادرة بالبصر الشاخص إلى الجدران والسقوف ، فنسى الطنافس البديعة ، وترك للقدمين الغوص فيها .

وسبق أن زرت هذا القصر قبيل الظهر ، عند ما قدمت أوراق اعتمادى فى ١٥ يوليه ١٩٥٠ ، وكانت أضواء النهار الناصعة ، تنساب من النوافذ والأبواب إلى داخل الأبهاء والرداه والغرف الفسيحة ، فتسطع على أجزاء منها ، فتنير قليلا من التحف الثمينة . تاركة الكثير منها يختبئ تحت ظلال الأضواء الضعيفة . فبهرنى القليل منها وأخذ علىّ لبى .

فلما أضيئت الثريات الكهربائية ، سطعت أنوارها الوضاءة . وانعكست أشعتها على المرايا والقطع البلورية المتدلاة منها . فظهرت التحف جمعاء فى وضوح تام ، فتدفقت محاسنها ، فتحكمت فى مشاعرى . فلم تقو إلاّ أن تكون لها ، ولا سيما قد اكتملت هذه اللوحات الفريدة ، بأطر من المائدة المنمقة والموسيقى الساحرة .

ولأول مرة تحدثت دون مترجم مع الجنرال فرانكو باللغة الإسبانية ، واستساغت الأذن لهجته الكاستيليانية الأصيلة ، فيخرج حرفا « الثاء » و « الذال » فى نبرات عذبة ، فيخاله ألثغ كل أجنبى يجهل اللهجة الإسبانية ، ودار حديثى فيما ملك علىّ وجدانى ، من تحف القصر النادرة الجذابة ، وروعة الحفلة الباهرة ، وأنى تعبيرى قاصراً على قدر محصولى الضئيل فى اللغة الإسبانية ، وهى الغنية وأنا لا أزال بادئاً فيها ، فتركت

التعبير الكامل إلى ذكاء محدثى العظيم الوقاد ، يستخرجه من علامات وجهى.

وسألت محدثى العظيم عما إذا كان قد زار الفلبين ، فأجاب بالنفى ، ولكنه أضاف بأن أباه وجده ، وهما من رجال البحرية ، قد سبق أن زاراها من قبل .

ثم تحدثت مع رئيس جمهورية الفلبين حديث المجاملات المعتادة ، فكان يمعن النظر فىّ بعينين يشعان ذكاءً ونوراً ، وفاجأنى بقوله بأنه يتمنى أن يرانى فى الفلبين ، وهى أقرب لمصر من إسبانيا ، فأرتج علىّ ، وشكرت له عطفه الكريم نحوى ، وثقته الغالية بى ، وأجبته فى صوت مشدوه ، بأنه مع وجود جسمى فى إسبانيا ، فقلبى ببلاده مقيم ، وإن قاوب شعوب الفلبين وإسبانيا ومصر ، متقاربة متحابة ومتحدة .

وكانت لفتة نبيلة من رئيس جمهورية الفلبين ، فنفذت إلى القلب ، فآليت على نفسى أن أزور يوماً بلاده العظيمة بأخلاق أهلها ، فالناس على سليقة رؤساء دولهم .

ولاحظت مع بعض زملائى الأجانب ، أن كبريات السيدات الفضليات من الإسبانيات المدعوات فى الحفلة ، وعلى رأسهن قرينة الجنرال فرانكو ، قد امتزن بالبساطة فى الملبس والحشمة فيه ، وقد جمعن بين الجمال والكمال ، مع أنهن قادرات على التبرج ، ولكن سمو رسالتهن فى الحياة ، جعلت منهن بحق أمهات مثاليات ، يفخر أبناؤهن بأنهم يحملون ألقاب

أسرهن بجانب ألقاب أسر آبائهم .

وآمنت بسلطان المرأة فى البيت والمجتمع والدولة ، إذ تذكرت ما صرّح به أخيراً المستر هوفر ، الرئيس السابق للولايات المتحدة الأمريكية ، بأن الفوضى الخلقية قد تفشت فى وشنطن . وناشد الحكومة الأمريكية بأن تسرع فتقضى عليها ، وألاّ حاقت ببلاده الهزيمة من غير حرب سوفيتية .

فهنيئاً لإسبانيا بامرأتها المثالية .

وقدم نوع ممتاز من البطارخ الأخضر (caviar) فى أول طعام العشاء ، وكاد يبزّ الصنف الروسى أو الإيرانى . فدفعنى إعجابى به إلى أن أستعلم من زميل إسبانى عن الدولة التى استورد منها . فأجابنى بأنه بطارخ إسبانى ، وهو من نهر الوادى الكبير ، وأن لدى إسبانيا كل شىء حتى البطارخ ، فهى فى غنى عن السوفيت حتى فى البطارخ .

فشفت هذه الدعابة الدبلوماسية الظريفة عن روح وطنية عالية ، تحمل رسالة لا تحيد عنها فى أدائها حتى فى الممازحة .

٢٠ ــ بيان المستر إيدن فى الجمعية العامة للأمم المتحدة :

حدثنى أحد الساسة الإسبان قال : إن البيان الذى ألقاه المستر إيدن وزير خارجية بريطانيا فى ١٢ نوفمبر ١٩٥١ فى الجمعية العامة للأمم المتحدة المنعقدة بباريس ، كان فاتراً ضعيفاً ، لم يأت بجديد أو هام ، ويدل على

قصور فى الأفق السياسى ، وقام الوزير بإلقائه كما يلقى الأستاذ درسه فى الفصل .

٢١ – مع زميل إسبانى :

حدثنى زميل إسبانى قال ، إن إسبانيا أعلنت على الملأ ، أن منظمة الأمم المتحدة ، قد برهنت على الفشل الذريع فى معالجة الشئون الدولية ، وبالتالى على عجزها التام عن أداء رسالتها ، وهى تحذو فى ذلك حذو سالفتها عصبة الأمم .

ويرى زميلى أنه إذا نشبت الحرب العالمية الثالثة ، فينبغى أن تتريث كل من إسبانيا وألمانيا الغربية إزاء موقف بريطانيا المائع ، حتى لا يحترق شبابهما قرباناً للعيون الزرقاء ، وقد فهم ساستهما العقلية البريطانية ، فقد سبق أن عرض المستر تشرشل على فرنسا إبان الحرب العالمية الثانية ، أن تندمج بريطانيا وفرنسا اندماجاً كاملا اقتصادياً وسياسياً ، وأنه جرياً على هذه السياسة . سيعرض أيضاً فى الحرب العالمية الثالثة على الرئيس ترومان الاندماج الكلى بين بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، فتتسلم اليد الأمريكية التركة البريطانية ، فتصبح السيطرة على العالم بين يدى أمريكا والاتحاد السوفيتى .

وختم زميلى حديثه قائلاً إن السنيور مارتن ارتاخو ، وزير خارجيته،

قبل الدعوة الرسمية لزيارة لبنان ، وذلك رداً على زيارة وزير خارجية لبنان لإسبانيا ، وسيقوم بصفة خصوصية بزيارة دمشق وعمان والقدس وبغداد فالقاهرة .

فأبديت لزميلي أجمل التمنى بأن تكون رحلة وزيره موفقة ، وإقامته هنيئة ، والتزوار متصلاً . . .

وتمنيت فى نفسى أن تكون الزيارات رسمية لباقى العواصم العربية . فإن الاتصال الشخصى ضرورى ومفيد ، فتعالج المشاكل على أساس واقعى ، وترى الأشياء بمنظار مكبر على حقيقتها ، فتذلل كثير من الصعاب ، ويفوز ذوو الشخصية الجذابة بالصداقات الخالصة . كما يفوز ذوو الشخصية الباردة بنصيب من الدفء والجاذبية .

وأخذ التمنى يدور فى مخيلتى .

٢٢ ــ النزاع المصرى البريطانى :

جاء شهر أكتوبر ١٩٥١ يحمل للدبلوماسية المصرية أخطر ما واجهته من أحداث منذ نشأتها فى عام ١٩٢٣ ، فهزها فى عنف ، وأفاقها من رقودها الطويل المريح ، فقد ألغت مصر معاهدة التحالف المؤرخة سنة ١٩٣٦ ، واتفاقيتى يناير ويولية سنة١٨٩٩ بشأن إدارة السودان ، والاتفاق الخاص بامتيازات الجيوش البريطانية بمصر ، والمبرمة جميعاً مع بريطانيا .

كما عدّلت الدستور ونص فيه على لقب ملك مصر والسودان .

وقامت مصر وأبلغت الإلغاء إلى بريطانيا .

وأفاقتنى هذه الضربة من سباتى الدبلوماسى ، ولكن العقل لا يزال فى أحلامه هانئاً ، وإن كانت العينان مفتوحتين ، فراحت الخيالات البديعة تداعبه ، بأن مصر ضربت ضربتها القاصمة . ولديها الوفير من العدة والعتاد والمال والقلوب النقية العامرة بالاتحاد وحب الوطن ، ولا شك أن الدبلوماسية البريطانية ستأتى متوسلة طالبة الإمهال ، حتى ترحل فى سلام عن قناة السويس والسودان ، إذ أن السودان قد جاء ملحا طالباً وحدة الوادى . فانتشت النفس فرحاً بالنجاح الخاطف .

وحاولت أن تدوم الخيالات اللذيذة حتى استسلم لها تداعب الآمال ، ولكن سرعان ما أخذت تتبدد ، وتبدو الحقيقة واضحة . فأخذت النفس تتساءل :

هل اتخذنا العدة لمقابلة دهاء الدبلوماسية البريطانية ، وقد زادت فى الدهاء لكى تعوض ما فقدته من مكانتها الحالية إزاء أمريكا ، وقد انتقلت عجلة القيادة من لندن إلى وشنطن ، كما صرّح المستر تشرشل ، شيخ الساسة البربطانيين ؟

أشفى الوطن من أعداء الإنسانية الثلاثة : الجهل والفقر والمرض ؟ هل برئت النفوس من الفردية وحب الأثرة وشهوة الحكم . فاتحدت مخلصة لوجه الوطن ؟

هل تلاشت التيارات المتضاربة ، الخفية منها والعلنية ، فترك الميدان للمخلصين ؟

ألدينا السلاح والعتاد لمقابلة قوات إحدى الدول العظمى الخمس ، التى لها مقعد دائم فى مجلس الأمن بالأمم المتحدة ، كما أن لها حق الاعتراض ؟

هل اتخذنا العدة لبيع قطننا ، المحصول الرئيسى ، وبريطانيا العميل الرئيسى ؟

هل أدخلنا فى خطتنا ما ندرأ به دس إسرائيل ، وأفاعيل أعوان الشيوعية ؟

وأخيراً ماذا أعددنا فى الداخل والخارج للدفاع عن وجهة نظرنا ؟ ولا سيما أن العقلية الدولية فى المعسكر الغربى ، تمقت إلغاء المعاهدات من طرف واحد قبل الميعاد وبدون اتفاق مع الطرف الآخر . ولا تزال تذكر استهتار هتلر بالمعاهدات ، وقيامه بإلغائها من تلقاء نفسه ، ناعتاً إياها بأنها قصاصات ورق .

ولما كان التفاؤل يؤدى إلى حسن الظن ، فقد تسرب الاطمئنان إلى النفس ، وأيقنت أن الأسئلة بديهية لا تحتاج إلى إجابة ، فلا محل للجدال والمخاوف .

وأذيع فى نوفمبر ١٩٥١ أن بريطانيا احتجت لدى مصر ، بأن نقض

المعاهدات من طرف واحد ، عمل غير مشروع ، ومخالف لأحكام ميثاق الأمم المتحدة ، وتعتبر أن هذه المعاهدات لا تزال قائمة ، وتحمل مصر المسئوليات المترتبة على ذلك .

وأذيع فى نوفمبر ١٩٥١ أنه أثناء الدورة السابعة للجمعية العامة للأمم المتحدة ، المنعقدة بباريس ، قد صرحت مصر بأنها تقترح سحب الموظفين المصريين والبريطانيين وكذا الجيشين المصرى والبريطانى من السودان ، على أن تشكل الأمم المتحدة لجنة تجرى الاستفتاء فى السودان ، وقد وصف الأمين العام للأمم المتحدة هذا الاقتراح بأنه عملى .

وعادت البلبلة إلى الأفكار المتجمعة ، وأخذ العقل يتساءل :

كيف يستقيم اللقب الجديد ، المذاع بالقاهرة فى أكتوبر ١٩٥١ ، مع تصريح مصر المذاع بباريس فى نوفمبر ١٩٥١ ؟

وهل تستطيع قوة أن تثنى شعباً عن حقه فى الحياة ، وقد فتح أمامه ثقب صغير يستنشق منه أوكسجين الحرية ؟

وألم يحسب حساب تطور عقلية الشعوب ، وعبقرية عقلية الدول التسلطية ؟

وعادت النفس المتفائلة إلى حسن الظن ، فدخل إليها اليقين ، بأن أولى الأمر فينا لا بد وقد وضعوا الخطط اللازمة ، ودرسوا جميع الاحتمالات من داخلية وخارجية ، فرحت أعد العدة لأقف فى الصف ، فكان

الدبلوماسى فى الطليعة من ركب الجهاد عن الوطن ، ولو أن أغلب دوره يظل سرا مكنونا حتّى بعد إحراز النصر .

وأما إعداد عدتى فيسير . فإن المعاهدات التى ألغتها مصر وحدها . كانت قد عقدت باطلة أصلا . لأن إرادة الأمة كانت مسلوبة . إذ أعطيت تحت الضغط الأدبى للاحتلال العسكرى البريطانى . فيضطر المغلوب مكرهاً إلى قبول أى اتفاق أملا فى تخفيف حدة ضغط الاحتلال الجاثم على صدر المواطنين ، على أن تتلو ذلك خطوات مخففة إلى أن يزول تماماً . فضلا عن أن وجود قوات أجنبية ضد إرادة الشعب يتنافى مع السيادة ، وبالتالى مع مبدأ المساواة فى السيادة المنصوص عليه فى ميثاق الأمم المتحدة فى البند الأول من مادته الثانية .

وأما موضوع اللقب الجديد ، فإنه فقد أهميته بعد ما أصدرت مصر تصريحها بباريس بشأن اقتراح الاستفتاء فى السودان . وانتقل إلى دائرة الجدل الفقهى البحت . فضلا عن أنه أصبح غير ذى موضوع بالنسبة إلى أسبانيا ، فإن اللقب الجديد سبق أن نص عليه فى أوراق اعتمادى التى قدمتها بمدريد إلى الجنرال فرانكو فى ١٥ يولية ١٩٥٠ .

ألم يكن من الخير للدبلوماسية البريطانية أن تفوز بصداقة الشعوب فى عهد الذرة ، وقد تضاءلت فيه قيم الحدود الطبيعية والحديدية ، ولا سيما

أن الدبلوماسيتين البريطانية والأمريكية تواجهان خطراً مريعاً من الدبلوماسية السوفيتية ؟

وبدا لى أنه من الميسور الفوز بعطف الدوائر الرسمية الأسبانية على قضية مصر . إذ أنها مصابة أيضاً بجرح من الدبلوماسية البريطانية فى جبل طارق . فلاحاجة للتمهيد الطويل ، والتدليل الكثير . وكفى أن تمس هذه النقطة الحساسة من بعيد . حتى تهتز فى عنف المشاعر الوطنية .

وإننى لمقدر أن الدول كالأفراد فى التعامل ، فيحظى العميل برعاية خاصة . خشية أن يفلت إلى مورد آخر .

وإن بريطانيا لعميل طيب لإسبانيا ، تستورد منها ثلث صادراتها ، وتسعى إسبانيا جاهرة لزيادة هذه النسبة إلى النصف كما كانت عليها من قبل .

ومع ذلك فقد لمست فى أحاديثى مع الدوائر الرسمية عطفاً حارا . لأن القلوب كليمة من احتلال جبل طارق .

فهذه شخصية كريمة أسرّت إلىّ بأن مصر قد أحسنت اختيار الوقت لكى توقع ضربتها ، وأن إسبانيا لتنتظر أيضاً لاختيار الوقت المناسب لإيقاع ضربتها ، فقد شاخت الإمبراطورية البريطانية ، وأتم العمال فكاكها . ويخشى إذا فاز المحافظون فى انتخابات أكتوبر ١٩٥١ ، فإنهم يناوئون نزاعنا .

فأجبت هذه الشخصية بأن الدبلوماسية البريطانية مرسومة فى مرونة ، ولا تتغير فى جوهرها بتغير الأحزاب فى الحكم ، فأمنت على ذلك .

وأسرّت إلىّ شخصية كريمة أخرى ، بأن بلادها مع أمريكا فى مفاوضات ، وقد نصحت أمريكا إسبانيا بالحيدة فى النزاع ، ثم همست هذه الشخصية فى أذنى ، بأن كلا من مصر وإسبانيا ستنتصران على بريطانيا ، وستنالان عاجلاً حقهما المسلوب . وسيتم حلف للبحر الأبيض يكون فيه لبلدينا الشأن الأكبر ، لأنهما يملكان مفتاحى هذا البحر ذى الأهمية العظمى .

وأسرّت إلىّ شخصية فاضلة ثالثة بأن الإنجليز أثناء العصر الذهبى كانوا سادة يأكلون اللحوم اللذيذة ، على حين كان غيرهم من الأوربيين كالعبيد لا يجدون إلا الفتات ، ولقد ولى العصر الذهبى ، وآن الأوان لكى يأكلوا كما يأكل باقى الأوربيين ، غير أن الإنجليز لا يزالون يعيشون فى عظمة الماضى ، يحلمون بإمبراطوريتهم التى فنيت ، ولذلك فإنهم يتمسكون بجبل طارق وقناة السويس ، ويرون فيهما رمزاً للإمبراطورية الماضية .

ولاقيت من الدوائر الدبلوماسية عطفاً من أغلب الزملاء ، ولا سيما من ممثلى دول أمريكا اللاتينية ، ووقف دبلوماسيو الدول العربية يشدون أزرى .

وحدثنى زميل أجنبى لدولة عظمى ، توثقت بيننا الصداقة الرياضية ، مستعلماً منى عما حدا بمصر إلى أن ترفض على الفور الاقتراحات الرباعية وهى قيمة .

فأجبته بأن كرامة الشعوب فى السلم تأبى أن يفرض عليها إبرام معاهدة بدلاً من أخرى ، وإن حسن النية الدبلوماسية يقضى بأن يوافق أولاً على الإلغاء دون قيد أو شرط ، فإذا تم الجلاء فعلاً عن قناة السويس تقدمت الدبلوماسية البريطانية أو الغربية باقتراحات ينظر إليها فى جو خال من الضغط الأدبى أو المساومة ، وكم عانت مصر من الوعود البريطانية بالجلاء ! ! ! أليس من الخير للدبلوماسية البريطانية أن تقتدى بالدبلوماسية الأمريكية إزاء الفلبين ، فقد احتلتها ، ولم تقف أمام أمانيها القومية ، فتركتها فى سنة ١٩٤٦ حرة مستقلة ، وصديقة وفية ، فقد هب كثيرون من أبنائها طوعاً لنجدتها فى الحرب الكورية .

فأمنت هذه الشخصية على ما أقول ، ثم أضافت بأن التاريخ يعيد نفسه ، وأننا معشر المصريين كالأمريكيين تماماً .

أما الشعب الإسبانى ، فقد غمر مصر فى شخصى الضعيف بشعور فياض وفضل عميم ، فكنت أتلقى يوميا الكتب من الإسبان يعرضون فيها التطوع فى صفوف المصريين ضد الإنجليز . وزارتنى جماعة من طلبة

جامعة مدريد ، وأبدوا تأييدهم القلبي لمصر ، فدلوا على أنهم نبلاء ، أبناء شعب أصيل .

وكانت الصحافة تنشر ما يصدر فى القاهرة ولندن على السواء ، ولو أن هذه الطريقة تعتبر حيادية ، إلا أن وضوح حق مصر فى النزاع . قد خدمه النشر خدمة جليلة .

ولما انجلى الموقف ، تبين أن مصر أقدمت على خطوتها دون أن تضع أية خطة ، أو تدرس احتمالاً أو فروضاً .

وانبرى العقل يفكر فى أنه كان من أصالة الرأى ، أن يكتفى بصدور التشريع بإلغاء المعاهدات المتقدمة الذكر ، ولا يبلغ هذا الإلغاء إلى بريطانيا على أن يتخذ ذلك ذريعة للضغط على الدبلوماسية البريطانية . فإن لم ينجح ذلك معها ، أبلغت عدم تجديد هذه المعاهدات بعد انتهاء مدتها ، وتعبأ قوى الأمة ، لإيقاع ضربتها الصائبة فى الظروف الدولية المناسبة .

ولجأت إلى القلم أدون هذه الهواجس التى دارت فى خلدى ، فانقبض الصدر . وسرعان ما انفتح آليا ، وطرد هذه الهواجس بعيداً ، لأن شيمته التفاؤل ، وعدت إلى النفس أرميها بالجهل ، وأنها لا تعد شيئاً بين النفوس العادة وفوق العادة فى الفن الدبلوماسى ، فقد نسيت أن الحق للقوة ، ولكنها قوة الإيمان بالوطن .

وواصلت السير فى بعثتى الدبلوماسية ، بثغر باسم ، وقلب عامر بالله والوطن .

٢٣ ـ مع إسبانى ثقة :

حدثنى إسبانى ثقة ، بأن وزير الخارجية تلقى دعوة رسمية من عمان ، وكان مقرراً إتمام الزيارة فى ديسمبر ١٩٥١ ، ولكن رؤى إرجاؤها إلى إبريل ١٩٥٢ ، ليتسنى له زيارة القدس فى الأسبوع المقدس . وأنه سيزور أيضاً بغداد ، لأن الوصى على عرش العراق كان مدعوا رسمياً لزيارة إسبانيا ، ولكنها تأجلت بسبب وفاة الملكة الوالدة .

وقال محدثى : إن الأميرال شيرمان ، المفاوض الأمريكى الذى دامت محادثاته قصيراً وتوفى بنابولى أفهمته الدوائر الرسمية فى صراحة أثناءمحادثاته، أنها لا تمانع فى التعاون مع أمريكا ، وقدوم لجان فنية لدراسة الأحوال الاقتصادية والعسكرية ، وإقامة القواعد الجوية والبحرية ، على أن تكون فى أيدى إسبانية ، فلا تسمح مطلقاً بما سمحت به فرنسا فى شمال أفريقيا ، وجلّ هدفها أن تصبح إسبانيا قوية ، كفيلة بأن تصد أى اعتداء بل تسحقه بأيدى أبنائها ، وليس بسواعد غيرها ، وقد أدركت أمريكا وجهة النظر الإسبانية فقدرتها .

ويرى محدثى أن كلا من وشنطن وموسكو أخذتا تركزان جهودهما

الدبلوماسية فى إسرائيل ، وتتنازعان فيها النفوذ ، ولكن ظهر فيها تيار يميل إلى موسكو ، مما حدا بوشنطن إلى أن تتحول قليلاً عن تأييدها ، وتستطيع الدول العربية أن تستفيد من هذا الموقف غير المستقر .

٢٤ – زيارة وزير خارجية إسبانيا لمصر :

أتيحت لى فرصة التحدث مع أحد المسئولين المصريين فى توجيه الدعوة رسمياً إلى وزير خارجية إسبانيا بمناسبة اعتزامه زيارة مصر فى طوافه فى الشرق الأوسط ، وأن مثل هذه اللفتة ستقدرها الدوائر الرسمية من غير شك ويكون لها أجمل الأثر فى المحافل الدولية .

فصادف حديثى قلباً مرحباً ، وأذناً مصغية .

٢٥ – تنظيم اجتماع دورى لممثلى الدول العربية :

فى أثناء الحرب مع إسرائيل ، كانت الجهود مفككة بين الدول العربية ، وكانت جهود دبلوماسيها تباعاً مبعثرة فى الخارج ، فخطر لى وأنا أعمل فى الخارج ، أن تتحدد جهود هؤلاء الدبلوماسيين إزاء هذا النزاع الخطير ، الذى يهدد كيان هذه الدول ، ويزعزع استقرارها فى الحاضر والمستقبل ، ولا سيما أن الخصم داهية ، ويلقى التأييد من الدول التسلطية

جمعاء ، وله خطط جهنمية منظمة فى السر والعلن .

ولما كان هدف الدبلوماسية العربية واحداً فى مشكلة المشاكل ، فمن الخير أن يتكلم الزملاء العرب فى الخارج بلسان واحد ، فيتحدوا فى الحجج الدامغة ، والوسائل الناجعة ، فتبدو الدبلوماسية العربية فى كتلة قوية ، لها وزنها فى نظر الدولة التى تعمل فيها ، كما يقدرها الزملاء والساسة الأجانب.

وتنفذ هذه الخطة بأن يجتمع الزملاء العرب دوريا مرةً كل أسبوع لدى أحدهم على التناوب ، وبين أقداح القهوة أو الشاى يتجاذبون أطراف الحديث فى شئون السياسة الدولية وبخاصة ما تمس السياسة العربية .

ونفذت هذه الخطة فى بروكسل منذ خمس سنوات ، إذ رحب بها الزملاء العرب ، فأتت بأطيب الثمار ، وكفى أنها ألفت بين القلوب ، وأزالت عقد النقص من النفوس ، وأحس كلٌ بجوارحه أن العالم العربى واحد ، وأنه لا يمثل جزءاً منه بل يمثله بأكمله .

ولما عرضت هذه الفكرة على زملائى العرب بمدريد ، رحبوا بها ، ونفذت على الفور ، وحضر الاجتماع الدورى زميل عربى معتمد فى باريس ومدريد ، وإقامته الدائمة فى باريس والموقتة بمدريد ، فاستفدنا من وجوده فقد انهالت عليه الأسئلة عن سياسة فرنسا الخارجية نحو العالم العربى ، فأجاب فى إفاضة وكياسة ، شفت عن أفق واسع ، وعقل راجح ، وأبدى فى تواضع أنه قد استفاد فى أول جلسة ، فوقف فى بضع ساعات على

معلومات هامة ، قد لا يدركها فى عدة شهور ، وتمنى أن يؤخذ بهذه الفكرة الموفقة بباريس ، حيث لا يرى الزملاء العرب بعضهم بعضاً إلاّ فرادى وفى المناسبات الرسمية ، وهى قليلة .

ومن الغريب أن خبر الاجتماع الدورى لممثلى الدول العربية قد لفت أنظار الدوائر الرسمية والدبلوماسية والاجتماعية بمدريد ، فتحدثوا عنه .

وجلّ أملى أن يأخذ زملائى العرب فى الخارج بهذه الفكرة الضعيفة ، فيحيلوا الضعف قوة ، والشك يقيناً ، والهزيمة نصراً .

٢٦ ــ مع زميل إسبانى :

استعلمت من زميل إسبانى عما أذيع من أن المقيم العام الفرنسى لمنطقة مراكش السلطانية ، والمندوب السامى الإسبانى للمنطقة الخليفية ، قد تقابلا فى بلدة « لاراش » على الحدود الخليفية ، وتمّ التفاهم بينهما على السياسة التى يتبعانها فى المنطقتين .

فأجاب بأن ما أذيع غير صحيح ، وأن الزيارة كانت من باب المجاملة فقط ، وقد سعى إليها الجانب الفرنسى ، وقد استغلتّها الدبلوماسية الفرنسية استغلالاً غير سليم ، ولذلك نشرت صحيفة « أريباً » ، لسان حال حزب الفلنخ ، فى عددها الصادر فى ١٩ ديسمبر ١٩٥١ ، مقالاً افتتاحياً ، شديد اللهجة ، أشارت فيه إلى اختلاف وجهتى نظر الدولتين فى موضوع

مراكش ، فالدبلوماسية الإسبانية ، بعكس الفرنسية ، مبنية على صداقة إسبانية عربية متبادلة .

وأضاف محدثى أنه يأسف أن تقع هذه الزيارة فى أثناء انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة بباريس ، وأنه لو كان المندوب السامى الإسبانى استشار الدوائر الرسمية قبل القيام بها ، لقدم إليه النصح بإرجائها حتى تنفض الدورة فلا تستغل إلى هذا الحد الضار .

ثم عرض محدثى لاستقلال ليبيا ، وقال إن إسبانيا ستحذو حذو مصر فى الاعتراف بها ، وتبادل التمثيل الدبلوماسى معها .

الفصل الرابع

من يناير إلى يونية ١٩٥٢

١ ـ إسبانيا والأردن :

أخبرنى زميل أجنبى أن بريطانيا عارضت فى تقرّب الأردن من إسبانيا وفى إنشاء علاقات دبلوماسية بين البلدين ، وفى زيارة الملك عبد الله لإسبانيا عام ١٩٤٩ .

وذكر محدثى أن الملك عبد الله مشهور بذكائه الوقاد وحنكته السياسية فإنه لما زار بريطانيا عام ١٩٤٩ ، كان معتزماً زيارة الرئيس ترومان رسميا ، بغية الوصول إلى حل مشكلة فلسطين على أساس الكتاب الأبيض ، ولكن بريطانيا أبلغته أن أمريكا غير موافقة على ذلك ، فألغى زيارته إلى أمريكا ، وأبدلها بزيارة إسبانيا .

٢ ـ زيارة مصر :

أبلغنى زميل أجنبى أنه علم أن وزير خارجية إسبانيا تلقى من سفارته بالقاهرة بأنه قد تقررت دعوته رسمياً لزيارة مصر .

فاغتبطت النفس ، إذ أنها أصابت الهدف ، فالنجاح الجزئى فى صالح الوطن ، كفيل بأن يدفعها إلى طلب المزيد ، والتطبع بالتمسك بالجوهر ، ونبذ العرض .

٣ – مع دبلوماسى إسبانى :

حدثنى دبلوماسى إسبانى قال ، إن الدوائر الرسمية ارتأت فى كياسة دبلوماسية ، ألاّ تندفع فى تلقى القروض الأمريكية ، وإنما تأخذ منها على قدر حاجتها ، وكلما استنفدت قرضاً ، طلبت غيره ، وذلك على اعتباره قرضاً وليس كإعانة أو هبة .

وأضاف محدثى فخوراً ، أن الخبراء الأمريكان ، قد دهشوا لما تبين لهم تقدم بلاده الاقتصادى وسلامة جهازها المالى ، بالرغم من القطيعة التى نزلت بها دبلوماسيا واقتصاديا ، وعدّوا ذلك معجزة ومفخرة .

وختم حديثه بأنه من المنتظر أن يمضى الاتفاق قريباً مع أمريكا ، وسيدفع القرض فى خلال ثلاثة شهور .

٤ – مع صحفى إسبانى :

كتب صحفى إسبانى فى تعليقه الدبلوماسى ، يتعجب من تخلى بريطانيا عن قناة السويس ، فتترك مصر بغير دفاع ، مع أن هذه المنطقة حيوية .

وانتهزت فرصة لقاء هذا الصحفى فى حفلة شراب ، فبادرت بمصارحته بأن مصر سبق أن أعلنت فى مفاوضاتها أن هذه الحجة واهية ، إذ ما على بريطانيا إلا أن تترك المعدات الحربية الموجودة الآن فى المنطقة للجيش المصرى ، وتدربه بخبرائها ، فلم توافق على ذلك ، مع العلم بأن خبراء الغرب الحربيين ، قد قرروا أن قاعدة قناة السويس منطقة مكشوفة ، وليس بها جبال تحميها ، فلا تستطيع المقاومة أو الدفاع أمام أى هجوم ذرى ، فمصيرها الإبادة التامة ، على أن هناك تحالفاً بين الدول العربية ، فالحل السليم ، هو أن تزود قوات هذه الدول بالأسلحة الحديثة ، فتدافع فى استماتة عن أوطانها ، وتهب كلها للذود عن ذمارها ، إذا ما أغار عدو على حدود إحداها ، ولن تقبل الدول العربية حلف الشرق الأوسط ، وذلك لارتباطه بحلف شمال الإطلنطى ، فضلاً عن اشتماله على بريطانيا وفرنسا ، وهما الدولتان المشهورتان فى الشرق الأوسط بالاستعمار ، مع ملاحظة أن الاتحاد السوفيتى يتعلل دائماً بأن حلف شمال الإطلنطى موجه ضدها ، فالحل الذى ترتضيه الدول العربية ، هو قيام تكتل إقليمى بينها فى نطاق ميثاق الأمم المتحدة .

فأمن محدثى على وجهة نظرى ، ولكنه عاد فأشار إلى أن تصريحات مصر الأخيرة يشتم منها أنها فى صالح الاتحاد السوفيتى .

فأجبته بأنه ينبغى عدم الخلط بين العلاقات الدولية ، واعتناق المبادئ

الشيوعية ، فصر تمقت الشيوعية ، وهى محرمة فيها بحكم القانون ، ولا يوجد بها حزب شيوعى ، أما علاقة حكومتى بحكومة موسكو ، فهى مشابهة لعلاقاتها مع باقى الدول جمعاء ، توجهها المصالح الاقتصادية ، وتنظمها أحكام ميثاق الأمم المتحدة .

فاطمأن محدثى إلى بيانى ، ولم يعد إلى الموضوع فى تعليقه الدبلوماسى .

٥ ـ مع زميل إسبانى :

علمت من زميل إسبانى أن سفيرهم بالقاهرة قدم إلى وزارة خارجيتى الشكر باسم حكومته على تأييد ترشيح مصر لإسبانيا فى مجلس هيئة التغذية والزراعة (F.A.O.) ففازت بالعضوية فيه ، فقدمت له التهانى ، وكرر لى الشكر .

وقرأت الخبر فى الصحافة المصرية ، ومع أننى لم أتلق شيئاً عنه من وزارتى ، إلا أن النفس اغتبطت لأن تصرف دولتى جاء مطابقاً لمسعاى بطلب التأييد ، ففازت إسبانيا بالعضوية ، فزاد رصيد مصر لديها جميلا .

٦ ـ النفوذ اليهودى :

حدثنى زميل أجنبى قال : إن لليهود فى البرتغال نفوذاً قوياً ، فمنهم بعض الشخصيات الممتازة ، ولا سيما أن هناك أستاذاً قديراً فى العلوم

الاقتصادية ، يمتاز بأنه صديق حميم لأحد العظماء وموضع ثقته وتقديره ، وتعتبر لشبونة وكراً طيباً لهم ، وقد استطاعوا بدهائهم أن يؤثروا فى الدبلوماسية الأمريكية هناك ، فاستغلوا مسعاها لدى الدولة الجارة الصديقة ، فقدم إلى مدريد عام ١٩٤٩ دبلوماسى أمريكى يعمل بلشبونة ، وما كاد يقابل الدوائر الرسمية ، حتى بدأت الصحافة الإسبانية تكتب المقالات عن إسرائيل بروح تأييدية ، وكأنها تمهد الرأى العام ليتقبل الاعتراف بها .

فهزّت هذه الحملة الصحفية المدبرة زميلاً عربيًّا نابهاً بمدريد ، فأخذته النخوة العربية ، فاتخذ خطة جريئة حازمة ، وذلك بأن اتصل بأحد كبار رجال الدين ، وشرح له القضية العربية وموقف إسرائيل المعتدية ، وأبان له أنها هى الخطر الوحيد على الإسلام والمسيحية على السواء ، وأن الأراضى المقدسة ستزول حتما إذا ما زال النفوذ العربى وحل محله الإسرائيلى.

فأمّن رجل الدين الكبير على ذلك ، ووعد خيراً .

ولما كانت الكثلكة متمكنة من نفوس الإسبان ، فإن لرجال الدين مكانة سامية فى القلوب ، ولذلك أثمر مسعى رجل الدين العظيم ، فوقفت الحملة فجأة فى الصحافة ، وامتنعت الإشارة إلى الموضوع ، فقضى على مشروع الاعتراف بإسرائيل .

ولاحظ زميلى العربى أيضاً ، أن صحيفة إسبانية نشرت أخيراً نبأ فى مكان غير ظاهر ، يقول بأن أستاذاً إسبانياً من المجلس الأعلى للبحث

العلمى بمدريد ، قد ألقى محاضرة علمية فى جامعة تل أبيب ، فقام الزميل النابه على الفور بمباغتة الدوائر الرسمية بالموضوع ، فتملكتها الحيرة ، فاكتفى بالإشارة ، وأبدى لها النصح بألاّ يقوم وزير خارجيتها ، فى أثناء رحلته المرتقبة بالقدس فى أبريل ١٩٥٢ ، بزيارة إحدى المناطق الإسرائيلية هناك ، بحجة أن فيها أديرة إسبانية ، حتى لا يفوّت الغرض من زيارته للبلاد العربية .

حقـاً إنه لدبلوماسى ممتاز ، استحق أن أصافحه مبدياً إليه الشكر باسم الوطن العربى .

٧ ـ زيارة مصر :

بناء على تعليمات وزارتى ، قد وجهت شخصياً فى ٢١ يناير ١٩٥٢ إلى السنيور مارتن ارتاخو ، وزير الخارجية ، دعوة حكومتى إياه لزيارة مصر رسمياً فى أبريل ١٩٥٢ .

فتلقى الدعوة مغتبطاً ، وطلب منى أن أقدم شكره المزيد إلى حكومتى .

وعلمت منه أنه تلقى أيضاً الدعوات الرسمية من لبنان وسوريا والأردن والعربية السعودية ، وأنه فى انتظار الدعوة من العراق .

٨ ــ الرجولة الإسبانية :

أهدى إلىّ زميلى الأرجنتينى كتاباً عنوانه « سبب حياتى » ، من تأليف السنيورة إيفا بيرون ، قرينة رئيس جمهورية الأرجنتين .

وما كدت أذكر اسم الكتاب أمام أديب إسبانى ، حتى أرغى وأزبد وتطاير شرر الغضب من عينيه ، ورماه بأن لغته رخيصة لا تمت للأدب .

وأحسست منه اشمئزازاً من أن سيدة تفصح فى العلن ، عن عواطفها نحو زوجها ، فهذا سرّ دفين فى هيكل الزوجية المقدس ، ينبغى أن يبقى دفيناً إلى الأبد .

ولم تهدأ ثائرة الأديب إلاّ بنقلى الحديث إلى موضوع آخر ، ولم يبق فى وجهه إلاّ حمرة الغضب . . .

إنى آمنت بأن شمائل القوم من التراث العربى ، فامتازت برجولة كاملة ، إزاء أنوثة كاملة .

٩ ــ لهجة صحفية مغرضة :

طفقت صحيفة إسبانية شهيرة تكتب عن النزاع بين مصر وبريطانيا بأسلوب يشف عن انحياز للقوى التسلطية ، ويلوح أن الكاتب يعطف على إسرائيل والقوى التى خلقتها فى الوجود الدولى ، وليس لدى مصر من

الإمكانيات ما يمكنها من مجاراة الخصم القوى ذى المال والسلطان .

فلم يبق أمامى سوى الطرق الدبلوماسية ، فدعوت صاحب هذه الصحيفة ، إلى وليمة دبلوماسية ، كما دعوت عالماً فزتُ بصداقته ، وكثيراً ما اهتديت بعقله الراجح ، واستفدت من علمه الغزير ، وهو مؤمن بعدالة قضية مصر ، وقد سبق أن رجوته أن يطلب من صديقه صاحب الجريدة ، أن يكون عادلاً فيما يسمح بنشره عن مصر وخصمها بريطانيا ، ولا أطمع إلا فى نشر القول الحق ، فلن يخشاه مهضوم الجانب .

فأكرمت وزوجتى المدعوين والمدعوات جميعاً ، ولم أمسّ الموضوع فى أحاديثى مع صاحب الصحيفة وذلك من باب اللياقة .

وبُعيد المأدبة أسرّ إلىّ العالم الفاضل ، بأنه تفاهم مع صديقه ، وتمّ ما أبتغيه من الكف عن الكتابة ضد مصر ، بل قد وعد الصديق الكريم بالعمل على الترضية .

فشكرت العالم القدير على ما أسدى لمصر من جميل ، فقد أدّى ، بطريق غير مباشر ، أجل الخدمات إلى بلدينا العزيزين ، فتزداد المودة بينهما نماءً وسموًّا .

١٠ ــ حرائق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ :

لما اندلعت الحرائق بالقاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، تعددت الشائعات

عن أسباب وقوعها فى الدوائر الرسمية والدبلوماسية والاجتماعية بمدريد ، وعلمت من الدوائر الرسمية ، أنها تلقت من سفارتها بالقاهرة أن هذه الحوادث كانت نتيجة لما اقترفته الجنود البريطانية فى الإسماعيلية .

ولم يصل إلىّ من وزارتى ما ينير الطريق ، غير أننى كنت أجيب السائلين بأن هذه الحرائق الوحشية الإجرامية وقعت ضد الأجانب والمصريين على السواء ، مما يدل دلالة قاطعة على أن أيديا فوضوية هى التى دبرتّها وألهبتها ، ولولا نزول الجيش إلى الشوارع ، لوقعت مصر جمعاء فى الهاوية .

١١ ــ الدبلوماسية مهنة شائكة :

تطرق الحديث مع زميل إسبانى إلى سياسة دولته مع إحدى الدول الأوربية ، فما كان منه إلاّ أن هز رأسه ، وقال فى حسرة إن التفاهم مع ممثل هذه الدولة يتعبه ، وتضايقه معالجة شئون بلديهما معه ، لأنه بطئ الفهم ، ضيق الأفق الدولى ، لا يسلك إلا الطرق الملتوية .

تركت محدثى وقد أيقنت أن الدبلوماسية مهنة شائكة ، واشتد هلعى منها ، فإن الدبلوماسى فى امتحان دائم قاسٍ تحت عدسة مكبرّة ، تفحصه العيون من خلالها ، وقد تجسمت أمامها عيوبه الظاهرة والباطنة ، فإن أخفق مرة فى الاختبار ، ولو كانت بعض العيون الفاحصة ضعيفة الإبصار باءت بعثته بالإخفاق ، وعاد ذلك برمته على وطنه .

فلو عرفت كل دولة قيمة دبلوماسييها وانعكاس أعمالهم عليها ، لترددت مليًّا فى الإيفاد ، ولظلت أكثر المناصب الدبلوماسية شاغرة .

١٢ – العمال المصريون وقناة السويس :

أعجب بعض الساسة الإسبان من وطنية العمال المصريين ، الذين آثروا شظف العيش فى كرامة ، على معاشهم السخى الإنجليزى فى مهانة فتركوا عملهم فى المعسكرات بقناة السويس ، فأصابوا جهاز القوات البريطانية المرابطة هناك بضربة فادحة ، أشد وأنكى من ضربات جيش منظم ، فإن أية قوة ترتكز فى كيانها وعملياتها على سلامة جهازها الداخلى .

وأسرّ إلىّ قائد إسبانى عظيم ، بأنه عند ما يحين الوقت ، سيحذو العمال الأسبان فى جبل طارق ، وعددهم حوالى اثنى عشر ألفاً ، حذو عمال مصر فى قناة السويس، وأكّد بأن النصر سيكون حليف بلدينا فى القريب .

١٣ – مع زميل أجنبي :

أبدى إلىّ زميل أجنبي أن الخلاف فى إسبانيا بين مذهبي الكاثوليكية والبروتستانتية ، لا يزال مستحكماً ، ولم تخف حدته فى هذه الأيام بالرغم من التقرب السياسى مع أمريكا ، ولذلك فإن طلب أمريكا أخيراً على

لسان الرئيس ترومان بأن تمنح إسبانيا الحرية الدينية للمذاهب الأخرى ، لن تقبله إسبانيا ولو كان فى ذلك هلاكها .

١٤ ـ نفوذ فرنسا فى الشرق الأوسط :

أبلغنى زميل أجنبى أن فرنسا تخشى من تقرب إسبانيا من الدول العربية ، وتعمل جاهدة لعرقلة ذلك ، خوفاً عن نفوذها الدينى فى الشرق الأوسط من أن تنتزعه إسبانيا منها . ويؤيدها فى ذلك الفاتيكان ، وقد صارح إسبانيا به .

وهكذا فإن النفوذ الدينى لا يزال يلعب دوراً هامًّا فى تيارات الغرب السياسية .

١٥ ـ تصريح للرئيس ترومان عن إسبانيا :

أدلى الرئيس ترومان ، رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية ، بتصريح أظهر فيه عدم عطفه على النظام القائم بإسبانيا .

وامتعضت الدوائر الرسمية الإسبانية من هذا التصريح غير الموفق ، فانغلقت صدور الساسة بعد أن كانت مفتوحة ، وعبست الوجوه بعد أن كانت باسمة ، ولا تزال المفاوضات جارية قدُماً بين البلدين ، تحدوها الرغبة الصادقة للوصول إلى اتفاق ، وإن هناك سفيراً أمريكيًّا قد عين أخيراً

ومنتظر قدومه ومعه لجنتان ، إحداهما عسكرية والأخرى اقتصادية لمعاونته .

وارتأى بعض الزملاء الأجانب أن هذا التصريح غير موفق ، وأن الغرض منه الاستهلاك المحلى ، نظراً للانتخابات القادمة فى نوفمبر ١٩٥٢ لرئاسة الجمهورية ، وبغية جذب عطف الغالبية من الناخبين البروتستانت واليهود ، ولاسيما أن للأخيرين نفوذاً قوياً فى الصحافة والمؤسسات المالية والسينما ، فيفوز على منافسه الجبار ، الجنرال أيزنهاور ، المرتقب فوزه ، فإذا ما هدأت فورة الانتخابات ، استمر خبراء الحرب الأمريكان فى خطتهم الحربية فى أوربا ، التى تقضى بالتمسك بمركزين هامين للدفاع عن غرب أوربا ، وهما إسبانيا وألمانيا الغربية ، وقد أحسنت إسبانيا ، فاحتجت رسمياً لدى أمريكا ، مبدية أن هذا التصريح يعتبر تدخّلا فى الشئون الداخلية للدولة مما يتنافى مع أحكام ميثاق الأمم المتحدة .

وحدثنى زميل إسبانى قال ، إن سبب التصريح يرجع إلى جماعة البنائين الأحرار والصهيونيين .

وأضاف زميلى فى حرارة ، أن الكاثوليكية مذهب إسبانيا ، ولا يمكن أن تسمح للمذاهب الأخرى أن تقيم فيها تعاليمها وحفلاتها الدينية .

١٦ ــ زيارة العراق :

أبلغنى زميل إسبانى أن وزير خارجيته تلقى الدعوة الرسمية لزيارة

العراق ، وبذلك تمت الدعوات الموجهة من الدول العربية الست ، وأدّى زملائى العرب معى بعض الواجب نحو الوطن العربى .

١٧ - جولة زميل حول السياسة الأمريكية :

حدثنى زميل أجنبى نابه ، متضلع من سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ، إذ مثّل دولته فيها عدة سنين ، فقال : إنه علم من الدوائر الرسمية هنا ، أنه عقب إدلاء الرئيس ترومان بتصريحه غير الموفق ، اتصلت السفارة الأمريكية بمدريد على الفور بهذه الدوائر ، وأبلغتها أن ليس هناك أى معنى لهذا التصريح .

وذكر محدثى أنه خبر عن كثب العقلية الأمريكية ، فإنها تصاب بنوبات عصبية فى أثناء الانتخابات ، ولذلك فإن الرئيس ترومان لا يقصد من هذا التصريح إلاّ كسب النقابات العمالية فقط ، وهى التى أنجحته فى الانتخابات السابقة ، فإذا ما انتهت هذه النوبات ، عادت الأمور إلى مجراها الطبيعى للاتفاق مع إسبانيا ، فقد سبق أن قرر خبراء الحرب الأمريكان ضرورة الاعتماد عليها من الوجهة الحربية ، ولذا ستصل إلى مدريد اللجنتان العسكرية والاقتصادية ، اللتان ستعاونان السفير الأمريكى الجديد ، غير أنه لا ينتظر إتمام أى شىء جدى إلاّ بعد إجراء الانتخابات .

وأضاف محدثى أنه سبق أن أبدى لأحد الشيوخ الأمريكان البارزين خطأ السياسة الأمريكية التى تنتهجها إزاء إسبانيا ، فإنها تتدخل فى شئونها الداخلية ، مخالفة فى ذلك أحكام ميثاق الأمم المتحدة ، وأنه لا يجوز أن يبرر التدخل باعتبار أن إسبانيا غير عضو فى المنظمة ، فإن عدم التدخل فى شئون داخلية الدول مبدأ مسلم به فى الميثاق ، فيجب الأخذ به .

ونظراً لخبرة زميلى فى الشئون الأمريكية ، استطلعت الدوائر الرسمية هنا رأيه فى فوز الرئيس ترومان للرئاسة هذه المرة ، فأجاب بأنه يرى أن هناك صعوبات قامت أمامه ، فقد ذاعت شائعات كثيرة حول بعض من اصطفاهم وقفز بهم إلى مناصب الحكم ، واشتدت وطئة الغلاء ، فلا بد من وضع حد لهذا الانفاق الهائل على المساعدة لأوربا ، وإنه يعتقد أن شخصية الرئيس ترومان قوية ولكنها ليست خارقة حتى تكتسح أمامها منافسيها . وإن كان الجنرال أيزنهاور حاضراً بأمريكا وقت الانتخابات فستكون له فرصة أكبر ، وأما المستر تافت فترمى سياسته إلى العزلة المعتدلة فيقصر العون الأمريكى على الدول ، التى يتأكد من مساعدتها لأمريكا فى الحرب القادمة ، كما ترمى إلى تخفيف حدة الغلاء المتزايد .

وختم محدثى كلامه بأن المستر أتشسن، وزير خارجية أمريكا ، عدو للنظام القائم بإسبانيا ، وأنه ولا شك يؤثر كثيراً فى سياسة الرئيس ترومان، فإذا ماسقط الأخير فى الانتخابات، فسيقصى الأول عن منصبه .

١٨ ـ مقال عن إسبانيا واليهود :

نشرت صحيفة شهيرة باتزانها وقدرها ، مقالاً خاصاً بإسبانيا واليهود ، وخشى الزملاء العرب من أن يكون تمهيداً للاعتراف بإسرائيل ، ولا سيما أنه قد أذيع أنه كتب بإيحاء من الدوائر الرسمية ، فهناك ضغط من جانب أمريكا فى هذا الصدد .

فهرع الزملاء العرب فرادى ، بهجوم موفق مشكور ، درءاً للخطر قبل وقوعه ، فأكدت الدوائر الرسمية بأنها لم تبدل سياستها إزاء عدم الاعتراف بإسرائيل ، وبأن هذا المقال كان موضع استيائها .

١٩ ـ مع أمريكى مسئول :

حدثنى أمريكى مسئول قال ، إنه لم يفاجأ بعدم ترشيح الرئيس ترومان لنفسه فى الانتخابات للمرة الثانية ، فقد سبق أن علم منه شخصياً بوشنطن أنه قد كدّ وأجهد نفسه ، فأدركه الإعياء ، ولذا فهو يفكر فى أن يرتاح الأيام الباقية من حياته .

ويثق محدثى من أن خلف الرئيس ترومان سيسير على سياسة سلفه ، القاضية بنبذ سياسة العزلة ، وأنه من اليسير العثور على الخلف الصالح ، فإن بلاده غنية بالقادة الذين أعدتهم لحمل رسالة قيادتها ،

فإذا ذهب رئيس ، حل محله آخر جديد بتولى عجلة القيادة فى حذق وحرص وسلامة .

ويرى محدثى أنه إذا مات ستالين ولم يخلفه زعيم فى قوته ، فإنه يخشى أن يفلت الزمام من يده ، وقد يغامر بقذف الاتحاد السوفيتى فى حرب ، لينال مجداً كالذى ناله ستالين .

٢٠ – زيارة سمو الخليفة الحسن بن المهدى :

تسير حركة الحكم الذاتى فى المنطقة الخليفية سيراً حثيثاً ، وتاتى كل عطف وتأييد من الدوائر الرسمية الإسبانية فى النظام الحالى ، على عكس ما سارت عليه الحكومتان الملكية والجمهورية السابقتان ، وذلك بسبب الضعف الذى انتاب جهاز الحكم فيهما .

وفى جو من الود القائم بين هذه الدوائر والمنطقة المذكورة ، تمت زيارة سمو الخليفة الحسن بن المهدى لمدريد فى أوائل ١٩٥٢ ، ونزل ضيفاً بقصر الباردو .

وعلمت من ثقة أن هذه الزيارة أسفرت عن توافق فى وجهات النظر ، وتوافق على بعض الأسس التى ستسير عليها السياسة المقبلة فى المنطقة نحو الحكم الذاتى تدريجاً ، على أن تبقى الشئون الخارجية والدفاع فى يد إسبانيا .

وأحدثت هذه الزيارة هزة فى الدوائر الدبلوماسية ولا سيما الفرنسية ،

التى كانت أكثر حساسية من غيرها ، فدأبت تردد أنها لن تؤدى إلى أى اتفاق ، إذ أن سمو الخليفة نائب عن سلطان مراكش فى هذه المنطقة ، ولم يفوضه السلطان بذلك ، فلم تحد السياسة الفرنسية عن مبادئها التقليدية التسلطية ، وبدلاً من أن تؤيد سياسة إسبانيا الصداقية فى المنطقة الخليفية راحت تناوئها وتحبطها .

وإنى لواثق من أن إسبانيا بعيدة النظر فى سياستها ، وقد لمست ذلك من الدوائر الرسمية ، وستفعل كما فعلت أمريكا مع الفلبين ، التى كانت مستعمرة إسبانية منذ القرن السادس عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر ، فنزلت إسبانيا عنها إلى أمريكا ، التى أعدتها للاستقلال فى أقل من نصف قرن ، فأعلنت استقلالها فى ١٩٤٦ ، ففقدت السيطرة السياسية عليها ، ولكنها فازت بما هو أجل وأنفع ، ففازت بصداقة قلوب أهلها البالغ عددهم نحو عشرين مليوناً ، والتعاون معهم اقتصادياً ، وقد تطوع منهم الكثيرون عن طيب خاطر لمؤازرتها فى حرب كوريا .

ولا ريب فى أن إسبانيا الحديثة ستؤثر الفوز بصداقة قلوب أهل المغرب والعرب جميعاً ، ولا سيما أن العالم الآن فى صراع مبيد بين الدينية واللادينية بين الآدمية والعبودية [1] .

(١) وبعد انتهاء بعثتى الدبلوماسية بمدريد بثلاث سنوات ونصف ، اضطرت فرنسا فى ٢ مارس ١٩٥٦ ، أمام الكفاح الوطنى المجيد ، إلى الاعتراف باستقلال مراكش

٢١ – زيارة الوصى على عرش العراق :

قدم مدريد سمو الأمير عبد الإله ، الوصى على عرش العراق ، فى ٨ مايو ١٩٥٢ فى زيارة رسمية ، فاستقبلته إسبانيا ، رئيساً وحكومة وشعباً استقبالا حاراً ، فشيمة الإسبانى إكرام الضيف ، ولا سيما أن الضيف أمير عربى عريق ، وقد امحى أثر التسلطية العربية منذ عدة قرون ، وتركت وراءها أجمل الذكرى فى النفوس .

وأتت هذه الزيارة تمشياً مع السياسة الإسبانية التى اختطتها والقاضية بالتقرب إلى الدول العربية ، بغية تحطيم الحصار الذى ضُرب عليها ليحول بينها دون أعضاء الأمم المتحدة .

ولا توجد علاقات اقتصادية تذكر بين العراق وإسبانيا ، ولا يوجد له فيها مواطنون ، إلا أنه ارتأى أن تختص مدريد برئيس بعثة دبلوماسية ، وذلك ابتغاء إنشاء علاقات اقتصادية ، والفوز بالنفوذ الإسبانى الأدبى فى دول أمريكا اللاتينية ، فتكسب أصواتها فى الأمم المتحدة ، ولا سيما أن

فيما يتعلق بالمنطقة السلطانية ، فزال ما كان يعوق إسبانيا من قيام معاهدة ١٩١٢ ، فاعترفت إسبانيا أيضاً فى ٧ أبريل ١٩٥٦ بذلك فيما يتعلق بالمنطقة الخليفية ، وذلك فى دبلوماسية حكيمة ، ودون إراقة دماء ، فلم يبق فى جسم مراكش سوى شوكة « طنجة » ذات الصبغة الدولية ، فمن أصالة الرأى الدولى أن تزال هذه الشوكة ودياً ، قبل أن ينتزعها أهلها الأبطال قهراً .

لدى الدول العربية مشكلة المشاكل ، ألا وهى إسرائيل ، فهى شوكة حادة سامة قد غرزت فى جنب العروبة ، فأخذ الدم يقطر أسود ، مما جعل حياتها فى خطر ، ويهددها الموت بالتسمم من حين لآخر ، ولذلك فإنها لحافظة الجميل لإسبانيا ، إذ أنها لم تعترف بها بعد .

ونشط الزملاء الأجانب ، كعادتهم ، ليمدوا حكوماتهم بتقارير وافية عن الزيارة ، وقد ذاعت شائعة غريبة نقلها بعضهم ، وهى أن الأمير ستزول عنه وصاية العرش قريباً ، وأنه يسعى لاعتلاء عرش مراكش ! !

وزار سمو الأمير المدائن ذوات التاريخ العربى ، وعقب الزيارة أعجبت الدوائر الاجتماعية بكرم سموه ونفحاته ، فقد أحيا ما يدور فى الأذهان ، وتردده الألسنة من القصص القديمة عن كرم أمراء العرب ، فتمد تمنى واسعو الخيال والحالمون بالثراء ، أن يقيم الأمير بينهم طويلا حتى يفك الطلاسم عن الكنوز المسحورة والدفينة فى أجواف الجبال . . .

كم يداعب الخيال أقلام الدبلوماسيين فى التقارير والمذكرات ، فتنسج أقلام منه قصصاً ، وتتخذ أخرى منه مادة للتخريج واستنباط الحقائق .

٢٢ ـ توارد الخواطر :

فى يوم ميلادى الخامس والخمسين قد أرقت ، وحاولت النوم فلم

أستطع استهواءه، فجال فى المخيلة خاطر ، وقمت إلى القلم فسطّر النفثة التالية :

فى جنة الدبلوماسية ونعيمها ، وقد ازدانت الرأس بتاج السفيرية ومباهج الدبلوماسية ، وغاصت الأقدام فى الطنافس الوثيرة ، ألفيت نفسى حبيسة فى قفص ، قد رُكّب من ذهب ، ورصّع بالأحجار الكريمة ، وراحت تبغى سدى الخلاص من فجوة تفتحها بين الأسلاك الذهبية فترتطم بها، فتقع لاهثة خائرة ، آنّة نائحة ، فإن غنّت ، شَدَتْ لحناً حزيناً تنشد فكاك الأسر ، والتحليق فى الفضاء بالرغم من عواصفه وزمهريره وقيظه ، لترتمى بين أحضان الطبيعة حرّة ، طليقة تردد أنغام الكون ، من ألحان الإنسان ، وأصوات الحيوان ، وحفيف الأشجار ، وخرير الأمواج.

وما كادت هذه الزفرة تخرج من الصدر ، حتى استولى الكرى على جفنىّ ، فذاق الجسم حلاوة النفس الطليقة .

ومن توارد الخواطر ، قرأت بمصر بعد انتهاء بعثتى فى إسبانيا ، فى صحيفة الأخبار الصادرة فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٣ ، لمراسلها فى روما ، أن السيدة كلير بوث ليوس (Clare Boothe Luce.) ، سفير [١] الولايات المتحدة الأمريكية بروما ، كتبت فى مذكراتها اليومية ما يلى :

(١) فى اللغة الدبلوماسية تطلق كلمة « سفيرة » على زوجة السفير . وكلمة « سفير » على المرأة التى تتولى منصب السفير .

« لقد فقدت اهتمامى وشغفى بالناس وبالمسائل والأماكن التى تثير اهتمام الناس عامة . . . إننى أشعر بأننى حبيسة فى قفص، ولكننى لم أعد أشعر برغبة فى أن أضرب بجناحىّ فى القفص ، أو أغنى كما يغنى الطير ».

فما أعذب صدًى فى الغرب سبق أن تردد صوته فى الشرق ، وواعجبا فقد تقابل الضدان ! !

فمرحباً بك أيتها الزميلة العزيزة فى الدبلوماسية والكتابة ، مع أطيب التمنى بأن يُفتح لك بابُ القفص وشيكاً وقد وقفت فيه منذ عهد قريب ، فتنطلقى منه كالسهم ، لتحطّى على أعلى فنن فى جنة السفارة ، وتغردى كما تغرد الأطيار .

فكلانا فى الطلق مغرّد صدّاح .

الباب الثالث

ختام بعثتى الدبلوماسية

من يولية إلى أول نوفمبر ١٩٥٢

١ ـ مع زميل أجنبى معتمد بلندن :

قدم المصيف بسان سباستيان الزميل الأجنبى المعتمد بلندن ، فسعدت وزملائى بلقائه وفيض آرائه ، وسألناه عن تطور الحالة هناك منذ أن حدثنا عنها فى الصيف الماضى .

فأجاب بأن المستر تشرشل ، رئيس الوزراء ، قد نجح فى تخفيض أثمان بعض المواد الغذائية الأسياسية ، فإذا استمر فى النجاح فى برنامجه الاقتصادى ، فإن حزبه سيستمر فى الحكم حتى انتهاء الخمس سنوات ، وإن أخفق ، اضطر إلى إجراء الانتخابات ، ومن المحتمل أن يفوز حزب العمال ، ما لم يزدد التصدع بين صفوفه لوجود خلاف مستحكم بين أنصار المستر أتلى والمستر بيفان .

٢ ـ توارد الأمثال :

فى حفلة مصارعة الثيران بالمصيف ، كاد ثور هائج يفترس مصارعاً ، فقد طرحه أرضاً ، وأخذ ينطحه فى عنف مراراً ، فشوهد وكأنه جثة هامدة ولم ينقذه من الهلاك سوى مساعديه ، وقد هجموا على الثور من كل صوب يلهونه بمواثرهم حتى أبعدوه عنه ، وحملوا المصارع من الساحة إلى الداخل ، بين تصفيق الجمهور المتحمس إعجاباً ببسالته ، فلم تمض بضع دقائق حتى عاد ليتم المصارعة ، فجن الجمهور صراخاً وتصفيقاً ، فسمعت جارى الإسبانى يصف هذا المصارع الباسل بأنه كالقطط ، له سبع أرواح . فقلت له إن لدينا مثلا شعبيًّا مشابهاً .

وتابع جارى إعجابه بالمصارع قائلا ، إن الشدائد والمواقف الحرجة تظهر معدن الرجال ، كما جاء فى المثل الإسبانى ، بأن الشهامة لا تعرف جودتها إلا إذا قطعت ، فعلقت على ذلك بأن لدينا أيضاً مثلا شعبياً بهذا المعنى .

وهكذا تواردت الأمثال ، فدلت على أن هناك عوامل متشابهة قد ترجع إلى الصلات التاريخية .

٣ ـ ثورة جيشنا وعزل الملك فاروق :

قامت الثورة فى بلادى على يد جيشها الباسل فى ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ وقد كنت بالمصيف ، وأبلغنى النبأ زميل أجنبى سمعه بعد الظهر من محطة إذاعة لدولته ، ثم عزل الملك السابق فاروق فى ٢٦ يولية سنة ١٩٥٢ ولم أتلق تفصيلا عن ذلك من القاهرة ، وقامت الصحافة الفرنسية بمؤونة التفصيل فى إسهاب ، فقد أخذت تنشر من الخفايا ما يندى له الجبين ، وذاع ما كانت تلوكه الألسنة همساً بعيداً عن سمع السفير ، فانكشفت الأحاجى ، وانفكت الرموز المغلقة ، ورأيت أن أجمع فى هذا البند ما سبق أن صوره القلم أثناء بعثتى فى إسبانيا من أفلام غير محمضة ، فأتت ثورة جيشنا الباسل فألقت عليها الحامض ، فظهرت الصور واضحة للعيون بين باهتة وسوداء : —

(ا) زيارة الملك السابق للمصيف :

كان الملك السابق فاروق يصطاف فى صيف ١٩٥٠ بفرنسا بصفة غير رسمية ويحمل جواز سفر دبلوماسياً باسم مستعار ، وأشيع أنه سيزور إسبانيا غير أننى لم أتلق خبراً عن ذلك من القاهرة ، بل تلقيت تعليمات بأن أشترك فى المؤتمر الدبلوماسى المزمع عقده بباريس يضم السفراء والوزراء المفوضين المعتمدين فى أوربا ، فايقنت أن إسبانيا لم تدخل فى برنامج الزيارة الخاصة

فسافرت فى سبتمبر ١٩٥٠ من المصيف بالسيارة إلى باريس ، وما كدت أسعد بالإقامة يومين بالعاصمة الساحرة ، حتى تلقيت مكالمة تليفونية من زوجى بمدريد، تخبرنى أن الملك السابق وحاشيته سيصلون فى اليوم التالى إلى سان سباستيان قادمين من بيارتز ، فاتصلت بأحد المسئولين ، فطلب إلىّ العودة فوراً إلى مقر عملى ، ففعلت وعدت إلى المصيف ، ونزلت فى الفندق الذى نزلوا فيه ، ولما استعلمت عما تم من الإجراءات المتبعة بشأن الحراسة والمساعدات اللازمة ، قيل لى إن كل شيء قد تمّ مباشرة بين حاشية الملك السابق والسلطات الإسبانية ، وإن أسماء نزلاء الفندق قد فحصت ، فلم أتصل بالحاشية لأنها كانت فى غير حاجة إلىّ .

وأخبرنى زميل إسبانى أن الملك السابق تفضل فدعاه إلى مائدته ، كما أهداه كمية قيمة من فاكهة المانجو الفاخرة ذات الرائحة الزكية ، وهى فاكهة لا تنبتها إسبانيا ولا تستوردها ،وأضاف فى ظرف بأننى لا بد وقد دعيت إلى مائدته وتذوقت المانجو ، فأجبته بأننى لم أحظ بهذا الشرف العظيم . . .

وأسف قلمى لأنه حرم من مادة ثمينة لمذكراتى ، وراح يعتب على النفس لأنها لم تحسن الملق إلى البطانة ، ولم تتكيف بمستوى عقليتهم ، فلم تحظ بشرف المجالس الخاصة ، والاطلاع على الأسرار الخفية ، فأضاعت فرصة ذهبية ، فما عليها إلا أن تلزم المكان الرسمى فى الحدود الضيقة .

وفوجئت فى أثناء هذه الز يارة بأن استدعانى زميل إسبانى ،وأبلغنى وهو قاطب الوجه ، أن الملك السابق سمح للسيدة الإسبانية فلانة بأن تحادثه وتجالسه ، وهى معروفة بعدائها للنظام القائم بإسبانيا ، وقد سبق اعتقالها والإفراج عنها ، وأن الحكومة ارتأت إبلاغ ذلك إلى الملك السابق .

وانصرفت من عنده والنفس كسيرة لأن رئيس الدولة قد ابتعد عن سفيره فوقع فيما لا يقع فيه دبلوماسى بادئ ، و بعد أن أفقت من هذه الصدمة الأليمة ، حررت مذكرة بذلك ووضعتها فى مظروف وسلمته إلى أحد الأمناء بالحاشية .

و إذا بالملك السابق يلقانى فى بهو الفندق وهو عابس ، وأمرنى أن أبلغ زميلى الإسبانى ، بأنه تلقى التبليغ ، وأنه كان يعلم من قبل الموضوع بحذافيره ، وأنه يعرف ما يفعله .

فازددت حيرة ، وثقلت مهمتى على النفس ، وقد اشمأزت من منغصات المهنة ، فيضطر الدبلوماسى إلى نقل رسالة لا يؤمن بها ، و يؤديها فى جو تختفى فيه الابتسامة ، وتزداد منه دقات القلوب .

ونفذت إبلاغ الرسالة البغيضة ، وتلقاها محدثى بوجه مكفهر ، ولم ينبس بكلمة ، فانعقد لسانى ، وساد صمت رهيب لاذع ، ولم تفلح الصفة المسرحية للدبلوماسى فى أن تدرأ هول الموقف المزرى ، وخرجت من عنده وأنا فى ذهول .

وازداد ذهولى عند ما قابلنى الملك السابق فى ردهة الفندق فى اليوم التالى ، فبادرنى ، فى لهفة وحنق ، بالاستعلام عما إذا كنت قد نفذت أوامره ، فأجبته بالإيجاب ، فتركنى مهرولاً مترنحاً طروباً مما أصابه من نصر ظاهر ، يعقبه ألم باطن من وخز السهم الذى رماه فى طيش فارتدّ إليه

وجاء بعض مراسلى الصحف الأمريكية يريدون حديثاً ، فرفض الملك السابق ذلك بحجة أنه فى رحلة غير رسمية ، فانصرفوا غاضبين .

ولم تدم الزيارة إلا أربعة أيام ، لم أسمع خلالها وبعدها إلا كل ثناء ، ونوهت عنها الصحافة بالترحاب والتهليل .

ولما انتزع جيشنا الباسل التاج من رأس الملك السابق فاروق وجرّده من سلطان العرش ومميزاته ، نطقت الألسنة الملجمة ، فجاءت تردد إلىّ ، أن الملك السابق قد تهكم القوم بأن المصيف خال من موائد الميسر ، وندم على تركه بيارتز ، وأنه أظهر امتعاضه من الطعام الإسبانى لأنه مطبوخ بالزيت ، وأنه امتعض من الآنسات اللائى كنّ يخدمن عليه فى المطعم لأن رائحة آباطهن غير مقبولة ، وأنه كيف يستسيغ استصحاب سيدات وهو أعزب ولو كنّ من المتعبدات .

وجاء زميل أجنبى مسلم متذمراً يردد سخطه من أن عاهلاً مسلماً يلعب الميسر وهو محرم .

فانهالت كل هذه النقائص على سمعى ، بعد أن ظلت مكبوته فى

قمقم أكثر من سنتين ، فأصمته . وصدق من قال إن السفير آخر من يعلم عن رئيس دولته ، وأضيف على ذلك : وأنه أول من ينقلب عليه إذا علم .

(ب) هدية تاجر السكر :

فى صيف ١٩٥١ تلقيت بالمصيف كتاباً من تاجر إسبانى بشأن مناقصة عن توريد سكر ، طرحتها حكومتى . وتقدم فيها عطاء من بيت تجارى فى إحدى دول أمريكا اللاتينية . وللتاجر المذكور وكيل بمصر ، وو ردت فى هذا الكتاب عبارة بأن البيت التجارى يرغب فى أن يقدم هدية إلى الملك السابق فاروق ، فاسترعت هذه العبارة نظرى . وظننت أن هناك صنفاً ممتازاً من السكر الشفاف تصنعه الشركة مقدمة العطاء ، كما هو الحال فى بعض الأصناف الأخرى ، كالسيجار والسجاير والزيوت وغيرها ، فرجوت الملحق التجارى للسفارة بأن يستدعى هذا التاجر ويستفهم منه عن حقيقة الهدية المراد تقديمها إلى الملك السابق . ففعل . وعلم منه أن الهدية ليست بسكر .

فثارت ثائرتى ، إذ كيف يجرؤ تاجر أن يكتب فى أمر كهذا إلى سفير فى عطاء حكومى ، ولا توجد أية علاقة مطلقاً بين العطاء والهدية ، ولا يوجد مبرر للإهداء ، ولذلك فإنه ارتكب أمراً خارجاً عن حدود الأدب

وطلبت من السيد الملحق التجارى أن يبلغ ذلك إلى التاجر ، كما يبلغه أننى قررت حذف هذه الجملة الماسة بالشرف من الكتاب ، فأتم التبليغ ، وظهرت على التاجر علامات الحرج والارتباك .

ولما قامت ثورة جيشنا الباسل فى صيف ١٩٥٢ وكنت بالمصيف ، وبانت الحقائق المرّة ، تذكرت ما خطه يراعى فى مذكراتى جاهلاً الدوافع الخفية ، فانكشف لى السر فى جرأة هذا التاجر فى توجيه مثل هذه العبارة إلى سفير عن رئيس دولته ، واستدعيت السيد الملحق التجارى وذكرته بالموضوع ، فتذكره ، ثم ساد الصمت ! ! !

(ج) قصة مهرب عالمى :

فى ربيع عام ١٩٥٢ كنت متوقعاً مكالمة تليفونية من أحد أقاربى بباريس لزيارتى بمدريد ، وإذا بعاملة تليفون السفارة تخبرنى بأن هذا القريب يريد محادثتى بالتليفون ، فرجوتها أن توصلنى به ، فلما هللت بصوتى منادياً إياه باسمه ، فوجئت بصوت شخص آخر أجنبى يتكلم الإنجليزية بلهجة أمريكية ، وأخبرنى بأنه يدعى فرناندس ، وكان فى باريس وقابل قريبى هناك ، ويريد أن يقابلنى فوراً لأمر هام .

فتولتنى الحيرة ، وأذهلتنى جرأة الطارق ، ونفرت النفس وتحرّزت من الأساليب الملتوية الخفية ، واشمأزت من ضعف الخلق ، ولا سيما أننى

لم أعرفه من قبل ، ولا تربطنى به علاقة عمل . ولم يقدمه إلىّ أحد الثقات فأجبته على الفور بأننى شديد الأسف لعدم إمكان تحديد أى موعد لمقابلته إلا بعد مراجعة المواعيد التى ارتبطت بها ، ورجوته إعطائى رقم تليفونه حتى أبلغه الموعد المحدد . فألح بضرورة مقابلتى حالاً . فكررت له الأسف ، لأن السفير أجدر الناس برعاية التزاماته الرسمية والدبلوماسية والاجتماعية ، فإن كان هناك أمر عاجل يتعلق بالعمل . فإننى أرجوه أن يقابل السيد سكرتير السفارة، فأجاب بأنه يريد مقابلتى شخصياً فى أمر هام . فأفهمته بأننى آسف ولا بد لى من مراجعة مواعيدى أولاً .

فطلب منى معرفة عنوان سيدة من أعضاء أسرة محمد على وهى موجودة بمدريد . فازدادت دهشتى من الجرأة فى توجيه هذا الاستعلام ، وأردت أن أصدّ عن هذه السيدة مباغتة الطارق الغامض الجرىء حتى ينجلى أمره ، فأجبته بأننى آسف لا أعرفه ، فعاد وألحّ فى ضرورة مقابلتى اليوم ، فأعدت الكرة من ضرورة مراجعة مواعيدى مع الوعد بتحديد موعد له فى أقرب فرصة .

وكاد إلحاحه السمج أن يمزق أعصابى اللدنة فيدفعنى إلى إقفال التليفون فى وجهه البارد ، فصابرته ولم أفعل ، وانتهت المحادثة المثيرة فى سلام.

ولم تمض ساعة على محادثة الطارق معى حتى كلمتنى السيدة من أسرة محمد على، وأخبرتنى بأن هذا الطارق اتصل بها تليفونياً وألحّ فى ضرورة

مقابلتها ، فحددت له موعداً بعد الظهر ، وقصّ عليها فى التليفون بأنه كان بمصر منذ وقت قريب ، وتقابل هناك مع الملك السابق فاروق ، الذى احتفى به ، وأشركه فى مجالسه الخاصة ، وقد تعرف على بعض أفراد الأسرة وأمضى أوقاتاً ممتعة فى مصر ، لذلك فإنها تقدّر أنه متصل بالملك السابق فاروق ، إذ أنه ذكر لها بعض معلومات دقيقة عن أحد أفراد أسرتها ولكنها كسيدة وحيدة ، طلبت من إحدى سيدات أعضاء السفارة أن تحضر معها ، ثم أضافت بأنها علمت منه أننى رفضت مقابلته .

فأجبتها بأننى رفضت مقابلته على الوجه الذى يبتغيه ، ولكننى وعدته بأن أراجع مواعيد مقابلاتى وأحدّد له موعداً ، فرجتنى أن أحضر وزوجى عندها حتى أتعرف به ، فشكرتها على أنها ستتيح لى فرصة معرفة هذا الطارق عن كثب .

وختمت السيدة حديثها التليفونى معى بأن هذا الشخص بدا لها فى حديثه أنه محب للطفولة المشردة ، إذ قرر التبرع بعدة آلاف من الجنيهات لأطفال مصر . مما يدل على أنه صاحب ملايين ، وأنه تكلم معها فى التليفون حديثاً هالها طوله ، وتعجبت من أنها استرسلت معه فيه من غير معرفة سابقة ، ومع ذلك فقد لاح لها أنه خفيف الروح بالرغم من الإلحاح وإطالة الحديث . فوعدتها بالحضور مع زوجتى مع الشكر المزيد .

وازدادت دهشتى ، وأيقنت أننى أمام شخصية جبارة ، تتقن الزوغان

وتنمّ عن الدهاء وسعة الحيلة ، فقد رفضت الإفضاء بعنوان هذه السيدة ، ومع ذلك فقد توصلت إلى معرفته على الفور ، ولذا فإنها تستأهل التقرى واستجلاء غموضها المريب .

وذهبت مع زوجتى فى الموعد المحدد إلى الداعية ، وحضر الطارق الغامض ، فإذا به قد ناهز الخمسين ، متوسط القامة ، نحيف الجسم ، أسمر اللون ، ذو جبهة عريضة فى وجه مستدير ، شعر رأسه خفيف ، له عينان واسعتان لامعتان تدلان على الذكاء والدهاء ، وقد جلس بجانبى ثم بادرنى بأنه مقدر لظروفى ، وبدأ صوته الحزين يردد بأنه بائس عاثر الحظ إذ أنه يملك الملايين ولا يملك قلبه الحب ففقد السعادة وحلاوة الحياة . وأنه وُلد بائساً ، إذ أن أباه كان من كبار الأشراف الإسبان ، وهنا توقف برهة وأسرّ فى أذنى اسم الأسرة النبيلة التى ينتمى إليها أبوه ، ثم استطرد يقول إن أباه تزوج من أمه عن حب وكانت من عامة الشعب ، فخالف بذلك تقاليد النبالة ، فهاجت الأسرة وصبت جام غضبها على أمه وأبيه وأقصتهما من حظيرتها ، ولما أنجب هذا الزواج الشعبى ولداً واحداً ، وهو الطارق الراوى ، زادت الأسرة الشريفة للوالدين اضطهاداً ، إذ تلوث دمها بدم العامة ، وعند ما بلغ الابن المنبوذ السادسة ، هاله تحقير أمه الفقيرة العفيفة الطاهرة ولا عيب فيها سوى أنها من عامة الشعب ، فزاد ألمه ، وجن جنونه ، واعتزم أن ينتقم لأمه من أسرة أبيه المتعجرفة ، وذلك بأن يبنى

بساعديه مجداً لأسرة أمه يفوق الشرف التليد لأسرة أبيه ، ونوى الرحيل إلى أمريكا ، فاندس خلسة فى سفينة ببرشلونة ، وأبحرت به وهو الصبى فى السادسة حتى رست فى نيويورك ، فتمكن من النزول إلى البر وتاه فى المدينة الزاخرة ، وقاسى الأهوال ، فكان يبيت فى الشارع ، ويعمل فى أحط الأعمال ، واستمر فى شق طريقه الوعر فى الحياة وحيداً طريداً ، لم يذق تحنان الوالدين ، ولم يدخل مدرسة فحرم من نعمة القراءة والكتابة وبقى أميًّا حتى الآن ، وتلاقفته أمواج الحياة المتلاطمة وهو الطريد المسكين ، فخالط الإرهابيين الأشرار ، وعاشر العظماء والوجهاء وذوى السلطان ، وارتكب الشر ، وفعل الخير ، وغامر فى ميدان المال ، فأثرى إثراءً خارقاً ، وفقد ثرواته الضخمة مرّات فذاق علقم الفقر مراراً ، وإنه يملك الآن الملايين ، ولديه طائرة خاصة ، وإنه قدم إسبانيا لأول مرة منذ غادرها فى السادسة من عمره ، وذلك بناء على طلب الحكومة الإسبانية ، لأنها فى حاجة قصوى إلى قرض كبير من الدولارات ، وهكذا فقد أرضى كبرياءه ، واسترد شرف أمه ، وعاد إلى وطنه مرفوع الرأس ، يجلّه الجميع ، ويخطبون وده لثرائه الضخم ، فهو يملك مناجم عديدة للفحم والحديد فى أمريكا الجنوبية ، ويسهم فى شركات كثيرة ، ولكنه يحسّ بالشقاء لحرمانه من الحب ، فقد جرفه تيار المال الجارف فأعماه عن الحب فالزواج ، والآن وقد امتلأت خزائنه وطعن فى السن ، فلن يجد إلاّ الغادة

الجميلة التى تعبد ماله وتمقت شيخوخته ، وتتمنى موته ، لكى تتزوج من شاب مثلها . فهو من الزواج المثالى يائس ، وفى الحياة المترفة بائس . لذلك أقام من نفسه نصيراً للطفولة العالمية اليتيمة البائسة ، التى فقدت حنان الوالدين ، وأذلها الفقر وشح الأغنياء ، ونساها المجتمع ، فنالت من ماله كل عطاء ، ولما زار مصر أخيراً وقابل الملك السابق فاروق ، أخذته الرحمة بطفولة مصر المعذبة فقدّرلها تبرعاً سخيًّا يقدر بعدة آلاف من الجنيهات ، وهنا توقف الطارق المتحدث برهة عن الكلام وأطلعنى على بضع قصاصات من الصحف المصرية التى تصدر بالفرنسية تشيد بهذه النزعة الإنسانية العالية . ثم استمر قائلاً إن الملك السابق قد زاد فى الترحيب به وأن السيدات المصريات بارعات فى الجمال ، وأن مجالس الملك السابق أنيسة وسهراته رائعة ، يزيدها جمال الغيد فتنة وسحراً ، وتمنى فى حسرة أن يتزوج واحدة منهن ولكن هيهات . . . وقد حرم الحب .

وكان حديثه جذّاباً يغرى الرجال فما بالك بالسيدات ، فهناك ملايين الدولارات ، وطائرة خاصة ، ومناجم فحم وحديد ، ومجالسة الملوك ، ومصادقة ملوك المال ، وإقراض الحكومات بعد استجداء . فألفيت نفسى أمام شخصية عجيبة تزداد غموضاً ، فنحتاج للكشف عنها إلى جهود إدارات الأمن الدولية ، فدار رأسى ، وخطر لى أن أسأله عما إذا كان قد قام بالتبرع إلى الطفولة المصرية المعذبة . فأجاب فى هدوء بأنه لم يفعل ،

لأن هناك هيئتين اختلفتا فيما بينهما على أيهما أحق بالتبرع ، فبدأت الريبة تتسرب إلى نفسى ، فهناك أقوال لم تؤيدها أفعال ، فلم أجادله فى الأمر الواضح ، ففى استطاعته ، إن كان صادقاً ، أن يسلم التبرع إلى الحكومة المصرية لتتولى توزيعة وفقا للمصلحة العامة . ثم سألته عن كيفية إدارته الملايين والأعمال الكثيرة وهو أمىّ ، فأجاب بأن لديه سكرتيراً خاصاً ، وهو موجود مع ملاحى طائرته الخاصة الراسية فى ميناء باريس الجوى ، لكى يتمتع معهم بالحياة الصاخبة هناك .

ودعا صاحب الملايين الغامض جميع الحاضرين إلى العشاء ، وكلهم من أعضاء السفارة وزوجاتهم والسيدة من أسرة محمد على ، وترك لهم اختيار المطعم لأنه غريب عن مدريد ، فوقع الاختيار على مطعم فى الضواحى ، ولما هممنا بالرحيل ، تأبط الطارق ذراعى وهمس فى أذنى بأن أحتفظ بسرية استدعائه لإسبانيا لإقراض الحكومة الإسبانية ، وأضاف بأنه يأسف لعدم تكلمه الفرنسية التى تجيدها سيدات السفارة ، وانتقل إلى موضوع آخر لا علاقة له بالحديث ، إذ ختم كلامه بأنه يمقت الأمريكان مقتاً شديداً .

ولما اجتمعنا على باب الفندق للذهاب إلى المطعم ، ألفينا سيارة فخمة تنتظر الداعى الغامض مع سائقها بملابسه الأنيقة ، واستعلم منا الداعى عما إذا كان هناك أحد فى حاجة إلى ركوبة ، فأجيب بأن لدى الجماعة عدداً زائداً من المقاعد فى سياراتهم فلا حاجة إلى سيارته ، فصرف السائق ،

وغمره أمامنا بحفنة من أوراق النقد بشكل واضح يكاد ينبئ بأنه مقصود ليظهرنا على مقدار غنائه الواسع وعطائه الجزيل .

ولما كانت الدوائر الدبلوماسية بمدريد تعلم أن مركز إسبانيا المالى سليم وأنها ناجحة فى سياسة الاكتفاء الذاتى منذ قيام نظامها الحالى فى ١٩٣٦ ، فاستغنت عن المعونات الدولية ، و بالتالى فهى فى غير حاجة إلى دولارات صاحب الملايين المزعوم . كما أنها فى مفاوضات مع أمريكا تبشر بالنجاح فلذلك أخذت شخصية هذا الطارق الغامض تتبلور فى مخيلتى بأنه مغامر خطر ، وثعلب ماكر ، يبحث فى الخفاء عن فريسته لينقض عليها فجأة من حيث لا تشعر ، فلا تستطيع مقاومة أو استنجاداً . فأخذت النفس تزداد نحوه حيطة وشكًّا ، وتحس بعدم الثقة به ، والنفور منه . ودعوته للركوب معى بالسيارة ، فإذا به يسألنى فى الطريق عن رأيى فى الحب والمال فأجبته بأن الاثنين لا يجتمعان ، وإذا وفّق مخلوق إلى الحب فإنه يزهد فى المال ، فأخذ يهذى بأنه مستعد لأن يضحى بملايينه إزاء السعادة الزوجية ، فأردت أن أزيد فى الكشف عن حقيقة أمره ، فرثيت لحاله ، وشبهته بسيدة أجنبية صديقة ، جاوزت الثمانين من عمرها ، وتزوجت مراراً ومات أزواجها جميعاً وورثت عنهم ثروات مكدسة ، وكانت تحب زوجها الأخير حبًّا صادقاً ، حتى إنها أبت الزواج من بعده ، وقد تقدم إليها العديدون من ذوى المناصب العالية والجاه العريض والثراء الكثير ، وهى

تعيش وحيدةً تتنقل من بلد إلى آخر ، تبكى وحدتها وشقاءها بالرغم من ثرائها وكثرة من يتوددون إليها وقد جذبتهم المادة ، ويحلم كل منهم بأن يكون المحظوظ الذى ستهبط عليه ثروتها .

وكنت أقص رواية هذه السيدة العجوز الغنية غير موجه الكلام إلى الطارق الغامض ، فما كان منه إلا أن خرج من توجعه وعويله ، وشخص بصره ، واستعلم منى فى لهفة عن اسم هذه السيدة ومحل إقامتها ، فأجبته بأن ليس لهذه السيدة محل إقامة ، فإنها دائمة التنقل ، لتخفف عن نفسها آلام الوحدة وافتقاد الزوج الحبيب . فلعل الطارق الغامض فهم أننى أضلل الثعلب عن فريسته .

ولاحظت أن الطارق المغامر كان على المائدة دائم الحركة ، لا يستقر برهة من غير أن يلتفت فى سرعة يمنة ويسرة ، فهل كان يبحث عن فريسة أو يخشى الغيلة من المطاردين ؟

وأخرج المغامر من جيبه قطعة ذهبية من النقود ، مستديرة وصغيرة الحجم إذ يبلغ قطرها حوالى خمسة عشر ملليمتراً ، وعرضها على السيدات ، فأعجبن بها ، وظن الجميع إنها قطعة نقود أثرية ، فإذا به يكشف غطاءها عن ساعة ، قائلاً إنها أصغر ساعة فى العالم ، قد صنعت خصيصاً له بثمن باهظ ، وكان لديه أخرى أصغر منها ، ورآها الملك السابق فاروق بمصر فأخذها منه .

واستدعى المغامر الساقى ، وطلب منه أن تعزف جوقة الموسيقى الراقصة بعض قطع خاصة ، فلبت الجوقة رغبته ، فتقدم قبيل الانصراف إلى رئيسها ونفحه أمام الحاضرين مبلغاً كبيراً من المال ، كما أجزل العطاء إلى الساقى الذى قام بخدمتنا ، وسأله إذا كان فى استطاعته أن يفك له دولارات ببيزتات ، فأجابه بالنفى .

وعند الانصراف أعلمنا المغامر أنه ينزل ضيفاً على أسرة إسبانية من الأشراف الأثرياء ، ورجانا أن نوصله إلى دارها . إذ أنه لا يعرف مدريد ففعلنا ، ووقفت السيارة أمام دار فخمة ، ودق الجرس ودخل الدار . وتركنى فى ذهول ، لأنه ينزل ضيفاً على إحدى الأسر الأسبانية الشريفة واسعة الثراء . فهل هذا يدل على أنه شخصية محترمة لها وزنها الاجتماعى ، أم أنه ضرب من ضروب إجادة التمويه فى الاحتيال ؟ الحق لقد اختلط علىّ الأمر ، وكدت أخطئ نفسى فى استنتاجها عنه وإحساسها نحوه .

وهدانى التفكير إلى أن أسأل بعض زملائى من ممثلى أمريكا الجنوبية عن صاحب الملايين المزعوم ، الذى يملك مناجم فحم وحديد فى بلادهم ، فألفيتهم جميعاً لا يعلمون عنه شيئاً .

وخطر على بالى أن ألجأ إلى زميل أجنبى تربطه صداقة وثيقة بالأسرة الإسبانية الشريفة التى أضافت المغامر ، فرويت له ما حدث لى معه ، ورجوته أن يوافينى من هذه الأسرة الكريمة بما ينير أمامى الطريق وقد

ازداد ظلاماً ، وأبنت للزميل أنه أعلم بمركزنا الدقيق نحن الدبلوماسيين ، وما جبلت عليه نفوسنا من الحيطة التامة إزاء كل شخصية أجنبية نتصل بها لأننا لانملك من حريتنا شيئاً ، فاتصل بالأسرة المذكورة وأفادنى بأنها لا تعلم عنه شيئاً ، وأن سبب اتصالها به وإضافتها إياه إنما يرجع إلى أنه تعرف بباريس منذ عهد قريب بأحد أفراد الأسرة ، وأن المغامر قد أخبر الأسرة أنه صديق حميم لسفارتى مصر بباريس ومدريد ، فشكرت للزميل فضل بيانه ، إذ أنار لى الطريق ، فوضحت لى الحقيقة ، وصدق ما ذهبت إليه فى استنتاجى من أنه مغامر عالمى خطر .

وبعد يومين حدثنى المغامر تليفونياً قبيل الظهر وألحف فى مقابلتى على الفور لأمر هام ، فأفهمته بأنى مرتبط بمواعيد رسمية بعد الظهر ، ولذلك رجوته أن يتناول طعام الغداء معى ، فوافق .

أما وقد وضح لى أمر هذا المغامر اللعين ، فقد أخفيت فى جيبى مسدسى الصغير ، حتى أستطيع أن أدافع عن نفسى عند الحاجة . غير أنه قبيل موعد الغداء بقليل ، تحدثت إدارة الفندق الذى ينزل فيه ، بأن المغامر يأسف لعدم إمكانه الحضور لأنه اضطر إلى السفر فجأة إلى باريس ، فتنفست الصعداء ، وحمدت الله على أنه وقانى شر المقابلة وضر المقاتلة .

وزار بعض كبار مواطنى سوق أشبيلية الشهيرة ، التى تقام سنوياً

فى أبريل ، وكان أغلبهم من المغضوب عليهم من الملك السابق فاروق ، وقص علىّ أحدهم ، أن هذا المغامر قابلهم هناك، فأقحم نفسه عليهم من غير معرفة سابقة ، وأدهش البعض برواياته المثيرة فأنسوا إليه وسمحوا له بمجالستهم ، إلا واحداً منهم أبى التعرف إليه . والجلوس معه ، لأن له مركزاً ماليًّا خاصًّا ، ويخشى أن يكون الرجل دجالاً . فيستغل ظرف الاتصال به ، فيوقع غيره فى حبائل نصبه . فأمنت على تصرفه . ورويت له قصتى معه ، فوافق على مسلكى .

وسافرت وأسرتى لمشاهدة هذه السوق الفريدة فى بابها وبهجتها ، والتى يؤمها السائحون من كل فج . وبينما كنت فى ردهة الفندق إذ بالمغامر يهرع إلىّ ، ويعانقنى فى حرارة أمام النزلاء الكثيرين . معتذراً بأنه يأسف لسفره المفاجئ إلى باريس ، فكظمت الغيظ . ولم أعانقه أو أتحدث معه ، وتركته فى برود .

ودهشت إذ علمت أنه أضاف بالفندق السيدة من أعضاء أسرة محمد على والسيدة الإسبانية الشريفة ، فأشفقت عليهما . ودعوت لهما بالسلامة من حيل هذا المغامر .

وفى المساء كنت مدعوا مع بعض زملائى الأجانب إلى الحفلة التى أقامتها البلدية فى خيمتها بالسوق تكريماً لأحد كبار الأشراف الإسبان لمرور السنين العديدة على مشاهدته إياها ، وهذا الشريف الإسبانى هو

الذى يدعى المغامر أن أباه ينتمى إلى أسرته . وبينما كنت جالساً أمام المسرح أشاهد العرض البديع من الرقصات الأندلسية الرائعة ، وأستمع إلى الأغانى الشعبية الشجية . وكان الشريف العظيم يجلس بجانبى مع أسرته الكريمة . وإذا بهذا المغامر يمرق من صف الجالسين ويقف منحنياً أمامى وأنا فى مقعدى ، ويكلمنى فى أثناء العرض . واجترأ على أن يسرّ فى أذنى بأنه مدعوّ أيضاً من البلدية . ولكنه مضطر إلى ترك الحفلة ، لأنه لا يستطيع التواجد مع من تقام الحفلة على شرفه للسبب القديم المعروف ، ودعانى إلى إتمام السهرة فى أحد النوادى وفيه ينتظرنى . فلم أعره التفاتاً ، وانصرف . وبعيد منتصف الليل تركت الحفلة قاصداً الفندق حيث نمت قليلا وغادرت البلدة فى الصباح المبكر ، فلم أر وجه المغامر ، ولم ألبّ دعوته ، وأغفلت الاعتذار إليه عن قصد ، وأحسست أننى آلمته بالصبر ، وفوّت عليه كثيراً من أغراضه .

وأبلغنى بعض مواطنىّ أن هذا الثرى يشكو من إساءة معاملتى له من غير ذنب جناه . ويرغب فى معرفة السبب ، فأفهمتهم بأنه ينبغى على الدبلوماسى أن يتخذ الحيطة مع من يتصل بهم فى عمله ، وقد جرت التقاليد الدبلوماسية فى مثل حالة صاحب الملايين المذكور ، أن يحتفى به ممثله الدبلوماسى ، حتى وإن كان زائراً عابراً ، وذلك بأن يجمعه على مائدته بمن هم على شاكلته من علية القوم والسفراء والوزراء المفوضين ، وأما إذا كان

قادماً لعمل خاص ، جمعه بالمختصين فيه فيقدمه إليهم ويتركه يعمل وحده بعد أن هيأ له جو المعرفة والتزكية . فإن كان عمله حكومياً اشترك معه فى الاتصال وأمده بكل معونة ممكنة . فجادلنى أحد مواطنىّ مبدياً أن الرجل معتزم التبرع بآلاف الدولارات إلى جهات البر التى ترعى الطفولة المصرية المعذبة ، فأجبته بأنه لم يتبرع إلا شفهياً ، فإذا تقدم إلىّ بالتبرع كتابياً ، فإننى أول من يرحب بعطفه ، ويحتفى به ويكرمه . غير أنه مع الأسف لم يفعل ، ولا أظنه فاعلا ، ولم يحتف به ممثله . ولذلك فإننى مصمم على ألاّ أغيّر موقفى إزاءه مهما تكن العواقب .

ويلوح لى أن الأسرة الإسبانية الشريفة التى أضافت صاحب الملايين المزعوم ، لما علمت من زميلى وصديقها قصته معى . ارتابت فى أمره ، فرفعت عنه الضيافة فنزل فى فندق فخم بمدريد .

ومضت فترة لم يعكر طيف هذا الشيطان صفو تفكيرى ، وإذا به يعود فيكلمنى تليفونياً ، وهو يتميز غيظاً من سيدة مصرية اجترأت فى مصر على أن تتقوّل عليه الأقاويل ، فأعدّ برقية بذيئة يريد أن يسلمها إلىّ لكى أتولى تبليغها إليها ، وأراد أن يقرأ علىّ ما كتبه من شتائم ، فقاطعته قائلاً بأنه يجب عليه أن يعلم ، إن كان لا يعلم . أن الدبلوماسى موجود للدفاع عن مواطنيه ، فلا يسمح لأحد أن يعتدى عليهم بالقول أو الفعل ، ولذلك فإننى غير آسف لإنهاء المحادثة ، وأقفلت التليفون فى وجهه.

وفرحت حقاً إن هناك مواطنة كريمة فاقت الرجال فى الشجاعة وأصالة الرأى ، قد عاونتنى على إغاظة هذا الشيطان ، وأتاحت لى الفرصة لكى أقفه عند حد السفهاء ، مما سيزيده على حنقاً وهجوماً ، فالنفس الخبيثة شقية وتنفس عن شقوتها بالانتقام والأذى .

وبعد يومين عاد هذا الشيطان فكلمنى تليفونياً فى هدوء وبرود وكأن لم تصبه منى أية إهانة ، يبلغنى فى وقاحة بأنه محتاج إلى بيزتات ولديه الملايين من الدولارات ، طالباً منى مساعدته ولا سيما إذا كنت محتاجاً أو غيرى إلى دولارات . فأجبته بصوت خشن بأنه كيف يجرأ على أن يكلمنى فى أمر غير مشروع . وهو الخبير فى ذلك ، وأقفلت التليفون فى وجهه لثانى مرة .

وبعد بضعة أيام عاد هذا الشيطان الرجيم فحادثنى تليفونياً بصوت رقيق متزن ، وكأن لم تحدث له منى أية قطيعة ، راجياً أن أوفد إليه بالفندق سيدات أعضاء السفارة ، لأن لديه مفاجآت سارة لهن ، فأجبته على الفور بأننى لا أفهم ما يقول ، وأقفلت التليفون لثالث مرة فى وجهه الصفيق .

ثم أعاد هذا الشيطان المتجول مضايقاته البغيضة ، فكلمنى تليفونياً فى حياء وتوسل ، راجياً أن أسمح بأن أقابله اليوم بالسفارة لأمر هام وعاجل فحددت له موعداً فى الخامسة بعد الظهر ، وأخبرت حاجب السفارة بمقدمه لكى يدخله إلى مكتبى فى الموعد المحدد ، واتخذت كالسابق الحيطة للدفاع عن النفس فأخفيت مسدسى الصغير فى جيبى ، إذ أن طلب هذه المقابلة

العاجلة قد أتى بعد أن تلقى منى لطمات غالبة متوالية .

وفى الموعد المحدد فتح الحاجب باب مكتبى لكى يدخل الزائر البغيض فإذا به إنسان وليس بشيطان ، إذ دخل شاب إسبانى وسيم ، أنيق الملبس ، ويحمل فى يديه حزمة ، فدهشت وطلبت من الحاجب ألا ينصرف ، فلما رأى القادم جفاء المقابلة وإبقاء الحاجب ، أرتج عليه ، وبدأ يتلعثم فى كلامه ويرتجف ، فسألته عما يريد . فأجاب بأنه لا يعلم عن الموضوع شيئاً ، وأن صاحبه فرناندس قد عهد إليه بايصال هذه الحزمة التى كلمنى عنها تليفونياً ، وهى تحتوى على روائح عطرية من باريس ، فطلبت منه أن يعود فوراً بما يحمله إلى صاحبه ليرده إليه ، ويبلغه على لسانى بأنه لا يليق به أن يطلب موعداً ويرجو ويلح فيه ، فإذا حدد الموعد أخلف وعده وأن هديته مردودة إليه مع عدم الاحترام ، فلا مبرر لها ، فضلاً عن أنه لا توجد أية علاقة بينى وبينه . فزاد ارتباك الشاب ، واعتذر أمام الحاجب بأنه لا يدرى عن الموضوع شيئاً ، ولو علم به من قبل لرفض أداء الرسالة ، وانصرف مكرراً أسفه ، فشيعه الحاجب بنظرات الاحتقار ، وصابرت النفس إزاء ألاعيب هذا الشيطان الرجيم ، الذى لم أعثر على مثله فى خدمتى الطويلة فى الدبلوماسية ، ولن أعثر عليه حتى فى القصص البوليسية فى الروايات أو دور السينما ، لأننى لا أميل إلى قراءتها أو مشاهدتها . وحمدت الله كثيراً على أنه كفانى مؤونة اللقاء مع الشيطان والنجاة من شره المحتوم .

ولم تمض ثلاث ساعات على مغادرةالشاب ، حتى صعد إلىّ الحاجب يبلغنى أن هذا الشاب قد حضر ومعه شخص آخر يدعى فرناندس ، وهما يريدان مقابلتى . فطلبت منه أن يبلغهما بأنه عرض علىّ طلبهما وأننى رفضت مقابلتهما فنفذ الحاجب الأمر ، وتمّ طرد هذا المغامر الخطر من سفارة مصر .

وقبيل النوم لجأت كعادتى إلى القلم موئلى ومستودع آرائى وانطباعاتى ، فدوّن أن هذه اللطمة قد يكون فيها فصل الختام ، فتذيب جليد وجهه القطبى ، وأنه ولا شك باحث عن جهة أخرى يرمى فيها شباكه ، وينفث سموم انتقامه منى وممن على شاكلتى ، فقد انفضح أمره ، واستحالت عليه الفريسة ، فشكرت للقلم طاعته ، ولليد كدها وصبرها ، ولله سبحانه نعمة الكتابة ، وسرعان ما غمر النوم العميق جفنىّ ، وفى الصباح أمحى الحادث من الذاكرة ، ولم يبق أثره إلاّ فى الصحف .

أولاً : المهرب والصحافة المصرية :

منذ أن طردت هذا الشيطان من السفارة بمدريد ، فقد اختفى ظله من أمامى ، ولم أسمع عنه شيئاً ، حتى طلعت علىّ ، وأنا بمصر فى التقاعد ، صحيفة « أخبار اليوم » الشهيرة الصادرة فى ٦ ديسمبر ١٩٥٢ ، تلقى أمامى بمعلومات قيمة عن هذا المغامر الخطر ، فنشرت أن أنطون بوللى ، أحد

ذوى الحظوة من حاشية فاروق ، قرر بأنه فى عام ١٩٥١ بمدينة « كان » ، قد أثار فرناندس انتباه فاروق فوق مائدة القمار ، إذ كان يكسب الملايين ويخسرها ، وأن فرناندس المذكور ، وهو أحد زعماء عصابة الكابونى المشهورة باللصوصية ، قد وشى بالكابونى لعدم دفعه الضرائب فقبض عليه وفرّ فرناندس تاركاً وراءه ستمائة مليون دولار مودعة بأسماء مستعارة فى عدة مصارف ، ثم اتفق مع فاروق على أن يوفد الأخير شخصاً ثقة إلى الولايات المتحدة بتوكيل خاص ، وأن يهرّب الأموال الموجودة بالخزائن ، بواسطة حقيبة دبلوماسية مصرية ، واشترط أن يتقاضى فاروق عمولة ١٠ ٪ ، مما يدر عليه حوالى عشرين مليون جنيه ، على أن يحضر فرناندس إلى القاهرة ويسلم مفاتيح شفرة الخزائن إلى فاروق ، فحضر المغامر إلى القاهرة وسلمها إليه فى قصر عابدين ، وأتمّ فاروق العدة لإتمام الصفقة الرابحة ، ولكنها انهارت أمام ثورة الجيش ، فكان أول شيء فكر فيه عند طرده من البلاد أن يأخذ معه مفاتيح شفرة الخزائن .

وكذلك نشرت صحيفة الأهرام الشهيرة الصادرة فى ٧ فبراير ١٩٥٣ نبأ لمراسلها بباريس يقول ، إن السلطات الفرنسية اعتقلت المغامر صاحب الملايين فرناندس ، ثم أفرجت عنه بكفالة كبيرة ، وقد صرّح لمندوب صحيفة « فرانس سوار » ، أن سبب متاعبه يرجع إلى صلته بفاروق ، ومساعدته له فى لعب القمار .

وهكذا اختلف الطرفان المتعاقدان ، فربص كل منهما بالآخر .

ووقف القلم جامداً أمام هذه الفضيحة المخزية ، ولم يتسرب الشك إلى النفس فى صحة الروايتين ، لأننى خبرت عن كثب شخصية هذا الشيطان الرجيم .

أما وقد هوى فاروق إلى هذا الدرك المشين ، فقد حق لصاحبة الجلالة « الصحافة المصرية » ، أن تصدر فيه حكمها ، فذكرت اسمه مجرداً من لقب الملك السابق ، بل ومن لقب « السيد » أو « الأستاذ » .

ثانياً : المهرب والصحافة الإسبانية

قرأت مجلة « سيمانا » الإسبانية المصورة الشهيرة الصادرة فى ٢٨ يولية ١٩٥٣ ،عندما كنت بالإسكندرية فى صيف عام ١٩٥٣ ، فإذا بها تنشر العجائب عن هذا المغامر الخطر بل المهرّب العالمى المخيف ، فأذاعت حقيقة قصته المثيرة فى أربع صفحات ، مزودة بالأسانيد الرسمية من صوره الفوتغرافية ، وبصمات أصابعه على ورقة التشبيه ، أخذتها إدارة الأمن العام بمدريد عام ١٩٣٤ وببرشلونة عام ١٩٣٦ ، وكلها تثبت أن هذا النصّاب العالمى أسمه الحقيقى ، « الكسندر نقولافتش رومانوف » ، بولونى الجنسية ، ولد فى رادومسك ببولونيا عام ١٨٩٣ ، ومات والداهالفقيران وهو فى الخامسة من عمره وتركاه بدون عائل ، فلما بلغ الصبى السادسة ، سافر خلسة إلى

روسيا ، ثم إلى فرنسا فوصل إلى باريس عام ١٩٠٠ ، وفى هذه السنة اندس فى سفينة بضاعة راسية فى ميناء الهافر ، وأقلعت بالصبى إلى نيويورك ، فنزل فيها خلسة ، ولم يظهر له أى أثر حتى بلغ التاسعة عشرة ، فظهر فى هافانا ضمن عصابة تتجر فى الدولارات المزورة ، ثم تركها إلى عصابة أخرى أربح إذ تشتغل فى تهريب الكحول والمواد المخدرة والأسلحة ، وتتخذ ميدان نشاطها فى بعض المدن الكبرى بالولايات المتحدة الأمريكية واتخذ اسم « كيد تايجر » ، وأصبح شريكاً فى عصابة « الكابونى » و « جاك ديامند » ، وترك هذه العصابة الإرهابية وظهر باسم « أنطونيو نافارو فرناندس »، وأصبح من كبار حاملى الأسهم فى مناجم الحديد بالبرازيل ، وفى تجارة السما بأوراجواى ، وفى شركات البترول بفنزويلا ، واقتنى أملاكاً واسعة بالمكسيك وغيرها ، برأس مال يقدر بالملايين من الدولارات ، مضافاً إليها ستمائة مليون دولار مودعة فى خزائن ستة مصارف بالولايات المتحدة الأمريكية ، وفى عام ١٩٣١ طالبته الخزانة الأمريكية بالضرائب ، فهرب وأخذت تتعقبه فى الخارج .

وفى عام ١٩٣٤ نزل فى ميناء سانتاندر (فى شمال إسبانيا) بدون تأشيرة دخول إسبانية ، وتخلف عن السفينة التى أقلته وسافر إلى مدريد ونزل بأحد فنادقها ، فقبض عليه البوليس لدخوله البلاد بدون تأشيرة ، وأخذت صورته الفوتوغرافية وبصمات أصابعه ، وكان يتكلم اللغة الإسبانية

بطلاقة ، وأبعد إلى الحدود . وبعد ثلاثة أشهر ، قبض البوليس عليه ثانية فى إشبيلية لعدم حصوله أيضاً على تأشيرة دخول ، ولكنه كان يحمل جواز سفر باسم « بريمن ساكوفسكى » ، وادعى أنه يجيد الإنجليزية والفرنسية ويتكلم الإسبانية بركاكة . غير أن وثائق التشبيه بمدريد أظهرت حقيقة أمره ، فأبعد إلى البرتغال من حيث أتى ، ثم قبض عليه البوليس لثالث مرة فى إسبانيا حيث نزل ببرشلونة فى عام ١٩٣٦ . وكان متسمياً باسم « البيرت سيكوسكى » ، فأبعد . واستمرت حياته بين انتحال الأسماء العديدة ومطاردة البوليس الدولى . والقبض عليه والإفراج عنه بالضمان المالى .

وفى عام ١٩٥١ ظهر هذا الشيطان فى المدن السياحية الأوربية الشهيرة بالمقامرة ، وكان يحمل جواز سفر ارجنتينيا باسم «انطونيو فرناندس نافارو » المولود فى « فيجو » بإسبانيا ، وتهوّر فى المقامرة حتى اشتهر بأنه المقامر بدون أعصاب .

ونقلت مجلة « سيمانا » المتقدمة الذكر عن صحيفة « أخبار اليوم » ، ما قرره سكرتير خاص سابق (يقصد بوللى) ، من أن ملكاً سابقاً (يقصد فاروق) اتفق مع النصّاب العالمى على إخراج الكنز المخبأ بالولايات المتحدة الأمريكية بواسطة الحقيبة الدبلوماسية المصرية مقابل عمولة مرتفعة .

ولما فرغت من تلاوة قصص هذا المغامر الدولى الخطر ، تاه العقل ، واختبأ القلم ، ومضت أيام ودوار الرأس يحرمنى القراءة والكتابة ، فلما

أفقت من شدّة الصدمة ، رضيت عن نفسى ، إذ أحست ملهمة بالريبة من أول وهلة بصوت هذا الشيطان بالتليفون قبل رؤيته ، فلم تمكنه من تنفيذ خططه الجهنمية وافتراس الضحايا ، غير آبهة بالمصير ، وطردته من السفارة ، وذهب الفكر إلى أن أقل اتصال بهذا الشيطان المريب فى مظهره المنفر فى مخبره ، الضار فى ملمسه ، لدليل قاطع على توافق فى المشارب والطباع مهما تكن البواعث والأعذار . ولذلك ازدادت النفس للحكم الملكى بغضاً وعداء ، وللنظام الجمهورى استمساكاً وتأييداً ، وراحت تكرر الحمد لله على أنه أنقذ الوطن من شر الشياطين .

(د) بحرية مصر :

زارت إحدى وحدات قواتنا البحرية بعض الموانئ الإسبانية فى صيف ١٩٥٢ ، فرحبت الدوائر الرسمية برجال بحريتنا ، وأمدتهم بكافة التسهيلات اللازمة ، وأكرمت وفادتهم ، فعبرت عما تكنه من عواطف صادقة نحو بلادنا ، كما اثنت البحرية الإسبانية على كفايتهم وحسن أخلاقهم ، فكانت الزيارة موفقة ومشرفة ، فزادت فى مهمة السفارة تعزيزاً .

وزارنى بمدريد بعض ضباط هذه الوحدة ، وما أن مسّ الحديث سيرة الوطن العزيز ، حتى فتحوا قلوبهم ، وأظهروا تذمرهم الشديد من التدخل البغيض من بعض الرجال غير الرسميين فى شئون الحكم .

فأطرقت الرؤوس جميعاً برهة فى حيرة ، وسبح كل عقل يفكر فى المصير المجهول ، وازداد عقلى فى سبحه خوفاً على الوطن من الوقوع تحت سيطرة المبادئ الهدامة .

(هـ) إسبانى فى كابرى :

أخبرنى إسبانى أنه رأى فى الصيف بكابرى الملك السابق فاروق ، وهو فى زىّ استهتارى ، ومحوط بسرب من الغوانى الفاتنات ، وكان يقهقه وتصدر منه حركات عصبية فى رعونة ، الأمر الذىلا يليق بأى فرد عادى.

فقلت لمحدثى بصوت كسير ، بأنه قد نال جزاءه ، وأصبحفرداً عادياً تائهاً فى عالم تسوده ارستقراطية العلم . . . . . .

يحسد الدبلوماسى على مهنته الخلابة ، ولا يدرى الحاسد أنها ذات سراب يجرى وراءه لاهثاً وهو يحمل على كاهله شرف أمته وأتراحها وأفراحها .

كفى يا دهر إغراء بالسراب .

(و) التحكم إلى العواطف :

تحدثت مع شخصية من أسرة محمد على فى صيف ١٩٥٢ ، وتناول الحديث فى رفق عزل فاروق ، وأنه لم يحسن سياسة ملكه فاستأهل ما

نزل به ، وأمنت الشخصية على ذلك ، ولكنها عادت فجأة وفى حماسة تطلب منى مراهنتها على أن فاروقاً سيعود إلى عرشه ، فأجبتها فى ظرف بأن فاروقاً قد مات أدبيًّا فلن يعود ثانية إلى الحياة السياسية . فأعادت الكرة فى رهانها ، وكررت إجابتى فى ظرف ، فكففت عن الجدال وانصرفت وودعتها بكل احترام .

وأشفقت على الشخصية المذكورة ، فقد بدأت فى اتزان تحكم العقل فى الجدل ، على أن العواطف تغلبت ، فذهب الاتزان واختفى المنطق .

(ز) الطبع الدبلوماسى :

لاتكون نظرة الدبلوماسى مقصورة على الميدان الذى يعمل فيه فحسب ، بل شاملة لدول العالم جمعاء ، فالعالم فى السياسة وحدة ، ومثل الدبلوماسى كمثل لاعب الشطرنج الماهر ، يوجه نظراته إلى الرقعة برمتها ، ولا يركزها فى نقطة منها .

فإذا قامت أزمة داخلية فى أية دولة ، اهتز لها الدبلوماسيون الأجانب فى داخل هذه الدولة وخارجها ، ففى الداخل يستقى الدبلوماسيون معلوماتهم عنها من الدوائر الرسمية والاجتماعية ، وفى الخارج يستمدونها من زميلهم ممثل الدولة المأزومة .

على أن اللوذ بالصمت قد يجدى أحياناً ، ولكنه فى الغالب يضر

بالدبلوماسى ، إذ ينفر منه زملاءه فيعاملونه بالمثل ، فيجد نفسه فى عزلة عما يدور حوله ، فمن الخير إراحة الدبلوماسى المستعلم ، فقد جرت العادة أن يسرد ما يجمعه من معلومات فى تقريره الدبلوماسى .

وفى ٢٨ يولية ١٩٥٢ كنت مدعوًّا فى حفلة شراب بالمصيف ، فالتف حولى كبار القوم وزملائى الأجانب ، وانهالوا علىّ بالأسئلة .

فأسرّ إلىّ أحد كبار الساسة بأن دوائره الرسمية تلقت من سفارتها بالقاهرة بأن الحالة لا تزال غامضة ، فأجبته بأننى لا أرى ذلك ، فإن إحدى النقائص التى أذيعت عن الملك السابق ونشرت على الملأ ، لكافية بأن تطوح بعروش ، وبأن تحيل حب أى شعب إلى حقد وكراهية . ولو لم تحدث ثورة الجيش ، لاشتعلت البلاد ووقعت وقوداً فى أتون الفوضوية . وأضفت لمحدثى أننى أرى أن عصرنا الذرى عهد الكفاية العلمية ، فأصبح الحكم لا يصلح بالوراثة . فعقب علىّ بقوله بأن دولته قد تداركت ذلك فى دستورها الجديد ، فرئيس الدولة يختاره مجلس المملكة من بين أعضاء الأسرة المالكة إن كان من بينهم من يصلح ، وإلاّ فمن أفراد الشعب .

وشرحت للزملاء الأجانب أهداف الثورة ومبرراتها ، وانبرى زميل أجنبى نابه وتنبأ فى أصالة رأى دبلوماسى ، بأن الثورة ستندفع فى طريقها كما اندفعت فى تركيا من قبل ، وأسرّ إلىّ بأن مصر ستصبح جمهورية [١] .

---

(١) لقد تحققت نبوءته فأعلنت الجمهورية فى مصر فى ١٨ يونية ١٩٥٣ .

وتعقبني الزملاء الأجانب بالمصيف ولا سيما على شاطئ البحر ، وأخذوا يطفئون الظمأ الدبلوماسي الحاد ، فأبدى لي زميل أن الثورة شيوعية ، فأجبته بالنفي ، وأنها على العكس ، قامت لتدفع السقوط المحتوم في هاوية الشيوعية ، فغالبية الشعب فقراء ، وأن الزارعين وهم أكثر من نصف عدد السكان يعيشون في ضنك ، ففتتت الثورة الملكيات الزراعية الكبرى ووزعتها على صغار الزارعين ، وذلك بالتمليك لا الإجارة .

واستعلم زميل آخر ، سبق أن مثل بلاده في مصر ، عن السبب في تحديد الملكية الزراعية ، وكان يكتفي للتخلص منها بالضرائب التصاعدية الباهظة على الأراضي الزراعية ، فأجبته من تلقاء نفسي ، بأن المقصود أن يشعر الزارع الفقير أنه مالك ، مما يقف حائلاً أمام تسرب المبادئ الهدامة إلى قلبه ، وأما فرض الضرائب التصاعدية ، فيؤدي إلى تفتت الملكيات الزراعية الكبرى ، ولكنها ستذهب إلى أيدي الرأسماليين المتوسطين فيبقى الزارع منطوياً على نفسية كسيرة متذمرة يسهل انفجارها عند أدنى مسيس ، فما اتخذته الثورة يعتبر إجراء صائباً ، فهو علاج ملموس مقنع للزارع . . .

عند ما يعلم الدبلوماسي أن رئيس دولته كان غير صالح ، وكان غيره يعلم بذلك وهو لا يعلم ، أصابته قبل مواطنيه صدمة ، تحيل الإجلال احتقاراً ، والإخلاص بغضاً ، والمداد ناراً ، والإشفاق شماتة .

٤ ـ مقابلة الجنرال فرانكو :

أديت فى ٢٢ أكتوبر ١٩٥٢ الزيارة الرسمية الوداعية إلى الجنرال فرانكو بقصر الباردو بضواحى مدريد ، وقد تفضل بتحديد موعدها ، فتجلت لى عن كثب عظمته فى إنكار الذات ، وتواضعه وبساطته ، وتفانيه فى خدمة الشعب ورفاهيته ، وزهده فى المادة لغنى فى نفسه ، وقد تجسمت فيها القناعة الإسبانية المشهورة ، وعبر عن ذلك بالعمل فى كدّ وإخلاص ، فقاد الحملة على الجهل والفقر والمرض ، متخذاً التصنيع أساساً ، والعلماء والخبراء أعواناً ، متواصياً بالصبر ، فإن العمل الإنشائى فى هذا الميدان لا يتمّ طفرة واحدة ، بل يتطلب السنين الطوال ، فوفق فى حملة البناء والتعمير ، كما وفق من قبل فى حملة التحرير .

ولقيت من رجل إسبانيا الأول كل عطف فى وداعى ، كما لقيت منه كل تأييد أثناء بعثتى ، فخرجت من عنده وقد لمست بيدى رجلا ، خلدت اسمه قلوب معارضيه ومؤيديه على السواء ، فدخل ، وهو حى ، فى عداد رجال التاريخ القلائل .

٥ ـ زيارات الوداع :

زرت مودعاً السنيور مارتن ارتاخو ، وزير الخارجية ، وكبار رجال

وزارته ، وزملائى الأجانب ، وبعض من فزت بصداقتهم من الإسبان ، فلقيت قلوباً عطوفة ، وصدوراً عامرة بالثقة ، فايقنت بأننى فزت فى الجوّ الذى عملت فيه بالعطف والثقة ، وهما جلّ ما يطمع فيه دبلوماسى .

وأخذ كل يستعلم عن العهد الجديد ، وكنت أكرر لهم ما سبق أن رددته ، وضربت لهم مثلاً بإسبانيا فى تاريخها القريب قبل الحرب الأهلية ، فقد ابتليت ببضعة آلاف من الأجسام المترفة ، التى أصابت التخمة معدها ، فأفسدتها وفرة ألوان الطعام اللذيذ الفاخر ، وأتلفتها كثرة التداوى والاستشفاء فى الخارج ، وكاد الترحال ينسيها وطنيتها . وعزفت عقول هذه الأجسام عن مواصلة التعليم ، فإنه وسيلة إلى الغاية ، وهى المال ، وهو مكنوز بكثرة ، بينما تئن الملايين العديدة من الأجسام الهزيلة من ألم الجوع وفقر الدم ، ونقص العلاج ، وتاق بعض عقول هذه الأجسام إلى العلم ، فانكب عليه ، وضرب فيه بسهم ، وبقيت الملايين من العقول تشقى فى غياهب الجهل ، وتفتك بها الخرافات والشعوذة والسحر والتعاويذ ، ولذلك قامت قلة من العقول العالمة بالمطالبة بالعلم للعقول المحرومة ، التى تسكن أجساماً مريضة ، فكان لزاماً أن تهوى إسبانيا إلى درك الشيوعية ، فأدركتها حركة جيش التحرير بقيادة زعيمها الجنرال فرانكو ، فأنقذتها من براثنها ، وقام زعيمها عقب النصر ، بمدّ المعد الخاوية بالقوت ، والأجسام المريضة بالعلاج ، والعقول الجاهلة بالعلم ، فاسترد الشعب حقه فى الحياة .

حقًّا إن التاريخ لخير عظة لمن يتعظ ، ويلوح لى أن حالة وطنى تشابه تماماً تلك التى كانت عليها إسبانيا قبل النظام القائم ، فكان لزاماً أن تهوى بلادى إلى درك الشيوعية كما هوت إسبانيا من قبل ، ولا سيما قد بدا النذير فيها بحريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، وأخذت تنزلق إلى الهاوية ، لولا أن أنقذتها حركة الضباط الأحرار .

ولو لم يكن لهذه الحركة المباركة غير هذا الفضل لكفى .

وكنت أجد أذناً صاغية فى كل من حادثت .

وودعتهم ، وبودى لو لم أودعهم ، فقد امتلأت النفس بمرارة الفراق ، غير أنهم غمرونى بحلاوة اللسان ، وصفاء الوداد ، وعطف الجنان ، فأبى نبلهم إلا أن يبدلوا العلقم شهداً .

٦ ــ هدية الزملاء الأجانب :

فى ٢٨ أكتوبر ١٩٥٢ أوفد إلىّ زميلى القاصد الرسولى ، وهو عميد الهيئة الدبلوماسية بمدريد ، أحد معاونيه ، فسلمنى الهدية التى اعتاد رؤساء البعثات الدبلوماسية بمدريد تقديمها إلى كل زميل انتهت بعثته وقد مضى عليها عامان ، فإذا بالهدية صينية من الفضة ، مستديرة ولها حافة ، دقيقة الصنع ، ازدانت بإمضاءات الزملاء وأسماء دولهم محفورة فى وجهها حتى

لا تمحوها أعاصير الدهر ،وقد بلغ عدد الزملاء الكرماء ثلاثة وثلاثين ، ومنهم بعض الزملاء الجدد ، الذين لم أحظ بمعرفتهم إلا من عهد قريب ، ولم يكن لى شرف تكريمهم .

وما كدت أن أصل إلى أرض الوطن حتى أرسلت لهؤلاء الزملاء الأمجاد الكلمة التالية ، ودونتها على بطاقة تحمل صورة تذكارية من مصر :

« إننى لأشكركم شكراً بلا نهاية على لفتتكم النبيلة ، وإن اسمكم الحبيب سيبقى محفوراً فى قلبى . »

وقد علقت هذه الهدية على الحائط أمامى بمكتبى ، أستمد من مهديها العون فى وضع كتابى هذا ، فلهم فيه فضل كبير ، رأيت أن أنمقه فى هذه الصفحة منه ، حتى تبقى أبداً زاهية على الزمن .

٧ ـ تفانى العلماء :

ما أجمل تواضع العلماء ، وأوفر أفضالهم ، فقد فزت بصداقة عالم إسبانى ، فأبت أخلاقه الإسبانية الشميمة إلا أن يقصدنى مودعاً ، وألح فى طلبه ، فرضخت لسلطان العلم ، ورأيت أن أطمع فى علمه الغزير .

فقد نشر الأستاذ مارانيون أخيراً ، وهو شيخ أطباء إسبانيا ، فى مجلة « سيانا » ، مقالاً ممتعاً عن « الطبخ » ، فهالنى أن طبيباً عالميا ، يتدفق عليه المرضى من كل صوب من الداخل والخارج ، يجد وقتاً لإلقاء

المحاضرات فى الجامعة ، والكتابة فى التاريخ والأدب والعلوم والفنون وحتى فى الطبخ .

ولما كان مودعى العالم صديقاً حميماً للطبيب الخارق ، انتهزت الفرصة لاستجلاء هذا الموضوع .

فأجاب العالم بأن هذا العبقرى يصحو فى السادسة صباحاً ، ويرتب وزوجه جميع بطاقات المرضى حتى الساعة العاشرة ، ويتناولان طعام الإفطار ، ثم يذهب إلى الجامعة لإلقاء المحاضرات ومقابلة مرضاه المعوزين وعلاجهم دون أجر ، ويعود إلى داره ويتناول غداءه ، ويستقبل مرضاه من الثالثة بعد الظهر إلى الحادية عشرة مساء ، ويخرج مع زوجه فى طريق الكاستليانا للرياضة سيراً على الأقدام لفترة ، ويرجعان أدراجهما ، وبعد تناول العشاء ، يواصل العبقرى عمله حتى الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً ، فلا ينام سوى أربع أو خمس ساعات ، ويبدو دائماً هاشاً باشاً .

فجلا مودعى الفاضل ما أغلق علىّ فهمه ، فدل على أن العلماء الأفذاذ قد وهبوا أنفسهم للعلم ، فكرّسوا كيانهم وأوقاتهم على كشف أسرار الحياة .

٨ ــ معجزات فى القرن العشرين :

قد وقفت قبيل تقلدى منصبى بمدريد ، مما قرأت وسمعت ، على أن

الإسبانى عزيز النفس ، رقيق الشعور ، شديد التدين فعال للخير ، وفىّ خدوم ، غيور ذوّاد عن عرضه وكرامته وشرف وطنه ، مغامر جرىء ومقاتل مستميت ، وقنوع صبور لم تفسده المادية بعد .

فدهشت أن يتحلى غربى بطباع أغلبها عربية ، وهى مدار المهزأة من الغرب ، فقد أصبحت عتيقة لا تتفق مع التقاليد العصرية ، فداخلنى الشك فيما قرأت وسمعت .

فلما حللت بإسبانيا ، تبدد الشك ، وانقلب الدهش إعجاباً ، وفاق الواقع كل ما قرأت وسمعت ، فاستطعت أن ألتقط بقلمى بعض الصور الخارقة ، التى أسردها فيما يلى ، وأيقنت أن الدبلوماسى الغربى ، الذى لم يعمل فى البلاد العربية ، أو عمل فيها ولم يفقه العقلية العربية ، لن يستطيع أن يفهم العقلية الإسبانية ، وبالتالى الانسجام مع البيئة والتجاوب معها :

(الأولى)

إنها فتاة وسيمة فقدت والدها فراحت هائنة تعول والدتها وإياها ، عهدت إليها زوجتى بعمل ، فلما أتمته ، أعطتها أجرها ورقة نقود قيمتها تعادل جنيهاً .

ورن التليفون فى مسكنى بالسفارة ، فرددت ، فإذا بهذه الفتاة تطلب التحدث مع زوجتى ، وكانت قد خرجت فى زيارة ، فأخبرتنى بأن زوجتى أعطتها سهواً ورقة نقود تعادل عشرة أمثال أجرها ، ولم تفطن إلى ذلك إلا بعد وصولها إلى دارها ، ووعدت بالحضور لرد الزيادة ، ملتمسة المعذرة ، وكانت تتكلم بصوت مرتجف وكأنها قد ارتكبت إثماً .

فأذهلتنى أمانتها المفاجئة ، فانعقد لسانى ، وأخذتنى الهيبة إزاء ملاك ارتفع أمام عينى من الأرض إلى السماء ، فلم أنطق إلا ّ همسا ، فكررت الشكر للفتاة العيوفة على لفتتها النبيلة ، والتمست منها المعذرة ، لأن الخطأ وقع منا .

وحضرت الفتاة ، فاعطتها زوجتى الأجر مضاعفاً ، فأبت تناول أية زيادة عن حقها إلا ّ بعد إلحاح شديد ، وقد غمرتها حمرة الأدب الرفيع .

وراح العقل يردد بأنها فتاة لا تدخر شيئاً ، ويكاد أجرها يكفيها ووالدتها ، وتجد بين يديها مالاً لا يمكن كشف ملكيته ، فلا تمسه ! ! إنها لمعجزة فى عصرنا الآلى الذرى ، وفخر لإسبانيا ، وعزاء للإنسانية فى طوفان المادية .

حقاً إن هذه الفتاة الخارقة لا تدخر شيئاً سوى نفس غنية وأمومة مثالية . . . وكفى .

لقد أحيت المثل العربى القديم : « تموت الحرّة ولا تأكل بثديها » .

(الثانية)

قصّ على دبلوماسى إسبانى ، أنه كان يقود سيارته فى إسبانيا فى طريقه إلى بلدة فى الريف ، فقابل شيخاً يسير على قدميه ، والطريق موحش قفر ، مجهد فى الصعود ، زلق فى النزول ، خلو من وسائل النقل ، فأوقف سيارته إشفاقاً على شيخوخة هذا الراجل المسن من طول الطريق فى بقعة جرداء ، وسأله عن الجهة التى يقصدها ، فتبين أنها فى طريق الدبلوماسى ، فدعا الشيخ إلى الركوب معه فى السيارة لأن الطريق طويل وممل ، وأنه بذلك يقتصد على الأقل سير ساعة ، على حين تقطعه السيارة فى بضع دقائق .

فشكره الشيخ على عرضه الكريم ، واعتذر عن عدم إمكان تلبيته ، مستعلماً منه فى رفق ، عما يفعله أثناء هذه الساعة المقتصدة إذا ما وصل مبكراً ! !

وروى إلىّ هذا الدبلوماسى ، أن إحدى الصحف الإسبانية الشهيرة نشرت بضع مقالات ، تدور على تبيان العقلية الإسبانية مع مقارنتها بالعقلية الأمريكية ، وذلك فى شخص يتخذ السرعة فى كل حركاته منذ صحوه من النوم ، فيركض إلى عمله ، ويتناول فى عجلة وجبة الغداء من

الشطائر وهو واقف ، ويعود مهرولاً إلى عمله ، ثم يتناول عشاء خاطفاً ، ويغمر الراديو سمعه بموسيقى الرقص الصاخبة والأنباء الخاطفة ، وكأنه قد أصبح إنساناً آلياً لم يبق له وقت للراحة حتى يفكر عقله ، على عكس الإسبانى ، فإنه إنسان طبيعى ، يملك وقتاً طويلاً للراحة والتفكير والتحدث إلى صحبه وذويه فى هدوء وروية .

وعلق قلمى على ذلك ، بأنه شتان بين الحالين ، حال الإنسان الذى تسيره الآلة فيصبح تابعاً لها ، وحال الإنسان الذى يسير الآلة فتصبح تابعة له .

(الثالثة)

جلست فى مأدبة عشاء رسمية بجانب زوجة إحدى الشخصيات الإسبانية الممتازة ذات المسئولية .

ولاحظت أن هذه الزوجة الفاضلة الجميلة أخرجت من حقيبة الزينة مرآة صغيرة ، لكى تلقى عليها نظرة على تمام زينتها قبيل نهاء الطعام ، كما تقضى بذلك أناقة الأنوثة ، وحانت منى التفاتة ، فرأيت الأعجوبة ، إذ رأيت هذه المرآة قديمة ومكسورة .

فأكبرت فى انذهال هذه السيدة الخارقة ، وقد حملها غنى النفس ، وسمو الخلق ، على أن تشاطر زوجها العظيم فى كنز القناعة ، فلم ترهقه بما

فوق طاقة دخله المحدود ، جرياً وراء مطالب زينة النساء وطباع الأنوثة ، باقتناء الجواهر والفراء وفاخر الثياب والعطور ، مما يغرى ذمم الرجال ، فتمتد الأيدى إلى مال الغير .

فداست هذه الزوجة الشريفة فى إباء بقدميها الطاهرتين أدوات الزينة اللازمة للأنوثة ، وآثرت أن تتجمل بزينة الشرف ، فتسهم مع زوجها العظيم فى بناء مجد الوطن وخلوده ، فأنارت الطريق أمامى لمعرفة السر فى إسبانيا فى تداول عبارة المجاملة : « أرجو أن تقبل قدمى السيدة » ، بدلاً من العبارة المتعارف عليها فى الغرب وهى : « أرجو أن تقدم احترامى إلى السيدة » .

لقد سمت هذه السيدة فى الكمال والجمال ، فكانت معجزة ، فاهتز لها القلم ، فأبى إلا أن يسطر هذه الأحدوثة لتبقى خالدة .

(الرابعة)

فى إحدى الحفلات الرسمية تحادثت مع أحد الحكام العظام ، فلاحظت أن وَبرَ أحد كمى بذلته قد زال ، وذلك من جراء انكبابه بكلياته على العمل ليل نهار ، ولم يغتر بمنصبه الرفيع ، فصان يده عما يدنس وطنه وشرفه ، فترك وراءه إشعاعاً لا يراه ولكن غيره يراه براقاً يكتب حروفاً وضاءة بأن وطنه عظيم فحق إجلاله ، وإن هذا الحاكم خادم أمين فاستأهل التبجيل .

وكفى فى الأمة أن تفوز بواحد من أبنائها بهذا الخلق العظيم ، حتى تأخذ مكانها بين الأمم الحية .

(الخامسة)

دعوت عضواً بارزاً فى حزب الفلنخ إلى مأدبة بالسفارة ، وكان يرتدى بذلة متقنة الصنع ، فسأله أمامى زميل أجنبى عن الخياط الماهر الذى حاكها فأبدع ، فأجاب فى غير تردد ، بأنه خياط متواضع غير مشهور ويتقاضى أجراً زهيداً ، قد تلقى المهنة عن أحد الخياطين المشهورين ، ولذلك اتخذه خياطاً لملابسه نظراً لأن موارده المحدودة لا تحتمل الأجر الباهظ الذى يتقاضاه الخياط المشهور .

وتجلت عظمة إسبانيا لزميلى ولى فى صراحة هذا السياسى البارز ، الذى صفت نفسه العالية من عقد النقص فنطق الحق دون أن يخجل من أن يصرح بأن موارده متواضعة أمام أناقة الدبلوماسية وترفها وأبهتها . فحنت الدبلوماسية الأجنبية الرأس لوطنه إجلالا ، ولشخصه النبيل إعزازاً وتقديراً .

ولقد نفخ هذا العظيم ، الفريد فى الأمانة والعفافة وغنى النفس ، إكسير الحياة فى جسم أمته ، فتجددت خلاياه ، فأنقى وطنه ونفسه من عوامل الضعف ، فنزلت السعادة على قلبه ، وفاضت أشعتها على كل ما اقترب من أجسام ، فكان من حظ زميلى وإياى أن نفوزا بشىء منها .

(السادسة)

إنه زميل إسبانى ، ودبلوماسى ممتاز ، عرفته فى العمل فى الخارج ، وقد تقاعد ، وأردت أن أجدد فى وطنه المعرفة القديمة ، فقابلته ، وأبنت له رغبتى فى زيارته ، وتشرفى برؤياه فى دعواتى ، فأجاب ، فى حياء وصراحة زمالية ، بأنه سيبادر بزيارتى ، ويلبى دعواتى فى سرور . وكانت نبرات صوته صادرة من قلب كبير فنفذت إلى القلب ففهمت ما جال بخاطره ، وأحسست أنه أدرك أن كلانا فى أعباء الدبلوماسية سواء . فإنها لا تترك للدبلوماسى مدخراً ، فأكبرت فيه عزة النفس ونقاء اليد . فزاد حرصى على الفوز بمودته ، ولا سيما أن الخواطر تواردت فقد عقدت العزم على أن أحذو حذوه عند ما اعتزل مهنتنا الترفيه ، فاعلمته فى استعطاف ، بأننى راغب بإخلاص فى زياراته دون مراعاة للقواعد المراسمية .

ففرح الزميل العظيم ، ووعد بتلبية رغبتى ، وتفضل وبرّ بوعده ، فبرهن على أنه دبلوماسى مثالى ، وضع خدمة وطنه فوق متاع الحياة ، فلم تفسده حياة القصور الدبلوماسية ، وزهد فى زخرفها فلم يحزن لافتقادها ، وكان فى استطاعته الإثراء عن طريق التقتير ، ولكن عفافة نفسه آثرت خدمة الوطن وعظمته ، فجاهد فى سبيل ذلك جهاد الجندى المجهول .

فهنيئاً لإسبانيا بمثل هذا الدبلوماسى العظيم المجهول .

(السابعة)

بينما كنت أتناول طعام الغداء، وكنت منهمكاً فى إتمام المراسم المعتادة بمناسبة انتهاء بعثتى بمدريد ، إذا بمستخدم إسبانى بالسفارة يقدّم إلىّ شيئاً ملفوفاً فى ورق أبيض ، فظننته الهدية الوداعية من زملائى الأجانب ، فاستعلمت منه عمن أحضرها ، فلم يجب ، فنزعت غلاف الورق الخارجى فإذا بداخله صندوق من الفضة الصافية ، متقن الصنع ، ثقيل الوزن ، وقد حفرت على غطائه الجميل أسماء مستخدمى السفارة الإسبان ، كما حفرت عبارة التقديم إلىّ وزوجى .

فأرتج علىّ ، فالهدية ثمينة ، وتزيد قيمتها على ما يتقاضاه هؤلاء المستخدمون من مرتبات فى الشهر ، فنظرت إلى المستخدم الذى قدمها إلىّ فوجدت عينيه تسبحان وسط الدموع ، فخافت عيناى عليهما من الغرق ، فجمدتا ، وحلّ الدوار بالرأس ، وعز الكلام ، وبعد هنيهة جاهد لسانى فى اقتناص بعض العبارات فى عقلى المذهول ، فنطقت بأنهم قد تحملوا فوق طاقتهم ، فإذا به يتحدث فى صوت بلله الدمع ، بأن زوجى وأنا ، قد أحسنا إليهم المعاملة ، فأحبتنا قلوبهم فى صدق ، وأنهم يخشون أن الفراق قد يدفعنا إلى نسيانهم ، فجاؤوا بهذه الهدية الصغيرة محفورة عليها أسماؤهم ، حتى تذكرنا بهم ، فلا ننساهم على مرّ السنين .

واستمر ذهولى أمام هذه المعجزة ، التى خرجت علىّ من صميم الشعب ، فأجبت المستخدم الكريم ، بأن زوجى وأولادى وأنا ، لن ننساهم ، وإننى أعتبر هذه الهدية أنفس ما تلقّيته فى حياتى ، وأعز ما نلته من أوسمة الشرف ، ولذلك فإننى سأضعها فى مكان الصدارة أمامى بمكتبى ، معتزا بها ، ومستلهماً منها فى كتابتى . وقد فعلت وأنا طروب فخور .

ويشغل هؤلاء المستخدمون وظائف دنيا ، ولكنهم يحملون بين جنوبهم نفوساً كباراً ، فأصبحوا سادة فى عيون ذوى النفوس الكريمة .

ومع أنهم فقراء ، إلاّ أنهم يجودون بالنفس والنفيس ، فأصبحوا أغنياء النفوس .

حقّاً إن إسبانيا لتمتلك جوهراً فريداً أثمن من مادة الأورانيوم وأقوى منه ، ألا وهو جوهر غنى النفس .

* * *

تلك هى معجزات سبع وجدتها فى إسبانيا وأنا ممسك بيدى قلماً .

٩ ــ التشبع الدبلوماسى :

لما كنت دبلوماسياً بادئاً ، لاحظت أن الآنسة ، وهى ابنة سفير لدولة عظمى ، لا تجيد لعب التنس وهى اللاعبة الماهرة ، فحسبت أن

نوبة من المزاج المضطرب قد أصابتها ، وهى كثيراً ما تنتاب اللاعب فتنزله عن مستواه .

غير أن لعبها زاد فى التدهور ، فأتممت اللعب دون أن أفاتحها فى الأمر تأدباً بأدب الرياضة ، فطلبت منى أن أرافقها إلى دار السفارة لتناول الشاي ، فرحبت بطلبها شاكراً ، ولا سيما وأننى سأسعد بلقاء والدها العظيم الذى أعتبره أستاذاً لى ورائداً . فما أن ذكرت اسم والدها حتى تنهدت قائلة إنه طلب اعتزال الخدمة فى السلك الدبلوماسى ، مع أن وزارته تلح عليه بالبقاء ، ولا يزال فى العقد الخامس وأمامه سنوات طوال حتى يبلغ سن التقاعد .

فأدركت سبب تدهور الآنسة فى اللعب ، فبطل العجب فى هذه الناحية ، ولكنه انتقل إلى سبب الاستقالة المبكرة ، مع أن والدها يعتبر من السفراء الممتازين الناجحين فى العاصمة التى أعمل فيها إن لم يكن أكفأهم .

ومهدت لى الألعاب الرياضية إلى أن ألتقى كثيراً بالسفير الوالد ، ففزت بعطفه ونصائحه وتشجيعه ، فحزنت حقا لسماع الخبر ، لأننى أفتقد معلماً وناصحاً ، وإننى لمقدر سبب إزعاج ابنته ، فشبابها غض ينشد عش الزوجية ، ومن اليسير العثور عليه فى ظل الدبلوماسية وتحت تاج السفير .

وعقب تناول الشاى ، أعلمت السفير بما سمعته من ابنته مما أزعجنى وأحزننى ، وسألته السبب ، مع أنه السفير الناجح ذو الخبرة الطويلة ، فوطنه أحوج إلى خدماته فى هذه الفترة الناضجة من العمر ، وأنه أجدر من يعدّ لوطنه دبلوماسيى الغد .

فابتسم السفير مع نظرة حادة قدرت براعة دبلوماسى بادئ ، دفعته روحه الرياضية إلى الصراحة ، فربت على كتفى قائلاً ، إنه يشكر لى إظهار عواطفى نحوه ، ويتنبأ لى بأننى سأصل مثله إلى القمة فى السلك الدبلوماسى وفى سن مبكرة ، فإنه فى الخامسة والخمسين من عمره ، ويعتبر من أصغر زملائه سناً فى دولته ،وقضى فى السلك قرابة خمسة وثلاثين عاماً ، منها خمسة عشر عاماً كوزير مفوض وسفير ، وقد كرّس كل جهوده ووقته فى المهنة ، ولكنها مهنة شاقة على جهازى الهضم والأعصاب ، فينبغى على المعدة أن تهضم ما لا تستسيغه أو تستطيعه وقد أدخل فيها قسراً بسبب الولائم الرسمية والدبلوماسية والاجتماعية ، واضطرت إلى تقبله بمقتضى اللياقة الدبلوماسية ، ولا تستطيع الرفض أو الضجر ، وقد تكاثرت عليها يوميا المآدب والحفلات ، فلا بد وأن يصيبها العطب على مرّ الأيام ولو كانت من فولاذ .

كما يجب أن تحتمل الأعصاب فى ابتسام ، فتستقبل فى بشر أثقل الناس دماً ، سواء أكانوا من المواطنين أم الأجانب الذين يعمل بينهم ،

وأن تتحكم فى اللسان فلا يبوح بسر أو يبدى رأياً ، وأن تملك السمع فيدرك الحس الرهيف ، وأن توجه البصر فتتعدد العيون ، وأن تسيطر على شخصيته فتوجهها وفاقاً للتيارات السياسية المختلفة من داخلية وخارجية ، وأن تفرض عليه الظهور الدائم على المسرح الدبلوماسى المتنقل ، فيبدل فى اليوم الأثواب اللازمة ، من صباحية ومسائية ، ومن بذلات رسمية بالنياشين أو بدونها ، وإذا ألقى المسرح المتنقل عصا الترحال ، وبدأ يستقر به الحال ، لم يلبث أن ينقل المسرح إلى بلد آخر ، فتعبأ الحقائب والصناديق ، وتبدأ من جديد عملية الفتح والترتيب وإعداد أدوات المهنة من حلو الشراب وفاخر السيجار ، فلا بد وأن تصاب الأعصاب على مرّ الزمان بالعطب ولو كانت من حديد .

ولا يستفيد جهازا الهضم والأعصاب إلا قليلاً من الإجازات السنوية والألعاب الرياضية .

فإذا وفق الدبلوماسى إلى عصا الفريقية ، وهى درجة السفير ، فكفاه فخراً ، وعليه ألاّ يبقى طويلاً فى أوج الدبلوماسية وأبهتها ، فينجو بصحته وأعصابه قبل فوات الأوان ، فيتمتع بحياته الباقية فى ثمرة الماضى ، وبين الكتب النفيسة والطبيعة الرائعة ، مستنيراً بنور عقله الناضج . فإن لم يفعل ، تقاعد معتل الجسم ، مختل الأعصاب ، وغدا عميلاً طيباً للأطباء ودور الشفاء ، وكفى بذلك شقاء .

ونظر إلىّ السفير وأنا أنتصت إلى درره ، وختم حديثه بأنه نظراً لصغر سنى ودرجتى فى السلك الدبلوماسى ، فمن العسير أن أقدر تماماً رأيه ، ولكنه طلب منى عند ما أصل إلى درجة سفير فى سرعة كما يتوقع ، أن أذكر رأيه ، فإن تبينت لى صحته ، رجانى أن أعتزل المهنة لأسعد بمباهج الحياة ، ونعيم الكتابة ، فإنه أحسّ بأننى أهواها ، فإن القلم من الأدوات الأساسية للدبلوماسية ، ومعين لا ينضب فى التقاعد وأوقات الفراغ .

واستفدت من محاضرته القيمة ، وقد كنت أجلّ فيه العلم الغزير ، والذكاء الوقاد ، والخلق الحسن ، فكررت فى حزن أسفى لحرمانى من أستاذيته ، وزمالة ابنته فى لعبة التنس .

وعدت إلى قلمى أدون به مادة طريفة فى مذكراتى .

ولما أشرفت على الخامسة والخمسين ، بدأت يدى تشعر حقا بثقل عصا الفريقية ، وتذكرت حديث السفير الممتاز ، وملكت السآمة النفس ، وأضحت تنشد الفرار من نعيم الدبلوماسية ، فتحدثت مع زوجى فوافقت وراجعت يراعى فاهتز طرباً ، وقد كاد يقصفه أنين النفس الحبيسة .

وكنت أبث هذا المبدأ فى بعض أعوانى البادئين الذين أتوسم فيهم مستقبلاً يرفعهم فى سرعة إلى درجة السفير .

كما فاتحت بعزمى أحد العظماء من مواطنى ، وقد جاء إلى مدريد زائراً ، فأراد أن يثنينى عن عزمى ، فنقلت الحديث إلى موضوع آخر .

واعتزمت اعتزال الخدمة في عام ١٩٥٢ بعد أن تمت لى أسباب التوفيق فى العمل وأديت واجبى فأكملت مهمتى ، واشتد المرض على زوجى فزاد العزم حتى أكون بجانبها .

ولكن شاء حظى الحسن أن أحال إلى التقاعد فى أواخر عام ١٩٥٢ ، فصادف ذلك هوى فى النفس ، وما كادت سيارتى تغادر حدود مدينة مدريد الجميلة فى الصباح الباكر من أول نوفمبر ١٩٥٢ ، حتى ارتفع كابوس المسئولية الدبلوماسية عن الصدر فاتسع ، فزاد استنشاق الهواء النقى يحمل الحيوية إلى الدم والخلايا ، فأصبح الشيخ صبيا ، ولاح أمامى شبح السفير الأجنبى الممتاز ، فابتسمت له شاكراً .

لقد صدقت نبوءة هذا السفير العظيم .

وهكذا أفقت من غيبوبة العقل الحبيس ، وثملت من نشوة العقل الطليق ، ورحت أترنح متكئاً على قلمى بين الكتب القيمة والطبيعة الفاتنة.

وسبق أن استطلع وزير إسبانى رأيى فى بلاده بعد مضى عام من إقامتى فيها ، فأجبته بأننى أدعو الله أن تكون مهمتى فيها خاتمة المطاف فى مهنتى الدبلوماسية .

فاستجاب الله لدعائى ، إن ربى قريب مجيب .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٦

الثمن ٥٠ ص